

مدام بوقاری

چوسٹاف
فلسوف

Looloo

www.dvd4arab.com

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

[illegible]

مجلس



مدام بوقاری

جوستاف فلوبر
الجزء الثاني

الفصل التاسع

● انقضت ستة اسابيع ، دون أن يأتى « رودولف » ثانية .. ثم ظهر أخيرا فى إحدى الأمسيات . كان قد قال لنفسه غداة المعرض : « ما ينبغي أن أعود سريعا ، فهذا خطأ » .. وفى نهاية الأسبوع خرج للصيد ، وخطر له بعد الصيد أن الوقت قد تأخر ، بحيث لا يلىق أن يذهب .. ثم عاد فراود نفسه قائلا : « لكنها إذا كانت قد أحببتى منذ اليوم الاول ، فلسوف يزيد بها وجدا تلفها إلى رؤيتى . فلتنفض اذن ! » . وأدرك أن ما توقعه كان صحيحا ، حين لمح وجه « ايبا » يشحب لدى دخوله الحجرة ! .. كانت وحيدة ، والنهار يحتضر .. وقد ضاعفت السقائر الحمريرة الصغيرة — المحاذية لطول زجاج النافذة — من لون الشفق . وكان بريق « البارومتر » ، الذى سقط عليه شعاع من الشمس ، ينعكس على المرأة بين حزميتين من المرجان . وظل « رودولف » واقفا ، بينما ردت « ايبا » فى غناء عبارات التحية الاولى .. قال : « كانت لدى اعمال .. وكنت مريضا » ، فنهفت : « بدرجة خطيرة ؟ » .. فقال وهو يجلس على مقعد منخفض إلى جوارها : « حسنا ! .. لا ! .. إنها كان غيابى لأننى لم أشأ أن آتى .. وتساءلت : « لماذا ؟ » ، فسألتها بدوره : « ألا تحسبن ؟ » .

ورمقتها مرة أخرى ، لكن نظرته كانت حادة ، فنكست رأسها ، وتضرج وجهها ، بينما عاد يقول : « ايبا ! .. » . فتراجعت قليلا ، فائلة : « سيدى .. » .. فقال فى صوت

حزين « آه ! .. ها انتذى ترين أننى كنت محقا فى عزوفى عن المجئ .. فانت تحرمين على هذا الاسم .. الاسم الذى يهلا نفسى ، والذى أفلتت من لسائى ! .. بدادى بوفارى ! .. آه ! .. كل الدنيا تدعوك هكذا ! .. ثم إنه ليس اسمك ، وإنما هو اسم شخص آخر ! .. وعاد يردد : « شخص آخر ! .. » .. ثم أخفى وجهه فى راحتيه ، وهو يستطرد : « أجل ، أننى أفكر فيك باستمرار ! .. نكراتك تدفعنى للحنوط ! آه ، معذرة ! .. لسوف أتركك .. وداعا ! .. سأبتعد .. سأذهب إلى حيث لا تسمعين عنى ! .. على أننى اليوم لا أدري .. بعد — أية قوة دفعتنى إليك ! .. فإن المرء لا يستطيع أن يناضل السماء ، أو يقوى على مقاومة ابتسامة الملائكة ! .. إنها ينساق الإنسان لما هو جميل ، فانت ، حبيب ! .. » .

كانت هذه أول مرة تسمع فيها « ايبا » مثل هذه الأقوال ، فتطى زهوها إلى اقصاه ، فى رفق ، كشخص يستمرىء حماها دافئا .. بينما استأنف الشاب حديثه : « .. بيد أنى إذا كنت لم آت .. إذا لم أملك أن أراك ، فإنى .. آه ! .. كنت على الأقل أأكل ما يحيط بك مليا .. كنت انهض فى الليل — كل ليلة — وأتى إلى هنا ، فأتامل دارك . والمستق المتلقى تحت القمر ، وأشجار الحديدية التى كانت تتمايل أمام نافذتك .. ومصباحا صغيرا ، وميضاً كان يلعب خلال زجاج النافذة ، فى الظلام .. آه ! أنك ما عرفت قط أن ثمة تعسا مسكينا كان قريبا منك ، بقدر ما كان بعيدا ! .. » .

فالتفتت إليه دامعة ، وهتفت : « إواه ! .. أنك طيب ! .. » . — لا ، بل أنا أحبك ، وهذا غاية ما فى الأمر ! .. أنك

لا ترتابين في هذا ! .. انبئيني .. بكلمة .. كلمة واحدة !

وانزلق « رودولف » — دون أن يعي — عن المقعد إلى الأرض ، لولا أن سمع وقع نعلين خشبيين في المطبخ ، ولاحظ أن باب القاعة لم يكن مغلقا ، فاستطرد وهو يتنهد : « كم تكونين كريمة إذا أنت حققت نزوة لدى ! » .. تلك هي أن يجوس خلال دارها ، إذ ود أن يتعرف عليها ، وإذ لم تر مدام « بوفارى » حرجا في ذلك ، نهضا معا .. بينما دخل « شارل » فقال له رودولف : « عم صباحا يا دكتور » .. واغتر الطبيب بهذا اللقب الذي لم يكن يرتقبه من ضيفه ، فانطلق يرد التحية في عبارات تنم عن الارتياح .. واستغل الآخر الفرصة ليتمالك نفسه بعض الشيء ، ثم قال : « لقد طماننتي السيدة عن سحتها .. »

فقطع عليه « شارل » الحديث .. بالعكس ، أن لديه ألف هاجس وهاجس في الواقع ، فلقد عاد إليها ضيق النفس ، و .. وإذ ذاك سأل « رودولف » عما إذا كانت النظرة على الجواد تنفعها ، فهتف : « بالتأكيد ! .. رائعة ! .. عين ما ينبغي ! .. يا لها من فكرة ! .. خليك بك أن تأخذى بها » .. وإذ تعللت « آيما » بأن ليس لديها جواد ، عرض السيد رودولف أن يقدم لها جوادا ، فرفضت عرضه .. ولم يصبر .. ثم قال تبريرا لزيارته ، أن حوذي — الرجل الذي أجريت له الحجابة — لا يزال يعاني من الدوار .. فقال « بوفارى » : « سأعوده ! »

— لا ، لا .. سأوفده إليك .. سنأتي ، فهذا ادعى لراحتك .

— آه .. حسن جدا .. أشكرك .

● وما إن أصبحا على انفراد ، حتى سأل شارل زوجته : « لم لا تقبلين العرض الذي تكرم به السيد بولانجييه ؟ » .. فأبدت إعراضا ، وانحطت ألف عذر ، ثم أعلنت في النهاية أن الأمر قد يبدو غريبا .. فقال وهو يدور حول نفسه : « آه ! .. لست أحفل ! .. الصحة قبل كل شيء ! .. انك مخطئة ! .. » فقالت : « آه ! .. وكيف ترينني على أن أركب جوادا ، وليس لدى زى الركوب ! » .. فأجاب : « يجب أن تطلبي زيا ! » . وكان هذا فصل الخطاب .. فلما أعد ، كتب « شارل » إلى السيد « بولانجييه » أن زوجته رهن اشارته ، وأنه يكلها إلى رعايته . ووصل « رودولف » أمام باب « شارل » في ظهر اليوم التالي ، مع جوادين مسرجين ، حمل أحدهما حول أذنيه وبرودا من الصوف الوردي اللون ، وكان سرجه تسويا من جلد الوعل .

وكان « رودولف » قد ارتدى حذاءين طويلين من الجلد الطرى ، محدثا نفسه بأن « آيما » ولا شك لم تر شيئا مثلها قط . وقمعا ، فتنت بمظهره حين ظهر في أسفل السلم في حلته المخملية الواسعة ، وسرواله المصنوع من الصوف الأبيض المنسوج باليد . وكانت متأهبة ، في انتظاره ، وتسلل « جوستان » من الصيدلية ليرأها ، كما قطع الصيدلي عمله وجاء يوصي السيد بولانجييه : « إن اتحادث تقع فجأة ، فخذ حذرك .. ربما كان جوادك شديد الاندفاع ! » .

وسمعت « آيما » ضجة منبعثة من أعلى ، فلما

« فيليسيته » تنقر زجاج النافذة لتلهي « بيرت » الصغيرة . وأرسلت لها الطفلة قبلة على البعد ، مردت عليها الأم ملوحة بمقبض سوطها .. وصاح السيد « هوميه » : « نزهة طيبة ! .. الزها الحكمة والروية ، قبل كل شيء ! .. الحكمة والروية ! » .. وأخذ يلوح بصحيفته وهو يرقبهما يتعدان . وما إن دق حصان « ايبا » الأرض بحوافره ، حتى انطلق راكضا بها ، فركض « رودولف » إلى جوارها .. وصارا يتبادلان حديثا بين لحظة وأخرى ، ثم استغرقت ايبا في الصمت ، منساقة لايقاع الحركة التي كانت تؤرجحها في سرجها ، وقد مالت تامتها إلى الامام قليلا ، وارتفعت يدها ، وانبسطلت ذراعها اليمنى .. وعند أسفل السطح ، أرخى « رودولف » العنان لجواده ، فانطلق الجوادان في وثبة واحدة ، وما لبثا إذ بلغا القمة ، ان وقتا فجأة ، مسقط القناع الأزرق عن وجه « ايبا » .. وكان شهر أكتوبر في ايامه الأولى ، وثمة ضباب يرين فوق الأرض ، والسحب تنتشر عند الأفق ، جول الغلال ، بينما تتكسكت سحب أخرى ، وأخذت تطفو متباعدة ثم تختفى .. وكان المرء يلمح في بعض الأحيان خلال ثغرة في السحب ، تحت شعاع من ضوء الشمس ، سقوط بلدة (ايوفيل) والحداثق الممتدة على حافة الماء ، والساحات ، والجدران ، وبرج الكنيسة . وزمت « ايبا » عينيها لتستبين دارها ، ولم تكن هذه القرية البائسة — التي عاشت فيها — قد تراءت لها قط من قبل صغيرة إلى هذا الحد ، ومن الارتفاع الذي كانا عليه ، بدا الوادى بأسره كبحيرة هائلة باهتة اللون ، تتصاعد بخارا في الهواء .. وكانت مجموعات الأشجار المتناثرة

هنا وهناك تظهر كصخور سوداء ، وصفوف الأشجار الساقطة — التي كانت تبرز خلال الضباب — تلوح كساحل رملى تذروه الرياح .

وكان ثمة ضوء بنى يتذبذب في الجو الدافئ ، وعلى الأعشاب ، بين أشجار الصنوبر القائمة جانبا ، وكانت التربة تكتم وقع الخطى ، وقد بدت في صفره متوردة كمسحوق التبغ .. وأخذ الجوادان — في سيرهما — يضربان بحواف سنابكهما اقماع الصنوبر المتساقطة امامهما .. وهكذا مضى « رودولف » و « ايبا » يتبعان حافة الغابة ، وهى تضيح بوجهها من آن لآخر لتتفادى نظراته ، بحيث لم تكن ترى إذ ذاك سوى جذوع اشجار الصنوبر المترامية في صفوف كان تتابعها الرتيب يسبب لها شسئا من الدوار .. وراح الجوادان يلشان ، وجلد السرجين يحدث صريفا .. وفى اللحظة التي ولجا فيها الغابة ، بزغت الشمس ، فقال « رودولف » : « إن الله يرعانا ! » .. فسألته : « انظن ذلك ؟ » ، فواصل الحديث قائلا : « لننتقدم ! لننتقدم ! » .. وشقشق بلسانه فاندفع الجوادان يجران ، وعيدان نبات السرخس النامية على جانب الطرق تعلق بركاب « ايبا » فينحنى « رودولف » ويزيلها وهما ماضيان .. وكان في فترات أخرى يمر جد قريب منها ليزيح الأغصان ، فتحنى « ايبا » بركبته تحتك بساقها .. وكانت السماء قد غدت زرقاء ، ولم تعد أوراق الشجر تهتز .. ومرا بمساحات مليئة بزهور نبات « الخلنج » ، وبقاع حفلت بزهور البنفسج ، تتخلل رقاعا أزدهمت بالأشجار المتشابكة التي كانت ذات لون رمادى مصفر ، أو لون ذهبى ، تبعاً لتباين

اوراقها . وكثيرا ما كان يسمع فى الادغال خفيف خفيف صادر عن جناحين ، او صيحة اجثة خافتة منبعثة عن غراب يحلق بين شجر البلوط .

● وترجلا ، قريط « رودولف » الجوادين ، بينما تقدمت « ايبا » سائرة على العشب بين دربين .. بيد أن ثوبها المفرط الطول راح يعرقل خطاها ، رغم انها كانت ترفع ذيله ، و « رودولف » يسير خلفها فيلوح بين هذا القماش الاسود والحذابين الاسودين ، رقة جوربيها الابيضين اللذين لاحا له كنوع من العرى ! .. ثم توقفت ثائلة : « ائنى متعبة » ، فقال : « لنمض .. حاولى من جديد .. تجلدى ! » .. وبعد مائة خطوة ، توقفت من جديد ، وخلال نقابها الذى انساب من قبعة الرجال — التى كانت ترتديها — إلى خاصرتها ، فى انحراف ، كان وجهها يلوح فى شفافية مشوبة بزرقة ، وكأنه يسبح تحت موجات لاذوردية .. وتساءلت : « إلى أين ترانا ذاهبين؟ » .. فلم يجب . وتهديت انفاسها ، فاجال رودولف بصره فيما حوله ، وعض على شاربيه .

وبلغا بقعة فسيحة ، اجتثت منها الاعشاب والاشجار ، فجلسا على جذع شجرة مجتثة ، وشرع « رودولف » يحدثها عن غرامه .. لم يزعجها فى البداية بالمجاملات والملقى ، وإنما كان هادئا ، جادا ، حزينا .. وانصتت « ايبا » منكبسة الرأس ، وهى تحرك بمقدمة قدمها بعض شظايا الخشب المختلطة بالتراب .. حتى قال : « الم يعد مصيرنا الآن

جوتسكالت للزيم

٨٨

مشتركين ؟ » ، وإذ ذاك اجابته : « آه ، لا ! .. انك لتعرف هذا تماما .. إنه مستحيل ! » .. ونهضت للانصراف ، فأمسك بمعصمها .. وتوقفت ، ثم قالت متعجلة بعد أن رمقته بضع لحظات بعين عاشقة ، مفرورقة : « آه ! .. لكفى عن الكلام .. أين الجوادان ؟ .. هيا نعد » .. فلوح بيده فى غضب وحنق ، بينما كررت هى : « أين الجوادان ؟ .. أين الجوادان ؟ » .. وما لبث أن تقدم باسطا ذراعيه ، وعلى أساوره ابتسامة غريبة ، وقد جهدت حدقتها ، وضغط أسنانه .. فتراجعت مرتجفة ، وقالت متلعثبة : « اواه ! .. انك تخيفنى ! .. انك تؤذينى ! .. لنرحل » .. فقال وقد تغيرت أساوره : « إذا لم يكن من الرحيل بد » ! .. وارتد وقورا ، لطيفا ، حيبا ، فأسلمته ذراعيها ، وعادا ، وهو يقول : « ترى ما الذى دهاك ؟ لماذا ؟ .. ائنى لا أفهم .. انك أسأت نهى ولا ريب .. انك فى فؤادى كعفراء على منصة ، فى مكان رفيع ، منيع ، طاهر . ولكنى لا أطيق أن أعيش بدونك ! ائنى فى حاجة إلى عينيك ، إلى صوتك ، إلى فكرك .. الا كوتى لى صديقة ، اختا ، ملاكا ! » .. وبسط ذراعه ، فأحاط بها خصرها . وحاولت التلصص فى وحن ، لكنه ظل يستندهما وهما سائران .. غير انهما ما لبثا أن سمعا الجوادين يلتهمان أوراق الشجر ، فقال « رودولف » : « آه ! .. لحظة واحدة ! .. ما ينبغى أن نرحل . ألا أبقي ! » .

واجتذبها بعيدا ، حول بركة ماء صغيرة ، بسطت أعشاب الماء على أمواجه خضرة .. وكانت زنايق الماء الباهتة تستلقى ساكنة بين أعواد الغاب (البوص) . وتقرزت الضفادع

لنختفى عند وقع أقدامهما .. فقلت ايما : « اننى مخطئة !
اننى مخطئة ! اننى حقا إذ أنصت إليك ! » .
— لماذا يا ايما ؟ .. يا ايما !

فقلت فى بلاء وهى تميل على كتفه : « اواه ،
يا رودولف ! » .. واشتبك قماش ثوبها بمخمل سترته ، فمالت
إلى الخلف بفتحها الأبيض ، الذى انتفخ بزفرة .. وفى اضطراب
ودموع ، ورعشة طويلة ، حببت وجهها .. واسلمت نفسها !

وهبطت ظلال المساء ، ومرت الشمس الغارية بين
الأشنان فاعشيت عيني « ايما » .. وهنا وهناك — غيا حولها —
كانت لم من الضوء ترتجف بين أوراق الشجر أو على الأرض ،
وكانها طيور صاخبة نفثت ريشها وهى تطلق .. كان السكون
شاملا ، كأنها كان ينبعث من الأشجار شيء عذب . وتحسست
المرأة قلبها الذى عاد وجيبه يشتد ، وجرى الدم فى لحمها
كجدول من لبن .. وما لبثت أن سمعت من مكان بعيد على
التلال الأخرى ، خلف الغابة ، صيحة بهمة ، طويلة .. صوتا
تردد ، فاصغت إليه فى صمت وهو يختلط — كالموسيقى —
بآخر نبضات أعصابها المختلجة .. وكان « رودولف » يصلح
بسكينته أحد العنانين المكسورين ، وسيجاره بين شفتيه .

● وعادا إلى (ايونفيل) من نفس الطريق التى جاءا
فيها ، غرايا على الوحل آثار أقدام جواديهما ، جنبا إلى جنب ..
ومرا بعين الأدغال ، وعين الحصى بين العشب .. لم يتغير
شيء حولهما ، وإن كان قد حدث — بالنسبة لهما — أمر اشد

جسامة مما لو كانت الجبال قد تقلقت من مواضعها ! ..
وكان « رودولف » يميل نحوها ، بين آن وآخر ، فيتناول يدها
ليقبلها . كانت فاتنة ، على الجواد : .. معتدلة ، هياء
القوام ، وقد انثنت ركبتيها على عرف دابتها ، وتورد وجهها
قليلًا — بتأثير الهواء الطلق — فى حمرة الشفق . حتى إذا
ولجا (ايونفيل) ، حلت مدام بوفاري عنان جوادها إلى
الطريق المرسوفة ، وتأهلها الناس خلال النوافذ ..

وعندما حانت ساعة العشاء ، ألفاها زوجها وقد بدت
أفضل حالا ، وإن لاح عليها أنها لم تكن تسمعه وهو يسألها عن
نزهتها .. بل ظلت جالسة ومرفقاها إلى جانبى طبقها ، بين
شبعتين مشتعلتين .. وقال الزوج : « ايما ! » .. فتساءلت :
« ماذا ؟ » .. فأردف : « خيرا .. لقد قضيت الأصيل فى دار
السيد الكسندر .. إن لديه فرسا عجوزا ، لا تزال بديعة
جدا . كل ما بها أن ركبتيها مضعضعتان .. وانى لوانق من أن
فى الوسع شراءها بثائة دينار » .. ثم اضاف : « وإن خطر لى
أنها ستروثك ، حجزتها .. ابتعتها .. فهل أحسنت
صنعا ؟ .. ألا نهبئنى ! » .

فهزت رأسها علامة الرضى ، وما لبثت أن تساءلت
بعد ربع ساعة : « أخرج انت الليلة ؟ » ، فاجاب : « أجل ..
لماذا ؟ » .. قالت : « آه .. لا شيء .. لا شيء يا صديقى .. »
وما إن تخلصت من « شارل » حتى صعدت فأغلقت باب
مخدعها خلفها .. وأحسست — فى البداية — كأنها فى غيبوبة ! ..
رأت الأشجار ، والدروب ، والأخاديد ، ورودولف .. وشعرت
من جديد بضغط ذراعيه ، بينما كانت أوراق الشجر وأعواد

الغاب تبعث حفيها .. ولكنها إذ لمحت شكلها فى المرأة ، دهشت لمرأى وجهها ، فما كانت عيناها يوما بهذا الاتساع ، وفى هذا السواد ، وعلى هذا العمق .. ان شيئا ما ، رقيقا لطيفا ، قد غيرها .. وراحت تردد لنفسها : « أصبح لى عشيق ! .. عشيق ! » .. وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة ، فكانها تحظى بفترة المراهقة والأحلام مرة أخرى ! .. اذن فقد قدر لها أخيرا أن تعرف مباحج الحب هذه ، وحمى الهناء تلك التى كانت فى قنوط منها ؟ ! .. لقد ارتادت شيئا من تلك المجاهل الحافلة بالشهوة ، والنشوة .. والالم .. ولفتها هيلولة لازوردية ، وأخذت ذرى الأحاسيس تومض تحت أفكارها ، وبدا لها كيانها العادى بعيدا ، يتخفضا فى الظلمات التى كانت تتخلل تلك الذرى ! .. إذ ذاك أخذت تتذكر بطلات الكتب التى قرأتها ، وراح الموكب الموسيقى لتلك الفاسقات يردد فى ذاكرتها الأغاني بأصوات الراهبات التى كانت تفتننها .. وما لبثت أن تبينت أنها قد غدت جزءا من تلك الرؤى فعلا ، إذ حققت حلم صباها ، وخالت نفسها من ذلك الطراز من العاشقات اللاتى كانت تغبطهن من قبل .. وأحست ، بجانب ذلك ، براحة الانتقام ! .. أو لم تعاني الكفاية من العذاب ؟ .. إنها الآن قد فازت ، وأنبثق الحب — الذى طالما احتبسته — فى طفرات فرحة .. فاستثمراته فى غير نسيم ، ولا قلق ، ولا اضطراب !

وانقضى اليوم التالى فى عذوبة جديدة ، إذ تبادلوا العهود .. وحدثته عن أحزائها ، فمضى يقطع عليها الحديث بقبلاته .. وراحت تسأله ، وهى تتأمله بعينين نصف مغمضتين ،

أن يناديها باسمها ، وأن يكرر لها انه يهواها .. وكانا ساعقتا فى كوخ بالغابة كان يوما ملكا لأحد الاسكافيين ، جذرائه من القش ، وسقفه جد منخفض ، حتى لقد اضطرا إلى أن يحنيا جذعيهما ، وقد جلسا متقابلين على فراش من أوراق الشجر الجافة .

● ومنذ ذلك اليوم أخذا يتكاثبان بانتظام كل ليلة . وكانت « ايبا » تضع رسالتها فى نهاية الحديقة ، على مقربة من النهر ، داخل فجوة فى السياج ، فيأتى « رودولف » ليأخذها ويدس رسالة منه فى موضعها ، كانت تشكو دائما من اقتضاها ! .. وذات صباح ، خرج « شارل » قبيل بزوغ ضوء النهار ، فتولت « ايبا » نزوة طاغية زينت لها أن ترى « رودولف » لقوها ! .. وخطر لها أن بوسعها أن تذهب إلى (لاهوشيت) عاجلا ، فتبكت هناك ساعة ، ثم تعود إلى (ايونفيل) قبل أن يستيقظ احد من نومه ! .. وجعلتها هذه الفكرة تلهث لفرط الشهوة ، وسرعان ما ألقت نفسها وسط المراعى ، وهى تغذ السير ، لا تلوى على شيء ! .. وكان النهار قد شرع يسفر عن ضيائه ، حين تعرفت من بعد على بيت حبيبها ، وقد استقام بالقرب منه جهازا معرفة اتجاه الرياح — اللذان كانا ينتهيان بها يشبه ذيل الحماة — أسودين بالنسبة لضوء الفجر الباهت .. وكان ثمة مبنى وراء مساحة المزرعة ، حددت انه القصر ولا بد ، فدخلته ، وكأنها تفتح باباه من تلقاء نفسها بمجرد اقترابها .. وكان ثمة سلم عريض مستقيم يصعد إلى الردهة ، فادارت « ايبا » مقبض أحد الأبواب ، وإذا بها ترى فى أقصى الحجرة

رجلا نائما .. كان « رودولف » .. فندت منها صرخة !
 وأخذ هو يردد : « أنت هنا ؟ .. أنت هنا ؟ .. كيف
 استطعت المجيء ؟ .. آه ! .. ان ثوبك مبتل .. » فأجابت
 وهى تطلق عنقه بذراعيها : « أنتى أهواك ! » .. وإذا نجحت
 هذه المغامرة الجريئة الأولى ، أصبحت « ايبا » تسارع — كلها
 بكر « شارل » فى الخروج — إلى ارتداء ثيابها ، ثم تتسلل على
 اطراف أصابع قدميها ، هابطة السلم المنضى إلى ناحية النهر .
 أما إذا كانت قنطرة الأبقار مرفوعة ، فكانت تضطر إلى الانطلاق
 بمحاذاة الأسوار القائمة على طول النهر . وكانت الضئفة
 زلقة ، ومن ثم كانت تتشبث بيديها بفروع الأزهار المتسلقة .
 لتتقضى السقوط ، ثم تنطلق بعد ذلك عبر الحقول المحروثة ،
 حيث كانت قدماها تغوصان فى الأرض ، فتعثران وتفلتان من
 تعلبيها الرقيقين .

وكانت الريح فى المروج تعيث بالوشاح الذى يلف
 رأسها .. وكانت تخاف الثيران فتأخذ فى الجرى ، حتى تصل
 متقطعة الأنفاس ، وموردة الخدين ، تنشق بكل كيانها عبر ماء
 الحقول ، والخضرة ، والهواء الطلق .. وفى تلك الأثناء يكون
 « رودولف » سادرا فى نومه ، فتلج مخدعه كصباح الربيع ! ..
 وكانت الستائر الصفراء — على النوافذ — تسمح لضوء غزير ،
 مصفر ، بالتسلل فى رفق ، فتتحمس « ايبا » طريقها ، وهى
 تفتح عينيها وتغمضهما ، بينما تؤلف قطرات الندى العالقة
 بوشاحها اكليلا من الزبرجد حول وجهها .. فيشدها
 « رودولف » إليه ضاحكا ، ويضمها إلى قلبه ! .. ثم تأخذ
 بعد ذلك فى تفقد المسكن ، فتفتح أدراج المناضد ، وترجل

شعرها بمشطه ، وتتأمل نفسها فى مرآة الحلاقة .. بل انها
 كثيرا ما كانت تضع بين أسنانها طرف الغليون الكبير الملقى
 على المنضدة المجاورة للفراش ، بين الليمون وقطع السكر ،
 على مقربة من ابريق للماء .. وكان الوداع يستغرق منهما ربع
 ساعة بأكمله ، فقد كانت « ايبا » تبكى آنئذ ، وهى تود لو أتبع
 لها الا تفارق « رودولف » أبدا ! .. كان يدفعها نحوه شئ
 أقوى منها ، حتى انه حين رآها يوما تغد على غير ارتقاب ،
 قطب جبينه فى عبوس الشخص المكره على أمر ، فقالت له :
 « ماذا بك ؟ .. هل تألم من مرض ؟ .. صارحنى ! » .

وصارحها أخيرا ، فى لهجة جادة ، بأن زياراتها أصبحت
 تجانب الحكمة ، وانها تعرض نفسها للخطر !

الفصل العاشر

● لم تلبث مخاوف « رودولف » هذه ان تملكها هي الاخرى .. إذ اسكرها الحب في البداية ، فلم تفكر في شيء عداه ، اما وقد أصبح ضرورة لا غنى عنها في حياتها ، فقد غدت تخشى ان تفقد شيئاً من هذا الحب ، بل تخشى اى عناء يحيق به . وكانت حين تعود من عند « رودولف » تتلفت حولها بنظرات موجسة ، وترقب كل ما يمر عند الأفق ، وكل كوة في القرية يمكن أن يلحقها منها احد . وكانت تتسمع على الخطى ، والصيحات ، وجلبة المحارث .. وتبدو اكثر شحوباً واشد ارتجافاً من أوراق اشجار الحور المهتزة فوق رأسها . وفيما كانت عائدة ذات صباح — بهذه الحال — خيل إليها فجأة انها لحقت قسبة بندقية مسددة إليها ، وقد برزت بانحراف من قمة برميل صغير دفن إلى نصفه بين الاعشاب عند حافة خندق صغير .. وكاد يغشى على « ايبا » خوفاً ، ومع ذلك غلبها واصلت السير ، وإذا برجل يخرج من البرميل — كعفريت العلبة — يرتدي طماقين (طرلك) يقيان ساقيه حتى الركبتين ، وقد أرخى قلنسوته على عينيه ، وارتجفت شفتاه ، واهمر انفه .. ذلك كان السيد « بينيه » — محصل الضرائب — وكان قد كمن يتربص للبط البرى .. وهتف بها : « كان ينبغي ان تصيحى من بعد ، فالمرء إذا رأى بندقية وجب عليه ان ينبه إلى وجوده ! » .. وكان المحصل يحاول بهذا ان يخفى الجزع الذى تولاه ، إذ كان ثمة امر إدارى يحرم صيد البط إلا من



وإذا برجل يخرج من البرميل — كعفريت العلبة ...

مركب في النهر ، وقد وجد السيد « بينيه » نفسه يخرق القانون رغم احترامه إياه ، وكان يخشى أن يفاجأ بين دقيقة وأخرى بوصول الحارس الريفى .. غير أن هذا القلق أذكى متعته ، فراح يهنئ نفسه — وهو وحيد في البرميل — بما أوتي من حظ ودهاء .. وما إن رأى « أيما » حتى بدأ وكنها انزاح عنه عبء ثقيل ، فيبادر إلى مجاذبتها الحديث ، قائلا : « أن الجو ليس حارا ، بل إن برودته لأذعة » .. ولم تجبه « أيما » ، فاستطرد قائلا : « ومع ذلك تخرجين مبكرة من دارك ؟ » .. فقالت متلثمة : « أجل .. أفنى عائدة من لدن المربية التي تكفل طفلى » — آه ، حسن جدا ! حسن جدا ! .. أما أنا ، فكما ترين ، جئت منذ تنفس النهار ، ولكن الجو شديد الرطوبة ، حتى أن المرء إذا لم يصبر حتى يقف الطائر عند فوهة البندقية ..

فقطعت عليه الحديث قائلة وهى تنكس على عقبيها : « عم مساء ياسيدى ! » .. فقال فى لهجة جافة : « فى خدمتك ياسيدتى » .. وعاد إلى برميله . وندمت « أيما » إذ تركت محصل الضرائب يمثل هذه الجفوة ، فلا بد أنه سيسئ التأويل والحدس ! .. والواقع أن قصة المرضعة كانت أسوأ حجة ، إذ أن الكل يعرفون فى (أيونفيل) أن ابنة « بوفارى » قد عادت إلى أبويها منذ عام .. ثم إن أحدا لم يكن يسكن فى هذه الجهة ، ولم تكن الطريق تقضى إلى غير مزرعة (لاهوشيت) ! ومن ثم نلن يلبث « بينيه » أن يحدس من أين كانت آتية ، ولن يخلد إلى الصمت ، بل إن من المؤكد أنه سيثرثر بالموضوع ! .. وظلت « أيما » حتى المساء تعصر ذهنها بحثا فى كل أنواع

الأكاذيب الممكن تصورها ، وشبح ذلك الصياد الغبى ماثل أمام عينيها باستمرار !

● وإذ رأى « شارل » اكتئابها ، أراد — بعد العشاء — أن يصطحبها إلى دار الصيدلى ليروح عنها ، فإذا أول شخص تراه فى الصيدلية ، هو محصل الضرائب عينه ! كان واقفا أمام منضدة البيع ، التى أثارها قنديل احمر ، وهو يقول : « أرجو أن تعطينى نصف أوقية من الزاج » ، فصاح الصيدلى : « احضر حامض الكبريتيك يا جستان » .. ثم قال لايما التى هبت بأن تصعد إلى حجرة زوجته مدام « هوميه » : « لا استريحى ، فلا داعى لأن تتعبى نفسك ، إذ أنها لن تلبث أن تهبط .. فاستدفئى بجوار المدفأة فى انتظارها .. معذرة ، طاب يومك يا دكتور (كان الصيدلى يستطيط ترديد كلمة « دكتور » ، وكأنه يخلع على نفسه — إذ ينادى سواه بها — بعض الرواد الذى يجده فيها) .. ولكن ، حذار أن تقلب الهلوانات .. يحسن أن تحضر بعض المقاعد من القاعة الصغيرة .. انك تعرف ولا ريب أن ليس من المسموح نقل المقاعد الوثيرة من غرفة الجلوس .. » .

ولكى يعيد « هوميه » مقعده إلى مكانه ، هم بالانطلاق من خلف منضدة البيع ، لولا أن سألته « بينيه » أن يبيعه نصف أوقية من حامض السكر ، فقال الصيدلى فى ازدراء : « حامض السكر ! .. لست اعرفه ، بل إننى أجهله ! لعلك تريد حمض الأوكساليك (الحمض) ؟ .. إنه الأوكساليك ، ليس هذا صحيحا ؟ » .. فأوضح له « بينيه » أنه يريد مادة تفتت المعدن ،

ليعد لنفسه بعض ماء النحاس يزيل به الصدا عن أدوات الصيد .
فارتجفت « ايما » ، وشرع الصيدلي يقول : « ان الجو غير
مناسب فعلا ، بسبب الرطوبة » . فاجاب بحصل الخرائب ،
في تخايب : « ومع ذلك ، فهناك أشخاص يميلون إليه ! » ..
وتهدجت أنفاس « ايما » ، بينما تحول هو يقول : « واعطني
ايضا .. » . فقالت لنفسها : « او لن ينصرف ابدا ؟ » ..
وكان مستطردا في كلامه : « نصف أوقية من زيت الخروع
والتربينية ، وأربع أوقيات من الشمع الأصفر ، وثلاثة أنصاف
أوقية من الفحم الحيواني ، من فضلك .. لانظف جلد طماقي
المسقول » .

وكان الصيدلي قد شرع في قطع الشمع عندما وصلت
مدام « هومييه » حاملة « ايما » بين ذراعيها ، و « نابوليون »
إلى جوارها ، و « اتالي » خلفها .. وجلست في المقعد المخلى
المجاور للنافذة ، بينما جلس الصبي القرفصاء على مقعد
صغير ، واخذت أخته التي تكبره تحوم حول صندوق العناب
القريب من أبيها . وكان الأخير يملأ أقماعا ، ويسد قنينات ،
ويلصق بطاقات ، ويحزم الأشياء .. وقد ساد الصمت
ما حوله ، فلم تكن تسمع سوى شئشنة الموازين بين آن
 وآخر ، ويضع كلمات خافتة من الصيدلي لتوجيه مساعده .
وفجأة ، تساءلت مدام هومييه : « وكيف حال فتاتنا
الصغيرة ؟ » ، فهتف زوجها وهو يكتب ارقاما في مسودة :
« صمعا ! » .. لكنها استطردت في صوت خفيض : « لم لم
تحضرها معك ؟ » .. واجابت ايما وهي تشير إلى الصيدلي
بأصبعها : « صه ! صه ! .. » ومن المحتمل ان يكون

« بينيه » لم يسمع شيئا ، إذ كان منهكما في مراجعة حساباته .
وما لبث ان خرج في النهاية ، وإذ ذاك احست « ايما »
بالارتياح ، فارسلت زفرة عبيقة . وقالت مدام « هومييه »
معلقة : « ما أشد انفاسك ! » ، فاجابت : « آه .. ان الجو
حار ! » .



● وهكذا اضطر العاشقان إلى ان يتشاورا في اليوم
التالي في تدبير امر خلواتهما . ورات « ايما » ان ترشو خادمتهما
بهدية ، ومع ذلك فقد استحسنت البحث عن منزل أمين في
(ايونفيل) ، فوعده « رودولف » بأن يبحث .. وظل طيلة
الشتاء ، يتسلل إلى حديقة دارها في بهيم الليل ثلاث مرات
او أربعا في الأسبوع ، وكانت « ايما » قد تعهدت ان تأخذ
مفتاح الباب ، فظن « شارل » أنه ضاع .. واعتاد « رودولف »
أن يرعى مصاريع النافذة بحفنة من الرمل كلما جاء ، لينبئها ،
فتقفز مجفلة .. بيد انها كانت تضطر أحيانا إلى التريث في
اللاحق به ، إذ كان « شارل » يهوى الحديث إلى جوار الدفأة ،
ولا يكاد يكف .. وكان التعجل في انتظار نهوضه يفرى
نؤادها ، ولو أوتيت نظراتها قوة لرغفته من مكانه وطوحت
به من النافذة ! ولكنها كانت لا تلبث أخيرا ان تشرع في التاهب
للنوم ، ثم تتناول كتابا وتأخذ في مطالعته في هدوء ، كأنها هي
تستريء القراءة .. فلا يلبث « شارل » ان يصعد إلى
السرير ، ويناديها لتنام ، قائلا : « هيا يا ايما ، تعالى .. لقد
آن لك ان تنامي » ، فتجيبه : « أجل ، ها انذى قادمة ! » ..
لكنه لا يلبث ان يضيق بضوء الشموع ، فيولي الحائط وجهه ،

وينام .. فتستسل مبتسمة ، متهدجة الانفاس ، وليس عليها سوى قميص النوم ، وكان لرودولف معطف كبير ، يسارع فيلقها به تهايا ، ثم يحيط خصرها بذراعه ، ويقودها — دون ما كلمة — إلى الطرف الأقصى للحديقة ، تحت الخيلة ، على عین المتعد المصنوع من العصي الخشبية الذى كان « ليون » يجلس عليه فيما مضى ، يتطلع إليها فى وجد ، فى ليالى الصيف — على أنها لم تكن تفكر فى « ليون » فقط إذ ذاك !

وكانت النجوم تومض خلال فروع الياسمين المجردة من الورق .. وخيرير النهر فى انسيابه يصانح سمعهما من خلف الحديقة .. ومن وقت لآخر ، كان ينبعث على الضفة خفيف أعواد الغاب الجافة . وهنا وهناك ، كانت تبين خلال الظلام كتل من الظلال ، يهتز أحيانا فى حركة موحدة ، فتنهض وتترنح كأنها أمواج سوداء هائلة ، تتدافع لتجتاحها .. وكان برد الليل يضطرهما إلى أن يزدادا تلاصقا ، فتبدر التبهيدات المنبعثة من شفاهما أحر من عادتها ، وتترأى لهما عيونهما — التى كانا لا يكادان يستبينانها — أكثر اتساعا .. وفى غمرة الصمت ، كانت تقال كلمات خافتة ، تقع على نفسيهما فى رنين بلورى ، ثم تتذبذب فيها ، فى دوائر تطرد اتساعا .. وكانا — فى الليلة الممطرة — يلوذان بغرفة العيادة القائمة بين ماوى العربية وحظيرة الجواد ، فتوقد « ايما » شمعة من شموع المطبخ كانت تخفيها وراء الكتب ، ويرتاح « رودولف » كما لو كان فى بيته ! .. بل إن منظر المكتبة ، والمكتب ، والغرفة بأسرها ، كانت لا تلبث أن تستثير روح الفكاهة لديه ، فلا يمالك أن يلقي بضغ نكات عن « شارل » تحار

إزاءها « ايما » ، إذ كانت تؤثر أن تراه أكثر جدا ، بل وأكثر انفعالا — فى بعض المناسبات — كما يفعل أبطال المسرحيات .. من ذلك تلك المرة التى خيل إليهما فيها أنها يسمعان صوت خطى تقترب فى المردهة ، إذ قالت : « هناك شخص مقبل ! » .. فأنطا الشمعة !

— هل تحمل غدارتيك ؟ — لماذا ؟

اجابت : « عجباً .. لتدافع عن نفسك ! » .. قال : « اادافع ضد زوجك ؟ .. آه ! .. يا للصبي المسكين ! » .. واتبع عبارته بحركة ، أوضحها بقوله : « اننى أستطيع أن أحطه بطرف أصبعي ! » .. وبهتت لجراته ، وإن أحست فيها بشيء من القحة والغرور الممجوج ، أثار استنكارها ! .. وفكر « رودولف » كثيرا فيما قالت عن الغدارتين : فلو أنها كانت جادة فى القول ، لكان هذا سخفا بالغا ، بل ممقوتا ، إذ لم يكن ثمة ما يبرر أن يكره « شارل » الطيب ، الذى لم يكن من النوع الذى يقال إن « الغيرة تأكله » ! .. وفى هذا الصدد ، أقسمت « ايما » بهيئا ، لم ير « رودولف » أنها تتم عن ذوق مستحجب .. ثم إنها كانت — إلى جانب ذلك — تزداد اندفاعا فى الهوى ، فحملته على أن يتبادل معها الصور الصفيرة ، وخصل الشعر ، ثم تحولت تسأله أن يهديها خاتما .. خاتم زواج حقيقيا ، كرمز للرباط الأبدى بينهما ! وكثيرا ما كانت تحدثه عن الأجراس التى يبرى رنينها فى الليل ، وعن « اصوات الطبيعة » .. ثم راحت تحدثه عن مكانة أمها ، بالنسبة لها ، ومكانة أمه بالنسبة له ! .. وكان « رودولف » ، قد فقد أمه منذ عشرين سنة ، ومع ذلك راحت

« ايما » تعزيه في كلمات مواسية ، حنون ، كتلك التي تقال لطفل ضائع ، وحيد .. بل لقد كانت احيانا تقول له ، وهى تحلق في القمر : « إننى واثقة من أنهما في حياتهما العليا تقرأان غرامنا ! »

● لكنها كانت فائقة الجمال ! .. قليلات ممن عشق « رودولف » من قبل أوتين مثل سذاجتها وطيبة قلبها .. وكان هذا الغرام الخالي من الفجور والخلاعة تجربة جديدة بالنسبة له ، وقد أخذ يخرج من تساهله وتحله المألوفين ، ويذكر في الوقت ذاته زهوه وشهوته .. وكانت عواطف « ايما » المرحفة ، المشبوبة ، تبدو لأدراكه البورجوازي مستهجنة ، ولكنها كانت تلوح له - في قرارة فؤاده - بمتعة ، إذ كانت تنصب عليه في سناء . وإذ اطمأن إلى أنه غدا محبوبا ، لم يعد يحتفل بالتظاهر ، وتغيرت أطواره في غير حكمة .. فلم تصد لديه - كما كان من قبل - كلمات يبلغ من رقتها أن تبكيها ، ولا عناقات حارة تميت برشدها .. حتى لقد لاح أن حبهما الكبير ، الذي عاشت في غمرته ، قد أخذ يضمحل ، كما يفيض ماء الجدول في مجراه ، حتى خيل إليها أنها ترى قاعه ! .. ولم تشأ أن تصدق ذلك ، بل ضاعفت من الحنان الذي تريقه على « رودولف » ، بينما كان هو يزداد إهمالا في إخفاء عدم اكتراثه !

ولم تكن تدري أى نادبة على أن استسلمت له ، أم أنها - على العكس - لم تعد راغبة في امتاعه وإرضاء لذاته .. واخذت ذلة شعورها بالضعف تتحول إلى ضعف

يهديء من حدثها عبثها الفاجر .. وما كان هذا غراما ، وإنما كان أشبه الأشياء بضلال مستمر .. كان « رودولف » يسيطر على « ايما » .. وكانت تهربه تقريبا .. على أن المظهر ازداد هدوءا عن ذى قبل ، إذ أفلح رودولف في المضى بعلاقتها الآثمة إلى أبعد مما صور له خياله .. وما إن أقبل الربيع - بعد ستة شهور - حتى كانا كزوجين ، يبتسان على ومضة من الألفة المشتركة في هدوء .. وحان الموعد الذي اعتاد الأب « رو » أن يرسل فيه دجاجته الرومية المهدودة ، في ذكرى كسر ساقه . وكانت تصحب الهدية - كالعادة - رسالة ، فقطعت « ايما » الخيط الذي يشدها إلى السلة ، وقرأت فيها السطور التالية :

« ولدى العزيزين : أرجو أن تجدكما الهدية في صحة طيبة ، وأن تكون في جودة سابقاتها ، إذ تبدو لى - إن جاز أن أقول - أطرى لصبا وأثقل وزنا منها . على أننى سأمنحكما في المرة القادمة ديكاً ، من قبيل التغيير ، ما لم تفضلا أن أبعث إليكما ببعض السمك . وأرجو أن تعيدا السلة ، مع السلتين السابقتين . منيت بخسائري في حظائري الخاصة بالعربات ، إذ طار سقفا بين الأشجار ذات ليلة شديدة الريح . كذلك لم يكن المحصول بالغ الجودة وأخيرا ، لا أدري متى ستأتى لزيارتكما ، فمن العسير الآن أن أبرح البيت ، إذ أننى وحيد يا ايماى المسكينة » .. وهنا بدت ثغرة بين السطور ، وكأنها أفلت الشيخ القلم من يده واستسلم للأحلام فترة .. قبل أن يواصل الكتابة ! « أما انا فبخير ، فيما عدا برد أصابعى منذ أيام في مهرجان (ايفيتو) ، حيث ذهبت لأستاجر راعيا بعقد

ان طردت الراعى الذى كان فى خدمتى ، لشدة ولعه بالطعام
الشهى ، ما اشقانا بمثل هؤلاء اللصوص ! .. ثم إن كان —
فضلا عن هذا — غير أمين .. ولقد سمعت من بائع متجول —
اضطر إلى خلع احدى اسنانه اثناء مروره ببلدكم فى هذا
الشتاء — أن « بونارى » مجد فى عمله . ولم يدهشنى هذا .
وقد ارانى السن اثناء تناولنا القهوة معا ، وسالته عما إذ كان
قد رآك ، فقال انه لم يرك ، ولكنه شاهد فى الحظيرة جوادين ،
فاستنتجت ان العمل يسير على ما يرام ، فهنينا لكما يا ولدى ،
وليرسل الله عليكما كل ما يمكن تصويره من هناء ! .. يؤسفنى
أن لم أر حتى الآن حفيدتى الحبيبة « بيرت بونارى » . لقد
غريست من اجلها فى الحديقة — تحت غرفتك — شجرة خوخ ،
ولن اسمح بأن تمس إلا إذا كان ذلك لاعداد المربى فيها بعد ،
على أن احتفظ بها فى الصوان من اجلها إذا ما جاءت .. وداعا
يا ولدى العزيزين ، وإنى لأقبلك يا ابنتى ، وانت يا زوج ابنتى ،
وللصغيرة قبلة على كل خد .. مع اطيب تمنياتى : ابوكما
المحب ، تيودور روو .

● ظلت « ايما » بضع دقائق ممسكة بالورقة الخشنة
بين اصابعها ، وقد تشابكت فيها الاخطاء الهجائية ، وسرحت
بالحا وراء الفكرة الكريمة التى كانت تنفق خلالها كما تنفق
دجاجة تصف مختفية فى دغل من النباتات الشوكى . لقد جفف
ابوها المداد برماد من المدفأة ، إذ انساب من الرسالة على
ثوبها بعض غبار رمادى ، فخيل إليها انها ترى الاب منحنيا على
المدفأة ليتناول اللقط .. ما أطول الزمن الذى انقضى منذ كانت

معه ، تجلس على مقعد منخفض فى الركن الذى تقوم فيه
المدخنة ، حيث اعتادت أن تحرق طرف عصا من الخشب ، فى
اللبب المتأجج المنبعث عن وقود من الخيزران البحرى ! ..
وتذكرت أصائل الصيف حين كان ضياء الشمس يظل
ساطما .. وصفار الخيل تصل إذا مر أحد عن قرب ، وتركض
ركضا .. وكانت تحت نافذتها خلية للنحل يصطدم نحلها
أحيانا بالنافذة وهو يلف فى النور ككرات ذهبية وثابة .. أية
سعادة كانت تحظى بها إذ ذاك .. وأية حرية ، وأى أمل ! ..
ما كان أوفر الأوهام العذبة إذ ذاك ! .. لم يبق منها الآن
شيء .. لقد أنفقتها جميعا فى مغامرات روحها .. وفى كافة
الظروف المتتابة فى حياتها : فى بكورتها ، وزواجها ،
وغرامها .. وهكذا ظلت تفقدها تباعا فى حياتها ، كمسافر
يخلف وراءه جزءا من ثروته فى كل فندق على طول الطريق ..
ولكن ، ما الذى اشقاهها هكذا ، إذن ؟ .. ما هى الكارثة
الخارقة التى غيرتها ؟ .. ورفعت رأسها ، متلفتة حولها ،
وكانها تبحث عن سبب هذا الشيء الذى جعلها تتالم !

وكان ثمة شعاع من شمس أبريل يتراقص على الرف
القبائلى ، والنار تستمر .. وأحست بنعومة البساط تحت
نعلها .. كان اليوم مشرقا ، والجو دافئا .. وسمعت طفلتها
تضح بالضحك .. والواقع أن البنت كانت تتقلب إذ ذاك على
العشب ، وسط الحشائش المجتة ، ثم استلقت على بطنها
موق سطع حجر طاحون ، والخادم تمسكها متشبثة بذيل
ثوبها .. وكان « ليستيبودوا » يشذب العشب بجوارها ،
وكلما اقترب من الصغيرة ، مالت نحوه ضاربة الهواء

بفراعيها .. وقالت الام : « احضريها الى » ، ثم اندفعت تقبلها مغفمة : « كم احبك يا طفلى الصغيرة ! .. كم احبك ! » .. ثم لاحظت ان طرف اذنيها متسخين ، فبادرت تدق الجرس طالبة ماء دافئا ، ونظفت الينت ، وبلدت لها ثيابها ، وجوريها ، وحذاءها ، وسالت الف مرة عن صحتها ، وكانها عائدة من رحلة طويلة ، ثم اسلمتها اخيرا للخادم وهى تقبلها مرة اخرى ، باكية قليلا ، بينما كانت الخادم تتقف مبهوتة لهذا الفيض من الحنان ..

وفى ذلك المساء ، الفاها « رودولف » اكثر جدا من المألوف ، فقال معلقا : « لن يلبث هذا ان ينقضى .. إنها نزوة ! » .. ولم يوافها فى ثلاثة مواعيد متتابعة ، فلما جاءها ، أبدت فتورا وشبه استمزاز ، فقال : « آه ! .. انك تضيعين وقتك يا صغيرتى ! » .. وتظاهر بأنه لم ينتبه إلى زغراتها الحزينة ، ولا إلى المتديل الذى أخرجه .

إذ ذاك ثابت « ايبا » .. بل انها ساءلت نفسها عما ينقرها من « شارل » ! .. او لم يكن من الاحسن ان تستطيع ان تحبه ؟ .. بيد انه لم يتح لها الفرص لمثل هذه المودة العاطفية .. حتى لقد أشتدت حيرتها ازاء رغبتها فى التضحية .. وعند ذاك اقبل الصيدلى يزودها بفرصة .. فى الوقت الملائم !



الفصل الحادى عشر

● كان قد قرا منذ عهد قريب رسالة عن طريقة حديثة لعلاج تشوه القدم ، وإذا كان من دعاء التقدم ، فقد روادته فكرة وطنية توحى بأنه لى تصبح (ايونفيل) فى المقدمة ، ينبى أن تجرى فيها بعض جراحات لتجميل الاقدام .. وقال لايبا : « وفيم تجشم كل ذلك ؟ .. احكى بنفسك (واخذ يعد على اصابعه فوائد التجربة) النجاح شبه مؤكد : انقاذ المريض وتجميله ، شهرة سريعة يحرزها الجراح .. لم — مثلا — لا يعمل زوجك على إنقاذ « هيبوليت » المسكين ، سانس حظيرة « الاسد الذهبى » ، من عرجه ؟ .. لاحظى انه لن يتوانى عن انباء كل المسافرين بشفائه .. ثم (وخفض « هوبيه » من صوته وتلفت حوله) من يمنعنى من أن أرسل نبذة قصيرة عن الموضوع إلى الصحيفة ؟ .. آه ! .. يا الهى ! .. إن الامر لن يلبث أن يناقش .. ويندو محور الحديث .. سينتهى هذا إلى ضجة تنتشر .. ومن يدري ؟ .. من يدري ؟ »

وفى الواقع ، كان فى وسع « بونارى » أن ينجح ، فليس ثمة ما كان يؤكد لايبا أنه غير بارع .. ولكم يكون من بواش رضاها وارتياحها أن تحنه على اتخاذ خطوة تزيد من شهرته وثروته ؟ .. لم تكن تبغى أكثر من أن تستند إلى شيء أقوى من الحب واصلب .. وما لبث « شارل » — تحت إلحاحها وإلحاح الصيدلى — أن انساق ، فارسل إلى (روان) فى طلب كتاب الدكتور « ديفال » واخذ ينكب على قراءته كل ليلة ، معتبدا

راسه بين يديه . وفيما كان يدرس « الكاناستريفيبودى » و « الاندوستريفيبودى » و « الاكسوستريفيبودى » — او بالاحرى ، انواع انحناء القدم إلى اسفل ، او إلى الداخل ، او إلى الخارج — مع « الهيبوستريفيبودى » و « الاناستريفيبودى » — او بمعنى آخر الالتواء إلى اسفل وإلى أعلى — كان السيد « هوميه » يعمل بكل وسائل الجدل على اقناع الفتى الذى يعمل فى الفندق على قبول أن تجرى له جراحة التجميل . . « انك لن تكاد تحس بشيء . . وإن أحسست فبالم بسيط . . إنها مجرد شكة ، كالفصد البسيط . . أخف من إزالة بعض البثور ! » .

وكان « هيبوليت » يجبل عينيه المليئين بالغباء ، مفكرا . فيمضى الصيدلى قائلا : « على أن الأمر لا يهمنى . . إنه من أجلك ، بدافع إنسانى محض ! . . اننى احب أن اراك يا صديقى وقد تخلصت من عرجك البشع ، مع ذلك الانحراف فى منطقتى العجز ، الذى يعرفك ولا بد — مهما يقال — فى أداء مهنتك » . ثم يصف له « هوميه » مدى ما سيشعر به فيما بعد من خفة فى الحركة ومن نشاط . بل ذهب إلى أن أفهمه أنه سيصبح أبهى منظرا فيروق فى أعين النساء ! فشرع سائس الخيل فى الابتسام بتثاقل ، وإذ ذاك راح الصيدلى يقتعه ، باستنارة غروره ، قائلا : « أو لست رجلا ؟ . . عجباً ! . . ماذا كنت تراك قاعلا لو انك كنت ذاهبا إلى الجيش . . ذاهبا إلى الحرب تحت لواء الوطن ؟ . . آه ، يا هيبوليت ! » . وانصرف « هوميه » معلنا أنه لا يفهم هذا العناد والعمى اللذين يتجليان فى رفض نعمة من نعم العلم !



● وما لبث الفتى المسكين أن انصاع ، إذ كان الأمر اشبه بالمؤامرة . . فإن المحصل « بينيه » — الذى لم يكن قط يتدخل فى شئون الغير — و « مدام » لوفرانسوا ، و « آر تيميز » ، والجيران ، بل والعمدة السيد « توفاش » . . كل إنسان كان يقره ، ويلقى عليه المحاضرات ، ويعيب ترده . . على أن الذى أغراه أخيرا على البت ، هو أن المحاولة لم تكن لتكلفه شيئا . بل إن « بوفارى » تعهد بأن يحضر « الجهاز اللازم للجراحة » . . وكان هذا السخاء من وحى « أيبا » ، وقد انصاع له « شارل » وهو يرى فى قرارة نفسه أن زوجته ملك ! . . ومن ثم ما لبث بارشاد الصيدلى ، وبعد ثلاث محاولات ، أن حصل على صندوق خاص صنعه النجار بمساعدة صانع الأقفال ، وكان يزن حوالى ثمانية أرطال ، ولم يبد أى تقتير فى تزويده بالحديد والخشب والحديد المسطح والجلد والمسامير البرغية و « الصواميل » ! . . على أنه لمعرفة أى العضلات ينبغي قطعها لدى « هيبوليت » ، كان من الضروري التعرف أولا على نوع التواء قدمه . . كانت قدمه تكاد تمتد فى خط مستقيم مع ساقيه ، وإن لم يحل هذا دون ثنيها إلى الداخل ، فكان نوعها بذلك يجمع بين الالتواء إلى اسفل وقليل من الالتواء إلى الداخل . أو — من ناحية أخرى — التواء إلى الداخل ، مع ميل شديد للالتواء إلى اسفل . ورغم هذا الالتواء إلى اسفل ، الذى كان يحدث فراغا بين المساق والقدم يتسع لحافر جواد ، ورغم الجلد الخشن الغليظ ، والأعصاب الجافة المتيبسة ، وأصابع القدم الضخمة التى تحل أظفار سوداء تبدو كما لو صنعت من حديد . . فإن الأعرج كان يجرى فى خفة الفزال من الصباح

الصباح بتدبير كل هذه المعدات ، رغبة منه في أن يبهر انظار الشهود أكثر منه في أن يهديء هواجسه ! .. رشح « شارل » الجلد ، فسمع له ازيز .. وقطع العصب ، وانتهت الجراحة ، ولم يقو « هيبوليت » على مغالبة دهشته ، ولكنه انحنى على يدى الطبيب يغمر يديه بقبلاته ، فقال الصيدلى : « كفى ، واحدا ! .. سيتاح لك فيها بعد أن تظهر عرغتك بفضل الطبيب الذى أحسن إليك » .. ثم هبط ليزجى بالنتيجة إلى خمسة أو ستة من المتسائلين الذين كانوا ينتظرون في الفناء ، والذين كانوا يخالون أن « هيبوليت » لن يلبث أن يطلع عليهم وهو يسير في خطى سليمة ! .. وما لبث « شارل » أن شد مريضه إلى الجهاز المحرك الآلى ، ثم عاد إلى داره ، حيث كانت « ايبا » في انتظاره لدى الباب ملهوفة ، فطوقت عنقه ، ثم جلس إلى المائدة ، فأكل في نهم .. وعند تناول الحلوى طلب قدحا من القهوة — وهو نوع من القرف لم يكن يتحسه لنفسه إلا في أيام الأحاد ، حين يكون لديها ضيوف !

● وكان ذلك المساء بديعا ، أفعمه الزوجان بالكلام والأحلام .. تحدثا عن خطهما المقبل ، وعن التحسينات التي يدخلانها على دارهما .. واستعرض « شارل » في مخيلته ما يرتقبه من تقدير ، ومن ازدياد الرخاء ، إلى جانب حب زوجته المقيم .. وكانت هذه من ناحيتها هائلة إذ تنعم بعاطفة جديدة ، أسلم وأحسن مما كانت تنعم به من قبل ، ولذا تحس — أخيرا — ببعض الحنان والعطف نحو هذا المسكين الذى كان يعبدها . ومرت ذكرى « رودولف » بذمها للحظة واحدة ،

حتى المساء . كان يشاهد باستمرار في الميدان يقفز حول العربات ، وهو يطوح بقدمه العرجاء إلى الامام .. بل كان يلوح أن هذه الساق ذات القدم الملتوية أقوى من أختها ، فقد اكتسبها العمل الشاق صفات معنوية كالصبر والنشاط ، بحيث كان صاحبها إذا أقدم على عمل يثقل عليه ، وقف عليها دون أختها !

ولما كان الالتواء إلى أسفل ، فقد بات من الضروري قطع عصب « اشيل » ، على أن يترك أمر العصب الشظوى — أو الزمارى — الداخلى حتى يتبين فيما بعد ما إذا كانت الضرورة تدعو إلى علاجه للتخلص من الالتواء الذى يثنى القدم إلى الداخل ، أم لا (إذا لم يجرؤ الطبيب على الإقدام على جراحتين دفعة واحدة .. بل إنه كان يرتجف فرقا من أن يؤذى بقعة هامة دون أن يدري) . ولم يحدث لأمبروز باريه ، وهو يحاول لأول مرة منذ عصر « الكلت » — أى منذ حوالى خمسة عشر قرنا — أن يربط أحد الأوردة ، ولا لديبيران ، حين هم بأن يشق خراجا في المنع ، ولا لجنسول حين انتزع عظم الفك العلوى للمرة الاولى .. لم يحدث لأحد من هؤلاء أن ارتجف قلبه ، أو ارتعشت يده ، أو اضطرب ذهنه ، كما كانت الحال مع السيد « بومارى » حين شرع يعالج « هيبوليت » ، ممسكا بأعصاب قدمه بين أصابعه ..

وكما يشاهد في المستشفيات ، وضعت على منضدة كبيرة كومة من « الشاش » ، والخيوط المشمع ، وكثير من الضمادات — بل « هرم » من كل ما يوجد عند الصيدلى من أنواع الضمادات ! — وكان السيد « هوميه » هو الذى عنى منذ

ولكن عينيها تطلعتا إلى « شارل » .. بل إنها لاحظت - وهى مدهوشة - أنه لم يؤت أسنانا تالفة ، كما كانت تعتقد ! .. وكانا قد أويا إلى فراشهما حين ولج السيد هوميه الفرقة مندفعاً ، رغم اتف الخادم ، وقد أمسك فى يده ورقة تتضمن صورة من النيا الذى كتبه لصحيفة « فانك دوروان » ، وقد حملة إليهما ليقرأه .. فقال « بوفارى » : « اقراه بنفسك » .. فشرع يقرأ : « على الرغم من الأباطيل التى لا تزال ترين على شطر من وجه أوربا ، كالشبكة ، فإن الضوء قد بدأ ينفذ من ريقنا .. فقد الفت بلدنا الصغيرة (ايونفيل) نفسها - يوم الثلاثاء - مسرحاً لتجربة جراحية كانت فى الوقت ذاته من أسمى امثلة الخير ، إذ قام السيد « بوفارى » ، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين ... »

فقاطعه « شارل » بصوت مخفوق من غرط سدافع المشاعر : « لا ! .. هذا أكثر مما أستحق ! .. هذا كثير جداً ! » .. بينما اجاب الصيدلى : « لا ، لا ! .. العفو ! .. اسمع » - مستطرداً : « .. بإجراء عملية جراحية لرجل أعرج » .. إننى لم استخدم التعبير العلمى ، ففى الصحف - كما تعلمان - لا يفترض أن كل قارئ يفهم التعبيرات العلمية .. يجب أن يتاح للعامة .. » ، فقال « بوفارى » : « طبعاً .. امض ! » ، فقال الصيدلى : « سأستأنف : قام السيد « بوفارى » ، وهو من أبرز أطبائنا الممتازين ، بإجراء عملية جراحية لرجل أعرج يدعى « هيبوليت » توتان ، قضى معظم السنوات الخمس والعشرين الأخيرة سائساً فى فندق « الأسد الذهبى » ، الذى تديره الأرملة « لوفرانسوا » فى

ميدان الجيش . ولقد اجتذبت طرافة التجربة ، وما أثاره الموضوع من اهتمام ، كثيراً من الناس .. حتى لقد كان الزحام شديداً عند مدخل الفندق . فضلاً عن هذا فقد أجريت العملية فى براعة أشبه بالسحر ، فلم يكذب يبدو على الجلد أكثر من قطرات قليلة من الدم ، وكأنها استسلم العصب المتمرد لجهود الفن أخيراً . وكان من الغريب أن المريض لم يشك أى ألم ، وهو ما تؤكده إذ شهدناه بأعيننا . ولا تدع حاله - حتى الآن - مجالا للرغبة فى مزيد . ويدعو كل شىء إلى الاعتقاد بأن فترة نقاهته ستكون قصيرة . ومن يدرى ، فقد نرى فى عيدنا القروى القادم ، صديقنا « هيبوليت » منهيكاً فى رقصة « الباشيك » بين فريق من الراقصين المرحين ، وبذلك يثبت للأبصار جميعاً - بتحمسه وقفزاته - شفاءه التام ! .. فلنجد إذن العلماء الكرام ! .. لنكرم تلك النفوس التى لا تنه ، والتى كرست مواهبها لتحسين ، أو بالأحرى ، لترقية الجنس البشرى ! .. المجد لهم .. لنهتف ثلاثاً لتجديدهم ! .. أولا يدعو هذا لأن نصيح بأنه قد آن للأعشى أن يرى ، والأصم أن يسمع ، والأعرج أن يسير ؟ .. إنها يحقق العلم الآن لكل الناس ما كان المهوسون يعدونهم به من قبل ، ولسوف نوافى قراءنا بالتطورات المتتابعة لهذا الأعرج الفذ ! »

● لكن ذلك لم يمنع الأم « لوفرانسوا » من أن تاتى بعد خمسة أيام وهى تصيح فى فزع : « النجدة ! .. انه يموت ! .. لقد جن ! » .. واندفع « شارل » إلى « الأسد الذهبى » ، وترك الصيدلى بدوره حانوته حين لمح الطبيب ينطلق فى الميدان

بدون قبة ، وهرع إلى الفندق ، فوصل إليه لاهتا ، محمر الوجه ، شديد القلق ، فراح يسأل كل من كان يصعد السلم : « ماذا ؟ .. ما الذى جرى لأعرجنا الهمام ؟ » .. وكان الأعرج يتلوى فى تشنجات فظيعة ، حتى أن الآلة التى وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار فى عنف يوشك أن يحطمها ! وأزيل الصندوق فى كثير من الحذر حتى لا تقلق الساق عن وضعها .. فإذا بمنظر مؤلم يتجلى : كان شكل القدم قد تلاشى فى تورم جعل الجلد يلوح وشيك الانفجار ، وقد كستها كدمات نشأت عن الجهاز الذى ذاع صيته . وكان « هيبوليت » قد شكا من أنه يعاني منه آلاما ، غير أن أحدا لم يأبه له .. ولكن لم يعد بد من الاعتراف بأنه لم يكن على خطأ البتة ، ومن ثم حررت ساقه من الجهاز لبضع ساعات . ولكن ما إن هبط التورم هونا ما ، حتى رأى العالمان — الطبيب والصيدلى — أن من الأصوب أن تعاد الساق إلى الجهاز ، وزادا من إحكام الوثاق ليمجلا بالشفاء .

ولكن لم تنقض ثلاثة أيام ، حتى كان « هيبوليت » عاجزا عن المضى فى الاحتمال ، فرغمت الآلة .. ولكن ، شد ما كانت دهشة العالمين للنتيجة التى شاهدها : كان التورم الأزرق قد انتشر فى الساق ، تصحبه بقع متناثرة هنا وهناك ، تنضج بسائل أسود ! .. كانت الأمور قد تطورت تطورا خطيرا ، وبدأ « هيبوليت » ينزعج ، فاضطرت الأم « لوفرانسوا » إلى نقله إلى الغرفة الصغيرة القريبة من المطبخ ، ليتاح له بعض القسلية على الأقل ! .. غير أن محصل الضرائب — الذى كان يتناول عشاءه فى تلك الغرفة — شكا



وكان الأعرج يتلوى فى تشنجات فظيعة ، حتى أن الآلة التى وضعت فيها ساقه كانت ترتطم بالجدار فى عنف ..

مر الشكوى من هذه الصعبة ! ومن ثم نقل « هيبوليت » إلى قاعة « البلياردو » ، غظل راقدا هناك وهو يئن تحت أغطيته الثقيلة ، وقد شحب وجهه ، ونبت لحيته ، وغارت عيناه ، وراح من آن لآخر يدير رأسه المجلجل بالعرق على الوسادة القذرة ، التى كان الذباب يتهافت عليها ! .. وزارته مدام « بوفارى » هناك ، حاملة له بعض « الشاش » لقروحه ، فواسته ، وشجعتة . ثم إنه لم يكن إلى جانب ذلك يفتقد الانيس ، لا سيما في أيام السوق ، حين كان الفلاحون يقرعون كرات « البلياردو » حوله ، ممسكين بعصبيها ، وهم يدخنون ، ويغنون ، ويصخبون .. وكاتوا يسألونه وهم يدقون كنفه : « كيف حالك ؟ .. آه ! .. انك لم تتحسن كثيرا ، ولكنها غلطتك ! .. يجب أن تفعل هذا ! .. او تفعل ذاك ! » .. ثم يروون له قصص أناس برئوا بعلاجات غير التى يعالج بها . ويعقبون ، على سبيل النصيح : « انك تستسلم للكسل اكثر مما ينبغى ! .. الا قم ! .. انك تتدلل كما لو كنت ملكا ! .. آه ! .. ان رائحتك ليست بالطيبة على كل حال ، ايها المهرج ! » .



● على أن العفن المتقيح — « الفغفرينة » — كان يزداد استشرأ ، حتى بات « بوفارى » نفسه يشمئز منه ! .. وأخذ يذهب إليه في كل ساعة ، وفي كل لحظة ، فيتطلع إليه « هيبوليت » بعينين زاحرتين بالذعر ، ويقول باكيا : « متى أشفى ؟ .. آه ! .. انقضى ! .. ما اتعسنى ! .. ما اتعسنى ! .. » . وكان الطبيب يفارقه في كل مرة وهو يوصيه بأن يتبع نظام

التغذية الذى عينه له . ولكن الام « لوفرانسوا » كانت تقول له : « لا تستمع إليه يا ولدى .. ألم يشيعك تعذيبا ؟ لسوف تزداد ضعفا ، فهناك .. ابتلع هذه » .. ثم تقدم إليه حساء دسما ، وقطعة من لحم الفخذ ، وشقة من شحم الخنزير ، و — أحيانا — اقداحا صغيرة من « البراندى » ، لم يكن ليقوى على رفعها إلى شفتيه !

وإذ سمع الأب « بورنيسيان » بأن حاله تزداد سوءا ، طلب أن يراه ، وشرع يرش لآلامه ، ويثبته — في الوقت ذاته — بأنه خليق بأن يتهج بها ، ما دامت هذه مشيئة الرب ، وأن ينتهز الفرصة ليحسن صلاته بالسواء .. ثم أضاف رجل الدين في لهجة أبوية : « ذلك لأنك أهملت واجباتك بعض الشيء ، فقلما كنت ترى في صلاة او عبادة . كم من السنين انقضت دون أن تسعى إلى المائدة المقدسة ! .. إننى أدرك أن أعمالك ودوام الدنيا ، شغلتك عن أن تعنى بخلاص روحك . أما الآن فقد حان وقت التأمل . ومع ذلك فلا تياس ، فلقد عرفت أنا اناسا آثمين مومنين في الذنب ، عمدوا حين أوشكوا أن يمثلوا أمام الله — وأنت لم تبلغ هذه الدرجة بعد كما أعرف — إلى الإبتهال في طلب رحمته ، وماتوا وهم بالتاكيد في خير حالات راحة البال ! .. فلنأمل أن تضرب لنا — كما فعلوا — المثل الطيبة . فما الذى يمنعك — من باب الاحتياط — أن تردد في الصباح والمساء عسلا من « السلام عليك يا مريم يا كاملة الحسن » ، و « أبانا الذى فى السماء » ؟ .. أجل ، أفعال ذلك من أجل ، لترضىنى .. لن يكلفك هذا شيئا ، فهل تعذنى ؟ » .

ووعده الشيطان البائس . وأخذ القس يتردد عليه يوما

بعد يوم ، فيجاذب ربة الفندق الحديث ، بل ويروى النوادر التى تتخللها الفكاهات والتوريات التى لم يكن « هيبوليت » يفقهها ! ثم كان لا يلبث أن يرتد إلى أمور الدين بأسرع ما يستطيع ، مسبباً على وجهه المظهر الملائم .. وبدت هذه المهمة موفقة ، إذ ما لبث الأعرج أن أظهر شوقاً إلى أن يحج إلى (بون سيكور) إذا قدر له شفاء ، فأجاب السيد « بورنيسيان » بأنه لا يرى سبيلاً للاعتراض على ذلك ، وأن احتياطين — (يقصد الصلاة والحج) — خير من واحد ، ولا ضرر هناك من ذلك !

● وكان الصيدلى يستنكر ما اسماه « مناورات » القس؛ وزعم أنها تضر بنقاها « هيبوليت » .. وأخذ يردد لمدام « لوفرانسوا » : « دعوه .. دعوه ! .. انكم تبلبلون معنوياته بروحانياتكم هذه ! » .. بيد أن المرأة الطيبة لم تعد راغبة فى الانصات له ، إذ اعتبرته « سبب كل شيء ! » .. وبدافع من معارضتها له ، علقته إلى جوار فراش المريض حوضاً مليئاً بالماء المقدس ، وغصنا من العوسج .. على أن الدين لم يبد أقدر من الجراحة على انقاذه ، وظلت « الفشغرينية » التى لا سبيل إلى قهرها ، باضية فى امتدادها من الأطراف حتى البطن .. وكان تنويع الأدوية وتغيير الضمادات أمراً لا بأس به ، ولكن الاعصاب كانت تزداد تلقاً فى كل يوم .. حتى لقد أجاب « شارل » أخيراً بهزة من رأسه تعنى القبول ، حين سألته الام لوفرانسوا عما إذا كان يرى — فى حالة القنوط —

أن تستدعى لعيادة المريض السيد « كانيفيه » ، الذائع الصيت ، من (نيوشاتل) .

ولم يتورع زميل « شارل » هذا الأخير — وكان طبيباً فى الخمسين من عمره ، يتمتع بهركت طيب ، وثقة بنفسه — عن أن يضحك فى ازدراء حين كشف عن الساق التى دب فيها النعفن المتقيح حتى الركبة ! .. ولم يكذ يعلن فى صراحة أن لابد من بترها ، حتى انطلق إلى حانوت الصيدلى ليغف « الحمير » الذين هواوا برجل تعس إلى مثل هذه الحال ! .. وهناك أمسك بزر « الرندجوت » الذى كان السيد هومييه يرتديه ، وراح يهزه وهو يصيح فى الحانوت : « أهذه مخترعات باريس ! .. أهذه افكار هؤلاء السادة المقيمين فى العاصمة ! .. انها كعلاج « الحول » فى العين ، وكالكوروفورم ، وكعملية تقطعت حمى المثانة .. طائفة من الفطاعات التى يجب على الحكومة أن تحرمها ! ولكنهم يريدون أن يظهروا براعتهم ؛ فيحشون رؤوسكم بطرق العلاج دون أن يزعموا انفسهم بالتفكير فى عواقبها . إننا لسنا فى براعتهم .. نحن بالذات .. لسنا متحذلقين ، ولا مزهوين ، وإننا نحن أطباء معالجون ، ولا يخطر بخیالنا أن نجرى جراحة لأى امرئ مكتمل الصحة . تقويم الاقدام المشوهة؟! فى الوسع إصلاح الاقدام المتوتية ؟! .. ان هذا اشبه بتقويم الظهر المحدودب مثلاً ! » .. وكان « هومييه » يتالم وهو ينصت إلى هذا الحديث ، ويخفى استياءه تحت ابتسامة متعلقة ، إذ كان مضطراً إلى مداخنة السيد « كانيفيه » الذى كانت وصفاته العلاجية تحمل أحياناً إلى حيث تصرف من صيدليته فى (ابونفيل) . ومن ثم لم يعد إلى الدفاع

عن « بوفارى » ، بل انه لم ينطق بعبارة واحدة ، وإنما نبذ مبادئه وضحي بكرامته في سبيل مصلحة عمله ، التى تفوق المبادئ والكرامة في اهميتها !

● وكان حدثا هاما في البلدة ، ان بترت فخذ « هيبوليت » على يدى الدكتور « كانيفيه » . ففى ذلك اليوم استيقظ الاهالى جميعا مبكرين ، ومع ان الشارع الرئيسى ازدحم بالناس ، إلا ان كآبة رانت عليه ، وكان ثمة حكما بالاعدام يوشك ان ينفذ ! .. وكان القوم يتناقشون فى مرض « هيبوليت » لدى البدال . ولم تبع المتاجر فى ذلك اليوم شيئا ، ولا تزخرحت مدام « توفاش » — زوجة العمدة — عن نافذتها ، فقد كانت ترقب وصول الجراح بصبر نافذ . .. حتى وصل فى عربته الخفيفة التى كان يقودها بنفسه . غير ان لولب الجانب الايمن للعربة تداعى اخيرا تحت ثقل جسمه البدين ، فكانت العربة تهمل قليلا وهى تدرج فى طريقها . وكان يشاهد على الوسادة المجاورة له صندوق كبير مكسو بجلد احمر ، وقد لمعت مقابضه النحاسية الثلاثة فى بهاء . وما إن دخل الطبيب فناء « الاسد الذهبى » كالاعصار الجائح ، حتى صاح بصوت عال ، أمرا بتسريح جواده من العربة ، ثم ذهب إلى الحظيرة ليرى ما إذا كان الجواد مقبلا على التهام الشوفان ! — إذ كان من عادته إذا بلغ دور مرضاه أن يشغل أولا بدابته وعربته ! — ومع ذلك فقد قال الناس : « آه ! يا للسيد « كانيفيه » من فذ ! .. وزاده هذا الهدوء الرصين اكبرا فى أعين القوم ، فما كان

ليبتخلى عن آتفه عاداته ، ولو فنى العالم من اهله إلى آخر نسمة !

وتقدم « هوميه » ، فقال له الطبيب : « إننى أعول عليك ، فهل نحن على استعداد ؟ .. هيا بنا ! » .. بيد أن وجه الصيدلى احتقن ، واعترف بأنه مرهف الحس لا يقوى على المساعدة فى عملية كهذه ، وقال : « ان رؤية المنظر تكون أشد تأثيرا على المرء إذا كان مجرد متفرج ، ثم إننى أوتيت جهازا عصبيا فقطع عليه « كانيفيه » الحديث قائلا : « آه ، مهلا ! .. انك ، على العكس ، تبدو لى عرضة للسكتة القلبية ! ثم ان هذا لا يدهشنى ، فأنتم — معشر الصيادلة — تترددون باستمرار على مطابخكم ، مما يؤدي ولا بد فى النهاية إلى إفساد بنيان أجسامكم . الا انظر إلى ! .. إننى استيقظ فى الرابعة من كل صباح ، فأحلق لحيتى بالماء البارد (ولم أصب قط ببرد !) .. ولست أرتدى قميصا داخليا (فانيل) ، ومع ذلك لم أتعرض قط لنزلة من نزلات البرد . .. وان هيكلى لقوى ! .. وأعيش أنا على حال ، وأنا آخر على حال أخرى ، كالفيلسوف ، تبعا للظروف والمصادفات . وهذا هو السر فى اننى لست ضعيفا مثلك ، وائى لأشرح أى إنسان كما أشرح أول بطة برية تأتىنى . ستقول بعد هذا إن الأمر يرجع إلى التعود ! » .

وبغير أن يحفلا بهيبوليت الذى كان يتصبب عرقا بين أغشية فراشه لفرط الألم ، اندمج الرجلان فى حديث راح الصيدلى يقارن فيه بين هدوء جاش الجراح ، وهدوء جاش القائد العسكرى . .. وراقت هذه المقارنة لكانيفيه الذى مضى

يتحدث عن مطالب فنه . كان يعتبره مهمة قدسية ، وإن كان الأطباء المعاديون قد حطوا من قدرها . وتحول أخيرا إلى المريض ، وفحص الضمادات التى أحضرها « هوميه » — وهى عين الضمادات التى كان قد أحضرها عند علاج التواء القدم ! — ثم طلب شخصا يمسك له الساق ، فأرسل فى طلب « ليستيبودوا » ، وما لبث السيد « كاتيفيه » أن تسمر عن ساعديه ، ثم انتقل إلى قاعة « البلياردو » ، بينما بقى الصيدلى مع « آرتيميز » وصاحبة الفندق — اللتين صار وجهاهما أشد بياضا من لون مبرولتيهما — وقد أرهف الجميع آذانهم نحو الباب .

● لم يجرؤ « بونفارى » فى تلك الفترة على مبارحة داره ، بل ظل فى قاعة الجلوس — بالطابق الأرضى — إلى جوار المدفأة الخالية من اللهب ، وقد أسند ذقنه إلى صدره ، وعقد ذراعيه ، وجهدت حدقته .. يا للكارثة ! .. وحاول أن يتذكر أى خطأ ربما بدر منه .. لقد اتخذ كل الاحتياطات الممكنة تصورها ! .. غير أن القدر تدخل فى الأمر ! .. ولكن ، ما قيمة هذا ؟ .. لو أن « هيبوليت » مات بعد ذلك ، لكان هو قاتله ! .. ثم ، أية حجة يستطيع أن يدلى بها إذا هو سئل عن الأمر فى جولاته ؟ .. وعاد يفكر فى أنه ربما أخطأ فى شيء ما ! وراح يتقرب دون أن يعثر على أى خطأ . ومع ذلك ، فإن أشهر الجراحين يخطئون . ولكن أحدا لن يصدق هذا أبدا ، بل إنه على العكس سيفقدوا أضحوكة ومضفة فى الأفواه !

وستنتشر القصة إلى (فورج) .. بل إلى (نيوشاتل) .. ثم إلى (روان) .. وكل مكان ! .. ومن يدري ، ربما كتب بعض زملائه ضده ! غيثير ذلك جدالا يتطلب الرد فى الصحف .. بل أن فى وسع « هيبوليت » نفسه أن يقاضيه ! .. وتصور الطبيب نفسه وقد جرد من سمعته ، وحق به الدمار ، وقضى عليه ! وراح خياله يتخط بين الافتراضات والاحتمالات التى تدفقت عليه ، كما لو كان برميلا فارغالقى فى البحر فأخذت الأمواج تتقاذفه !

وكانت « ايماء » تجلس أمامه ، ترتقبه .. لم تشاطره ذلته ، فقد كانت تعانى ذلة أخرى .. ذلة أنها تصورت أن مثل هذا الرجل جدير بأى شيء ! .. وكأنها لم تتبين تماما مدى قصور عقله عشرين مرة من قبل ! .. وأخذ « شارل » يذرع الحجرة ، وحذاءاه يحدثان صريفا على الأرض الخشبية المصقولة ، فقالت له : « ألا تجلس ، فانك تثير أعصابى ! » .. وجلس .. وراحت تسائل نفسها : كيف سمحت لنفسها — وهى الشديدة الذكاء — بأن تخدع مرة أخرى ؟ .. بل أى جنون محزن جعلها تدبر حياتها إلى هذا الحد ، بالتفحيط المستمرة ؟ .. وتذكرت كل رغباتها الغريزية فى القرف ، وكل ألوان الحرمان الذى عانتته نفسها ، وزواجهما المزرى ، وحياتها المتزلية المتواضعة ، وتردى أحلامها فى الوحل كما تتردى العصفائر الجريحة .. وكل ما كانت تصبو إليه ، وكل ما حرمت نفسها منه ، وكل ما كان فى وسعها أن تناله .. لماذا ؟ .. لماذا ؟

وفي غيرة السكون الذى ران على القرية ، انبعثت في الهواء صرخة تفتت الأكباد ، فشحب « بوفارى » وكاد يهوى معشيا عليه .. بينما قطبت « ايبا » في حركة عصبية ، ثم عادت تستأنف افكارها : كان ذلك كله من أجله .. من أجل هذا المخلوق .. من أجل هذا الرجل الذى لم يفهم شيئا ، ولم يشعر بشيء ! .. فما هو ذا يجلس سالكنا ، دون أن يدور بخله أن الزراية التى ستلحق باسمه ، ستلحق باسمها هي الأخرى من الآن فصاعدا .. لقد بذلت جهدا لتحمل نفسها على أن تحبه ، ولقد ذرفت الدموع ندما وتكثيرا عن استسلامها لسواه !



● وهتف « بوفارى » فجأة ، وهو مستغرق في افكاره : « ولكن ، لعله كان التواء إلى الخارج ! » .. وارتجفت « ايبا » للصدمة غير المرتقبة التى أحدثها سقوط هذه العبارة على فكرها وكأنها رصاصة سقطت على صفحة فضية ! .. ورفعت رأسها لتستبين ما كان يعنيه بقوله .. ورمق كل منهما الآخر في صمت ، وكأنه في دهشة لوجوده ، إذ كانت افكارهما قد نأت بكل منهما عن الآخر .. وحملق فيهما « شارل » - بتلك النظرة الزائفة التى تبدو في عينى السكران - بينما كان يصغى دون حراك إلى آخر صيحات المريض ، الذى كانت ساقه تبتر ، وقد تتابعمت في نفحات مستطيلة ، تتخللها صرخات تشنجية حادة ، وكأنها عواء ينبعث عن بعد من وحش يقتل ! .. وعضت « ايبا » شفتها المتقعة ، واخذت

تقلب بين أصابعها قطعة من المرجان كانت قد كسرتها ، وهى تسلط على « شارل » مقلتيها الحادتين وكان سهمين من نار بوشكان أن ينطلقا منهما ! .. لقد أصبح كل ما فيه يثير اعصابها : وجهه ، ثوبه ، الكلام الذى لم ينطق به .. كل شخصه ، وكيانه .. وندمت على عفتها في الماضي كما تستخدم على جريمة ، وتبدد ما كان قد تبقى من هذه العفة تحت ضربات كرامتها المهتاجة .. وابتهجت لكافة ما كان لفجورها المنتصر من مسخرات شريرة ، خبيثة .. وعلودتها ذكرى عشيقها ، مع غوايات فيه بهرتها فارتمت فيها بكل روحها ، وتركتها تحملها إلى ذلك الطيف في تحمس متجدد .. وبدا لها « شارل » مقصيا عن حياتها ، وكأنه غائب إلى الأبد .. وكأنه قد غنى .. أو كأنه موشك على الموت ، يحتضر تحت بصرها !

وتردد وقع خطى في الطريق ، فأطل « شارل » .. ومن خصاص مصراعى النافذة رأى عند ناصية السوق - في وضوح ضياء الشمس - الدكتور « كانيفيه » يمسح جبينه يمينه ، و « هوميه » خلفه يحمل صندوقا أحمر كبيرا ، وهما يسعيان ، إلى دار الصيدلى .. وإذ ذاك ، تحول « شارل » في حنان واستخذاء طارئين ، قائلا لزوجته : « آواه ! .. تبيلنى يا حبيبتى ! » .. فقالت وقد احتقن وجهها غضبا : « دعنى ! » .. فتسأل مذهولا : « ماذا جرى ؟ .. اسكتى ! .. تمالكى نفسك ! .. إنك لتعرفين تماما أننى أحبك ، فهيا ! » .. وصاحت بلهجة قاسية ، « كفى ! » .. واندفعت خارجة من الغرفة ، مغلقة الباب وراءها في عنف جعل « البارومتر »

يهوى من الجدار فيتشم ! .. وعاد «شارل» يتهالك فى مقعده
حائرا ، يحاول ان يستبين ما اصابها . وخيل اليه انها اصببت
بمرض عصبى ، فآخذ يبكى ، وداخله شعور غامض بان شيئا
مشتوما ، لا سبيل الى إدراكه ، يجرى حوله ..

وعندما جاء «رودولف» الى الحديقة فى ذلك المساء ،
وجد عشيقته فى انتظاره عند ادنى درجات السلم السفلى ..
فاحتضن كل منهما الآخر ، وانصهرت كل ضغينة — كئيبها
الجليد — تحت حرارة تلك القبله .



الفصل الثانى عشر

● وعادا يتحابان من جديد .. وكثيرا ما كانت «إيها»
تكتب اليه بغتة — ولو فى منتصف النهار — ثم تشير الى
«جوستان» من وراء زجاج نافذتها فيخلع مروقته ، ويسرع
راكضا بالرسالة الى (لاهوشيت) .. فلا يلبث «رودولف»
ان يحضر ، ليجد انها ما أرسلت اليه الا لتبته بانها ضجرة ،
وان زوجها بغيفض ، وان حياتها لا تطاق ! .. وصاح بها
ذات يوم ، نافذ الصبر : «هل بوسعى ان افعل شيئا ؟» ،
فاجابته : «آه ، لو شئت !» ، وكانت تجلس على الأرض
بين ركبتيه ، وقد تهدل شعرها ، وزاغ بصرها .. وسألهما
«رودولف» : «ماذا ، إذن ؟» ، فتنهدت قائلة : «لنذهب
فنعش بعيدا .. فى مكان ما ..» فغمال ضاحكا : «انك
لمجنونة حقا ! .. أو هذا ممكن ؟» . فغادرت تردد قولها ..
وإذ ذاك تظاهر بأنه لا يفهم قصدتها ، ثم غير مجرى الحديث .
كان الذى لم يفهمه هو هذا القلق بشأن مسألة بسيطة
كالحب ! .. لقد كان لدى إيها باعث ، ومبرر ، و — فوق
هذا — قوة دافعة وراء عاطفتها . والواقع ان هواها أخذ
ينمو يوما بعد يوم ، ينمو نفورها من زوجها .. فكلما أسرعت
فى منح نفسها للواحد ، اشتد مقتها للآخر ! ابدا لم يكن يبدو
لها «شارل» فى مثل البشاعة ، ولا يمثل تلك الأصابع
الفليضة الضخمة ، ولا فى هذه البلادة والمسلك السوقي ،
كما كان يترأى لها إذا ما اجتمعا بعد لقاءهما لرودولف ! ..
كانت عندئذ تمثل دور الزوجة ودور العشيقه ، وتكوى بنار

اللوعة إذ تفكر في ذلك الرأس الذى يتهدل شعره الاسود في خصلة على جبين لفحته الشمس بالسمرة — رأس رودولف — وفي ذلك القوام الذى يجمع بين القوة والرشاقة .. في ذلك الرجل الذى اوتى — في إيجاز — كل تلك الحنكة في تفكيره ، وكل تلك الوقدة في شهواته ! .. من أجله شذبت أظافرها ودببتها بعناية .. ومن أجله لم تكن تضن على بشرتها بالدهان المرطب الذى يكسبها نعومة ، ولا على متاديلها بالعطور ! وكانت تثقل نفسها بالاساور ، والخواتم ، والقلادات . وعندما يكون قادمًا ، كانت تهلاً آتيتى الزهر الزرقاوين الكبيرتين بالورود ، وتعد مخدعها ونفسها كما لو كانت محظية ترتقب أميرا !

وكانت تشغل الخادم بغسل الثياب وكيها باستمرار ، فلم تكن « فيليسييتيه » لتتحرك طيلة اليوم من المطبخ ، حيث كان « جوستان » الصغير يؤنسها في أكثر الأحيان ، ويراقبها في عملها .. كان يعتد بهرقيقه على الطاولة التى تكوى الثياب عليها ، ويحرق بنهم في كل تلك الثياب النسوية المتناثرة حوله ، من « جونلات » مزركشة ، ومناديل منقوشة ، وياقات ، وسراويل ذات أربطة ، تتسع عند الردفين وتضيق فيها أسفلها .. وكان الفتى يهر يده على البطانة ، أو على المشابك المثبتة ، ويتساءل : « لم هذا ؟ » .. فتجيبه « فيليسييتيه » ضاحكة : « عجبًا ، أو لم تره من قبل ؟ .. كانى بعشيقتك — مدام هومييه — لا ترتدى مثله ؟ » .. فكان يقول : « آه ! .. أجل .. مدام هومييه ! » ، ثم يردف وهو مستغرق في التفكير : « أفترينها سيدة كسبدتك ؟ » .. على

أن « فيليسييتيه » كانت لا تلبث أن تضيق برؤيته يحوم حولها .. كانت تكبره بست سنوات ، وكان « تيودور » — خادم السيد « جيومان » — قد بدأ يغازلها ، فكانت تقول وهى تنقل وعاء النشاء الذى تستخدمه في الكى : « دعنى وشائى ! .. اذهب فاصحن اللوز .. إنك تحوم دائما حول النساء .. الا أنتظر أيها الولد الخبيث حتى ينبت الشعر في ذنك قبل أن تقحم نفسك في مثل هذه الأمور ! » .

— على رسلك ، لا تغضبى ! .. ساذهب وانظف حذاءى سيدتك بدلا منك .

ويبادر فيتناول حذاءى « ايبا » من على الرف ، وقد كساهما الوحل — من المغالطات الليلية في الحديقة ! — الوحل الذى كان يفتت تحت أصابعه ، فيرقبه وهو يتطاير في رفق في شعاع الشمس .. وكانت الخادم تقول : « لكم تخشى أن تلتفها ! » — فما كانت هى تعهد إلى مثل حرصه إذا نظفتها بنفسها ، لأن السيدة كانت ما تكاد تجد جلد حذاءها قد فقد ليونته ، حتى تمنحها إياها ! وكانت « ايبا » تملك عددا من الأحذية في صوانها ، تبهيها منها الواحد بعد الآخر ، دون أن يسمح « شارل » لنفسه بأن يلاحظ شيئا ! بل إنه تبرع — ببياحتها — بثلاثمائة فرنك منها لساق خشبية رأت أنها تليق بأن تقدم هدية إلى « هيبوليت » ، وكانت قمعتها مكسوة بالفلين ، ولها مفاصل لولبية ، وجهاز معقد ، يغطيها سراويل اسود ، ينتهى بحذاء لامع . على أن « هيبوليت » لم يجرؤ على أن يستعمل ساقا انيقة كهذه في كل يوم ، فالتمس من مدام « بوفارى » أن تحضر له ساقا أخرى أكثر مناسبة لحاله ،

فكان على الطبيب أن يتبرع — مرة أخرى ، بالطبع — بنفقات هذه الساق !



● وهكذا أخذ السائس يعاود عمله شيئاً فشيئاً ، فكان يشاهد وهو يهرع في أرجاء القرية كمهده فيما مضى . وكان « شارل » إذا سمع دقات الساق الخشبية الحادة عن بعد ، يبادر إلى تغيير الاتجاه الذى يسير فيه ؛ وكان السيد « لوريه » — التاجر — هو الذى تكفل باستحضار الساق ، فأتاح له هذا حجة لزيارة « ايماء » . وصار يثرثر معها عن السلع الجديدة التى تسلمها من باريس ، وعن ألف طرفة وطرفة من الطرائف التسوية ، ملطفاً كل التلطف ، متحاشياً أبداً طلب نقوده . وانصاعت « ايماء » لهذه الطريقة السهلة لاثباع كل أهوائها ، ومن ثم رغبت في سوط بديع جداً كان معروضاً لدى صانع مظلات في (روان) ، لتقدمه هدية إلى « رودولف » ، فحمله السيد « لوريه » إلى منضدتها في الأسبوع التالي . على أنه زارها في عادة ذلك اليوم ، ومعه كشف ، حساب بمائتين وسبعين فرنكاً ، عدا السنتيمات ! وذهلت « ايماء » ، فقد كانت كل أدراج المكتب خالية من النقود ، وكانا مدينين لليستيوودوا بأجر فترة تزيد على خمسة عشر يوماً ، وبأجر ستة شهور للخادم ، وبعده ديون أخرى . وكان « بوفارى » يرتقب بنافذ الصبر قبض حساب السيد « ديروزييرى » ، الذى كان من عادته أن يدفع حسابه حوالى عيد « سان بيير » أى في منتصف الصيف . ونجحت « ايماء » — في البداية — في استمهال « لوريه » . ولكنه تعقد صبره في النهاية ، إذ كان دائنوه بدورهم يطالبونه

بمالهم . وكان رأس ماله قد تدد ، فكان مضطراً إلى أن يسترد كل ما تلقته منه « ايماء » من سلع ، ما لم يتسلم بعض حسابه ! فقالت له : « حسناً .. اذن خذها ! » .. اجاب : « آواه ! .. إنما كنت أمزح .. إن الشيء الوحيد الذى آسف عليه هو السوط . لعمرى ، سأطلب إلى السيد أن يرده لى » .. فهتفت في جزع : « لا ! .. لا ! » .. وقال « لوريه » لنفسه : « آه ! .. ها قد أمسكت بها ! » .. وإذ أطمأن إلى ما اكتشف ، راح يردد لنفسه في صوت خفيض ، وهو يرسل صغيره الخافت المجهود : « حسناً ! .. لسوف ترى ! .. لسوف ترى ! » .. وفيما كانت تفكر في مخرج — بعد انصرافه — أقبلت الخادم ، فوضعت على رف المدفأة حزمة صغيرة مغلقة بالورق الأزرق ، من لدن السيد « ديروزييرى » . وانقضت عليها « ايماء » تفحصها ، فإذا بها خمس عشرة قطعة ذهبية من الجنيهات النابوليونية ، هى قيمة حسابه . وسمعت « شارل » يصعد السلم ، فالتقت بالقطع الذهبية في جوف درجها ، واحتفظت بالمفتاح !

وعاد « لوريه » بعد ثلاثة أيام ، يقول : « لدى تدبير اقترحه عليك : فلو أنك أخذت ، بدلاً من المبلغ المتفق عليه .. » . فبادرت تضع في يده أربع عشرة قطعة نابوليونية ذهبية ، وهى تقول : « هاك ! » .. وذهل التاجر ! ولكن يخفى استيائه ، طفق يهيل الأعدار ، ويعرض خدماته ، و « ايماء » ترفض على طول الخط .. ثم مكث يضع دقائق تتحسس بأصابعها في جيب مزلتها قطعته النقود — فئة الفرنكات الخمسة — اللتين أعطاها إياها التاجر بعد أن استوفى ما كان له . وعاهدت

نفسها ان تدخر ما استطاعت ، لتعيد المبلغ فيها بعد إلى زوجها ، وهى تقول لنفسها : « آه ! .. إنه لن يفكر فى هذا ثانية ! » .

● إلى جانب السوط ذى اليد الفضية ، تلقى «رودولف» من « ايا » خاتما نقش عليه : « قلب عاشق » ، فضلا عن ملفحة — « كوفية » — وأخيرا ، علبة للسيجار تشبه تماما علبة « الفيكوت » التى كان « شارل » قد عثر عليها فى الطريق فيها مضى فاحتفظت بها « ايا » . على أن هذه الهدايا كانت تشعره بخسة ، فرغض كثيرا منها ، ولكن « ايا » كانت تلح ، فينتهى به الأمر إلى الانصياع لها ، وهو يحس بأنهما جائرة ، شديدة العناد .. ثم أخذت تساورها افكار غريبة ، فكانت تقول له : « إذا دقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فعليك أن تفكر فى ! » ، فإذا اعترف بأنه لم يفكر فيها ، تدفق العتاب بسخاء ، ثم ينتهى دائما بالكلمة الخالدة : « اتجنبنى ! » ، فيجيب : « عجباً .. بالطبع أحبك » .

— كثيرا ؟ — بالتأكيد ! — أو لم تحب سوى ؟

فكان يهتف ضاحكا : « أو تظنين انك أخذتني بكرا ؟ » .. وكانت « ايا » تبكى ، فيسعى إلى تهدئتها ، مرسعا احتجاجاته بالفكاهات ! .. فتقول : « آواه ! .. إننى أحبك ! .. أحبك حتى أننى لا أقوى على العيش بدونك ، فهل تدرك هذا ؟ .. إننى لأتوق أحيانا إلى أن أراك ثانية ، فتمزقنى سورة الهوى .. وأسائل نفسى : « ترى أين هو ؟ .. لعله يتحدث إلى نساء

آخريات .. ينقسمن له ، فيقترب منهن .. آواه ! .. لا ، ما من امرأة سوى تروق لك ، أليس كذلك ؟ .. هناك من يفتننى جبالا ، ولكنى أكثرهن حبا .. إننى الأفضل هوى .. أنا جاريتك ، محظيتك ! .. انت مليكى ، ومعبودى ! .. انت طبيب ! .. أنت جميل ! .. انت ذكى ! .. انت قوى ! ..

كم من مرات سمع فيها هذه العبارات ثقلا ، حتى لم يعد يرى فيها طرافة ، فأخذت تفقد رواءها شيئا فشيئا ، كغلالة انزاحت عن الشهوة فظهرتها عارية فى استرسالها الأبدى الرتيب ، فإذا هى هي ، معها تباين شكل الغلالة ، وبالتالي ، معها تباينت اللغة والعبارات ! .. لم يكن ذلك الرجل الكثير التجارب ليميز أن العاطفة تختلف وإن تشابه المظهر . فهو لكثرة ما سمع هذه العبارات تفهم بها شفاء العاهرات وبائعات الهوى ، لم يؤمن كثيرا باخلاص « ايا » .. كان يرى أن على المرء أن لا يحفل بالعبارات الدافقة التى تنطوى على عواطف معتدلة .. كأنها اهتلاء النفس لا يفيض أحيانا خلال التعبيرات الخالية من الرواء والتنبيق ، إذ ليس فى وسع الإنسان أن يحدد بالدقة التامة مقدار حاجاته ، أو آرائه ، أو أحزانه .. وما الكلام البشرى الا كالاناء المعدنى المصدوع ، الذى ندق عليه الألحان لترقص الديبة ، بينما نحن نصبو إلى أن نهر النجوم !

على أن « رودولف » ، بما أوتى من خبرة ناقدة لا تتاح لغير الشخص الذى لا يحفل بدوام العلاقات ويحجم عن التعلق بالروابط ، لمح فى هذا الغرام مباحج جديدة راق له أن يتعرفها ، فاستهان بكل حياء اعترضه ، وراح يعامل

البلدية ، فهمت بان تفتح النافذة وتناديه ، ولكنه اختفى فى التو ، فتهاكت فى قنوط . بيد انها سرعان ما خالت ان ثمة من يسير تحت النافذة . لا بد انه هو . وهبطت السلم ، وعيرت الفناء ، فإذا به فى الخارج . . . والقت بنفسها فى أحضانها ، فقال : « حذار ! » ، ولكنها قالت : « آه ! لو علمت ما جرى ! » . . . وشرعت تروى له كل شئ فى عجلة ، وعبارات مفككة ، مبالغة فى تصوير الحقائق ، مفترية ومخلقة الكثير مما لم يحدث ، مسرفة فى العبارات الاعترافية ، حتى انه لم يفقه شيئا . . . وقال لها فى النهاية :

— صبرا يا ملاكى المسكين . . تجلدى ! . . اهدنى ! . . صبرا !

— ولكنى صبرت أربع سنوات ، وأنا اتعذب . . ان حيا مثل جبننا خليق بان يعلن حتى عنان السماء ! . . لقد عذبنى ! . . لم أعد احتل ! . . انقضى !

وتشبثت برودولف ، وعيناها المليتان بالدموع تلعبان كلهب تحت موج ، وصدرها يتهدج فى حركات سريعة . . . وإذا ذاك أحس انه لم يحبها يوما كما احبها ماعتذ ، ففقد تعظه ، وقال : « وما الذى ينبغى عمله ؟ . . ماذا تريدن ؟ » ، فصاحت : « انقلنى بعيدا ! . . أحملنى بعيدا ! . . آه ، أتوسل اليك ! » . . . وارتبت على منه ، وكأنها تريد أن تطلق منه الموافقة غير المرتقة ، إذا نغتها فى قبلة . . . فقال لها : « ولكن . . » .

— لكن ماذا ؟ — اينتك ؟

وفكرت لحظات ، ثم أجابت : « سنأخذها معنا ، لا مفر ! » . . . فقال لنفسه وهو يراها تهرع مبتعدة نحو الحديقة ، بعد أن سمعت نداء : « يا لها من امرأة ! » .

● كادت « الأم بوفارى » أن تذهل فى الأيام التالية ، للتغير الذى طرأ على زوجة ابنها . فالواقع أن « ايما » أخذت تبدى لها مزيدا من اللطف ، بل ومضت فى التقرب إليها إلى درجة أن سألها أن تصف لها طريقة لتخليع الخيثار ! . . . افتراها استحسنست أن تخدع الأم وابنها ؟ . . أم انها — فى نوبة فلسفية من وحى مجورها — شئت أن تدع مرارة الأشياء التى كانت توشك أن تهجرها ، تزداد تغلغلا فى نفسها ؟ . . . بيد انها لم تعتمد إلى الحذر ، وإنما راحت — على العكس — تعيش وكأنها تائهة فى طلائع بهجة سعادتها المقبلة ! . . ولم تكن تكف عن الحديث فى الموضوع إلى « رودولف » ، فكانت تميل على كتفه متمتعة : « آه ! . . متى نكون فى عربة البريد ! . . انتفكر فى هذا ؟ . . اهو ممكن ؟ . . أخالنا سنكون — فى اللحظة التى أحس فيها بالعربة تتحرك — وكأننا فى منطاد يرقى بنا ، كما لو كنا راحلين صوب السحاب . . . افتعرف أثنى أعد الأيام ؟ . . وانت ؟ » .

ابدا لم تكن مدام « بوفارى » فى مثل ما بدت فيه من جمال فى تلك الفترة ، إذ أوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم ، الذى يأتى نتيجة الفرح ، والنحس ، والظفر . . . والذى لا ينشأ إلا عن انسجام المزاج مع الظروف . كانت شهواتها ، وشجونها ، وتذوقها للذة ، وأوهامها الدائمة الصبا ، أشبه

بالتربة والمطر والرياح والشمس إذ تنبى الزهور .. وهكذا أخذت « ايبا » تنمو رويدا ، حتى تفتحت فى النهاية عن كل ما كانت تغم به طبيعتها . كانت اجفانها تلوح وكأنها صيغت خصيصا لتمشى مع نظراتها العاشقة الطويلة ، التى كان إنسان العين يغيب خلالها ، بينما تنبعث انفاسها قوية تفتح لها طائقا أنفها الرقيقتان ، وترتفع حافة شفقتها المكنتزة التى يحجبها عن الضوء زغب أسود دقيق .. كان المرء خليقا بأن يخال أن فلانا خبيرا بالفساد قد نسق خصلات شعرها على عنقها ، فكانت تتهدل غزيرة ، فى إهمال ، تتبان اشكالها بتباين ظروف الغواية التى كانت لا تنفك تتبدل فى كل يوم .. وازداد صوتها ليونة وتثنيا ، وكذلك قوامها .. كان ثمة شئ من الدهاء — الذى ينفذ إلى أعماقك — ينبعث حتى من ثنايا ثوبها ، وانعطافات قدمها !

● والفاها « شارل » شبيهة ، فتانة ، كما كان العهد بها فى الأيام الاولى لزواجهما ! .. لكنه كان لا يجرؤ على ايقاظها إذا عاد فى منتصف الليل . وكان مصباح الليل الخرق يلقى على السقف دائرة من ضوء مرتعش ، والستائر المسدلة على مهد الطفلة تبدو على هذا الضوء ككوكب ابيض يقوم فى الظلام عند حافة السرير . وكان « شارل » يتأمل كل هذا ، فيخيل إليه انه يسمع الانفاس الخفيفة المنبعثة من الطفلة ، ويروح يتصور ابنته وهى تنمو بسرعة ، مع كل فصل ، ثم يتمثلها مقبلة من المدرسة فى نهاية النهار ، ضاحكة ، وبقع المداد على ربيها المدرسى ، وقد حلت حقيبتها تحت ابطها .

ثم يرى أن الاوان قد آن لتلحق بالمدرسة الداخلية ، ولسوف يتطلب هذا نفقات كثيرة ، فما العمل ؟ .. خطر له ان يستأجر مزرعة صغيرة فى الريف المجاور ، يستطيع أن يرباعها بنفسه فى كل صباح وهو ينطلق لمعايدة مرضاه .. ثم يدخر دخلها ، ويودعه صندوق الادخار ، ثم يشتري اسمها ما ، فى اية مؤسسة ، فضلا عن أن عملاء سيزدادون .. وكان يعول على هذا ، لأنه كان راغبا فى أن تخطى « بيرت » بخر تنشئة ، وأن تكتسب مواهب ، وأن تتعلم العزف على البيانو ، آه ! .. لكم ستكون جميلة فيما بعد ، حين تبلغ الخامسة عشرة ، وتشبه أمها ، وترتدى مثلها قبة واسعة من الخوص فى الصيف ! .. لسوف تبدوان — عن بعد — كما لو كانتا شقيقتين ، وكان يتصورها فى الأمسيات وهى تطرز إلى جوار والدتها على ضوء المصباح .. لسوف توشى بشغل الإبرة خفيها (الشيشب) .. وستشغل بشئون المنزل ، وستملأ البيت سحرا وطربا .. ثم يفكران — فى النهاية — فى زواجهما ، وإذا ذاك سيبحثان لها عن فتى طيب ، عزيز المركز ، يسعدها .. فتظل هكذا دائما !

وبينما كان بوفارى يستسلم للنعاس ، لم تكن « ايبا » تنام ، بل كانت تتصنع النوم ، وتصحو لأحلام أخرى .. فإذا أربعة جباد تحملها راکضة بها نحو بلاد جديدة ، لا عودة منها ! .. وهناك تضى مع « رودولف » ، وقد اشبتكت ذراعاهما ، وسارا لا ينبسان بكلمة .. ثم يلحان فجأة من قمة جبل — أحيانا — مدينة رائعة ذات قباب ، وجسور ، وسفن ، وغابات تنبت الموالح ، وكاتدرائيات من الرخام

الابيض ، تحمل ابراجها الدبية أعشاش الطيور .. وبمضى السائر فيها بخطى منتظمة على الأرض المرسوفة ببلاط كبير ، وقد تناثرت باقات الورد التى تقدمها اليك نساء يرتدين صدارى حمراء . ويسمع العاشقان رنين الاجراس ، ونهيق البغال ، مع دهمدة « الجيتار » وسوسة مياه النافورات التى تنعش برذاذها العالى اكواها من الفاكهة نسقت على شكل اهرامات ، تحت تماثيل باهتة تبتسم تحت عيون الماء ! ثم يفدان ذات ليلة على قرية من قرى صائدى السمك ، حيث تنتشر الشباك البنية لتجف فى الهواء على السفوح امام الاكواح .. وهناك يكف عن الترحال ليستقرا ، فيقيماني فى بيت منخفض ذى سقف مسطح مستو ، تظله نخلة ، فى طرف خليج بجانب البحر .. هناك يخرجان للنزهة فى جندول ، ويتأرجحان فى مشاجع معلقة بين الاشجار ، ويغدو عيشهما سهلا ، فضفاضا كتيابها الحبرية ، الدافئة ، المزرکشة بالنجوم كتلك الليلية الناعمة التى يهنأ بتأملها .. ولكن ، فى هذا المستقبل الهائل الذى كانت تصوره « ايبا » ، لم يكن ليحدث شيء ذو بال .. كانت الايام كلها رائعة ، تتوالى متشابهة كالامواج ، وتترنج عند الافق اللانهائى ، البهيج ، الصافى الزرقة ، الفارق فى ضياء الشمس ..

● على ان الطفلة كانت لا تلبث أن تسمل فى مهدها ، او يشتد غطيط « بوفارى » ارتفاعا .. اما « ايبا » فلا تنام إلا فى الصباح ، حين يبدو بياض الفجر خلال زجاج النافذة ، وحين يشرع الفتى « جوسستان » فى إزاحة مصاريع الصيدلية ..

وذات يوم ، استدعت السيد « لوريه » وقالت له : « إننى بحاجة إلى معطف .. معطف واسع ، ذى ياقة عالية ، مزدوجة .. » فسألها : « أمسافرة أنت فى رحلة ؟ » .. فقالت : « لا ! .. ولكن .. هذا لا يهم .. ساعتهد عليك ، أليس كذلك ؟ .. فعجل ! » .. وانحنى موافقا ، بينما استطردت هى قائلة : « كذلك ساكون بحاجة إلى حقيبة .. ليست من النوع الثقيل ، بل سهلة الحمل » .

— أجل ، أجل .. فهبت .. حوالى اثنين وتسعين سنتيمترا ، فى خمسين .. من ذلك النوع الذى يصنعونه فى هذه الايام ..

— وحقيبة كبيرة للسفر ..

فقال « لوريه » لنفسه : « لا بد أن ثمة شقاقات هنا ، بالتأكيد ! » .. بينما استطردت مدام بوفارى وهى تتناول ساعتها من حزامها : « وخذ هذه . تستطيع أن تتقاضى من ثمنها حسابك » .. ولكن التاجر صاح باتها كانت على خطأ ، فإن كلا منهما يعرف الآخر جيدا ، فهل تراه ارتاب بصدها فى شيء ؟ .. آذن ، فما هذا التصرف الصيبانى ! .. بيد انها أصرت على أن يأخذ ولو السلسلة على الأقل . وكان « لوريه » قد دسها فى جيبه فعلا ، وتاهب للخروج ، حين نادته قائلة وعليها امارات التفكير : « سيكون عليك أن تبقى كل هذه الأشياء عندك .. أما المعطف ، فلا تحضره هو الآخر ، بل تستطيع أن تعطينى عنوان الصانع ، وأن تطلب إليه ان يعده ويحتفظ به رهن الطلب .. »

حياتك ؟ .. آه ، إننى أفهم .. أما أنا فلم تمنحنى الدنيا شيئا ! .. أنت كل شيء لى ، ومن ثم سأكون كل شيء لك .. سأكون لك امرأة .. وطننا .. سأعنى بك ، وسأحبك ! » ، فاحتواها بين ذراعيه قائلا : « لكم أنت فاتنة ! » ، فقالت فى ضحكة خليعة : « أحتا ؟ .. أوتحبنى ؟ .. آذن ، فاقسم ! » .
— كم أحبك ! .. كم أحبك ! .. بل أننى أعبدك يا غرامى !

وشرع القمر يبرز عند حافة الأرض فى أقصى المروج — بدرا ، أرجوانى اللون . ثم ارتفع سريما بين أفنان شجر الحور التى كانت تخفيه من مكان إلى آخر ، كأنها ستار أسود تتخلله ثغرات : ثم تالق فى بياض باهر ، فى السماء الخالية التى أشرقت بالنور ، وراح يمزج عباها فى هواده ، مرسلا على النهر رقعة كبيرة من ضوءه تكسرت إلى نجوم لا حصر لها ، ولاح البريق الفضى يتلوى متفلا إلى الأعماق ، كعنايين مارقة ، تكسوها قشور مضيئة ! .. بل إنه كان يشبه أيضا ثريا هائلة ، تسيل عليها قطرات متلاحقة من ماس ! .. وأفهما الليل البديع .. وانبثت خلال الأغصان كل من الظلال .. وراحت « أيما » — وقد أغمضت عينيها نصف إغماضة — تتنسم الهواء العليل الذى كان يهب فى جرعات عميقة . ولم ينبس بكلمة ، إذ استغرقا فى أحلامهما المتدافعة .. وقد عادت إلى قلبيهما عواطف الأيام السالفة ، عارمة ، صامئة ، كالنهر المنساب ، فى تلك النعومة التى يحسها المرء فى عبير الورود الهادئة ، فالتقت على ذاكرتهما ظلالا أعظم وأحلك من ظلال أشجار الصفصاف الساكنة التى كانت تمتد على العشب .

.. وكان الشهر التالى هو موعدهما للفرار ، فكان على « أيما » أن تبرح (أيونفيل) وكأنها ذاهبة لبعض الشئون فى (روان) .. ويكون « رودولف » قد حجز لهما مكانين ، وأعد جوازى السفر ، بل وكتب إلى باريس ليحجز عربة البريد بأسرها لهما حتى (مرسلينا) ، حيث يتاعان عربة ، ويمضيان من هناك دون توقف إلى (جنوا) . أما هى فستعنى بإرسال متاعها إلى « لوريه » ، لينقل من هناك مباشرة إلى « العصفورة » ، حتى لا يحدس أحد من الأمر شيئا . ولم يرد ذكر للطفلة فى كل هذا قط ، إذ كان « رودولف » يتقادم الحديث عنها ، ولعله لم يعد يفكر فى أمرها .. وما لبث أن رغب فى إهماله أسبوعين ليدير بعض شئونه ، وفى نهاية الأسبوع الأول طلب خمسة عشر يوما أخرى ، ثم قال أنه مريض ، وقام بعد ذلك برحلة .. وانقضى شهر أغسطس .. وبعد كل هذا الإرجاء ، قررا أن يحددا اليوم الرابع من سبتمبر ، موعدا لا يعدلان عنه .. وكان يوم اثنين .

● وحين أخيرا يوم السبت السابق على ذلك الاثنين . وأقبل « رودولف » فى المساء مبكرا عن العادة ، فسألته أيما : « هل كل شيء معد ؟ » .. فأجابها : « أجل » .. وما لبثا أن سارا حول حوض فى الحديقة ، واتجها ليجلسا على مقربة من رصيف على حافة السور .. وقالت أيما : « أراك حزينا ! » ، فتسأله كالمفكر : « لا .. لماذا ؟ » .. وكان فى تلك الأثناء يرمقها بنظرة غريبة ، وبشكل مغمم بالحنان .. فعادت تسأله : « أحزين لآنك راحل ؟ .. لأنك مفارق ما اعتدت أن تحب ..

وكثيرا ما كان يزعج العاشقين حيوان من حيوانات الليل — قنفذ أو عرسة تبحث عن صيد — أو كانا يسمعان في بعض الأحيان صوت شهرة ناضجة من الكثرى وهى تهوى من تلقاء نفسها .

وقال « رودولف » : « آه ! .. يا لها من ليلة بديعة ! » ، فاجابت « ايبا » : « سننعم بليال غيرها ! » ثم استطردت وكأنها تحدث نفسها : « أجل ، ان الرحيل خير ، ومع ذلك ، فلم يثقل الحزن قلبي ؟ .. أهذا هو الخوف من المجهول ؟ .. أثر التخلي عن الأشياء المألوفة .. أو ، تراه .. ؟ لا ، بل هو غيظ الهناة . يا لى من ضعيفة . السمت كذلك ؟ .. الا اغفر لى ! » .. فصاح : « لا يزال هناك وقت ، ففكرى .. ربما ندمت ! » ، فنهقت باستنكار : « أبدا ! » .. ثم اقتربت منه ، وقالت : « اى تماسة تحيق بى ؟ .. ما من صحراء ، ولا وهاد ، ولا محيط أحجم عن اجتيازها معك طالما عشنا معا ، ستكون حياتنا كعناق يشتمد في كل يوم ، ويزداد انطباقا ! لن يكون هناك ما يضايقنا ، فلا هموم ، ولا عقبات ! .. ستكون وحدنا ، ولنفسينا ، إلى الأبد .. أوآه ، ألا تكلم .. رد على ! » .. وكان يجيب في غترات منتظمة : « أجمل .. أجل .. » ، ودست يديها في شعره ، وراحت تردد في صوت كصوت الطفل ، رغم الدموع الكبيرة التى كانت تتساقط من عينيها : « رودولف ! .. رودولف ! .. أوآه ، يا رودولف ، يا صغيرى الحبيب ! » .

ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الليل ، فقالت : « انتصف الليل ! .. هيا ! .. لقد أصبحنا في الغد ! .. لم يبق سوى

يوم واحد ! » . ونهض لينصرف .. وكأنها كانت حركته الإشارة المبشرة بغراهما ، فقالت « ايبا » وقد غشيها ابتهاج طارىء : « هل الجوازان معك ؟ » .. قال : « أجل » .

— لم تنس شيئا ؟ — لا .

— امؤكد انت ؟ — كل التاكيد .

— إنه فندق « بروفانس » الذى سستظرنى فيه .. اليس كذلك ؟ .. عند الظهر ؟

فهرز رأسه .. وقالت « ايبا » وهى تعانقه للمرة الأخيرة : « إلى الغد اذن ! » .. وأخذت ترقبه وهو يبتعد .. ولم يلتفت وراءه . فهرعت خلفه ، ومالت على حافة الماء ، بين شجيرات العوسج ، وصاحت : « إلى غد ! » .. وكان قد اجتاز النهر ، وسار حثيثا في المراعى .. وبعد بضع دقائق ، وقف « رودولف » ، فلما رآها في ثوبها الأبيض تغيب شيئا فشيئا في جوف الظلام كالطيف ، راح قلبه يخفق في عنف ، حتى لقد اضطر إلى أن يستند إلى شجرة كي لا يهوى على الأرض . وقال في حلق : « يا لى من غيبي ! .. ولكن ، لا بأس .. لقد كانت خلية جميلة ! » .. وفي الحال عاوده جبال « ايبا » ، ومتع حبهما ومسراته .. فرقت عواطفه لحظة ، ثم عاد يتهدد عليها ، قائلا وهو يهز كتفيه : « ما كنت — رغم كل شيء — لاستطيع أن أعيش منفيا ، وأن أحمل هم طفلة ! » .. قال لنفسه هذه العبارات ليقوى من عزيمته ، ثم أردف : « وهناك — إلى جانب الهم — التفقات .. آه ، لا ، لا .. ألف مرة لا ! .. كان الأمر سيفقدو غباء بالغا ! » .

الفصل الثالث عشر

• ما كاد «رودولف» يبلغ داره ، حتى بادر بالجلوس إلى مكتبه ، تحت رأس الوعل المعلق إلى الجدار . ولكنه حين أمسك بالقلم بين أصابعه ، لم يجد في رأسه ما يسطره ، ومن ثم اعتمد على مرفقيه ، وأخذ يفكر . لقد أصبحت «ايما» تلوح له وكأنها تات في ماضٍ سحيق .. كأنها أقام القرار الذي اتخذته مسافة شاسعة بينها ، فجأة ! .. ولكي يسترجع شيئا عنها ، أخرج من الصوان المجاور للسريр صندوقا قديما من صندوق يسكويث «ريمس» . اعتاد أن يحفظ فيه خطابات النساء ، فانبعثت منه رائحة القبار الجاف والورود الذابلة ! ولح أولا منديلا صغيرا من مناديل الجيب ، مليئا ببقع صغيرة باهتة .. كان هذا المنديل لها .. فقد نزفت دما من أنفها مرة ، وهما يتنزهان .. وقد نسي كل شيء عنه ! وإلى جواره ، كانت الصورة الصغيرة المهداة من «ايما» ، وقد تاكلت من كل زواياها .. ولاح له أن في زينتها بهرجة مسرفة ، وأن نظراتها المنكسرة توحى بذوق سقيم . ولطول ما تأمل الصورة ، مستذكرا معالم الأصل ، أخذت ملامح «ايما» تختلط في رأسه شيئا فشيئا ، وكان الوجه الحي والوجه المرسوم قد احتكا حتى محا كل منهما الآخر ! .. وانتهى إلى قراءة بعض رسائلها .. كانت جميعا مليئة بأحاديث تتعلق برحلتها ، وقد كتب في إيجاز ، وبتعبيرات عملية ، وخط سريع ، كخطابات الأعمال . ورغب في أن يرى الرسائل الطويلة مرة أخرى — رسائل الأيام الخالية ! — ولكي يبحث عنها في قاع الصندوق ، عبث بنظام

كل الرسائل الأخرى ، وأخذ بحركة آلية ينقب وسط هذا الركام من الورق والأشياء ، مصادفا خليطا من الزهور ، ورباط جورب مما تستعمله النساء ، وقتاعا أسود ، ودبابيس ، وشعرا .. شعورا لسراوات ، ولشقاوات ، اشتبك بعضها بفصلات الصندوق فتقطعت حين فتحه !

هكذا أخذ يعيث بالفنذكارات ، متأملا خطوط واساليب الرسائل المتباينة ببيان كاتباتها : كانت بينهن الرقيقة الحنون ، والبشوش الضاحكة ، والمازحة الماجنة ، والحزينة المكتئبة .. وكانت هناك من ترجو حبا ، ومن تسال مالا .. وبوحى كلمة كان يتذكر وجوها ، وحركات معينة ، ولهجة صوت .. على أنه ، في بعض الحالات ، لم يكن يتذكر شيئا على الإطلاق ! .. والواقع أن اندفاع هؤلاء النسوة إلى ذهنه مرة واحدة ، جعل كلا منهن تعدو على الأخرى ، ونغض من ذكراها ، حتى لاح أنهن جميعا كن في مستوى واحد من الحب يسوى بينهما . ومن ثم أخذ «رودولف» يقترب الخطابات المختلط بعضها ببعض ، ويتسلى بأن يفتلها لتهوى من يده اليمنى إلى يده اليسرى كيماه الشلال .. وأخيرا — إذ مل وتعب — حمل الصندوق فرده إلى الصوان ، قائلا لنفسه : «يالها من نفايات متراكمة !» .. وكانت هذه خلاصة رأيه . إذ أن المذات — كالغلامذ في ساحة المدرسة — لم تبق على شيء أخضر في قلبه لكثرة ما وطأته .. وكل من اجتاز هذا القلب فيطيش وعدم أكثرات ، لم يخلف — على العكس من الأطفال في المدرسة — أدنى أثر .. ولا اسمه محنورا على الجدار !

● وقال « رودولف » لنفسه أخيراً : « هيا ! .. لنبدأ ! » ، ثم كتب : « تشجى يا ايها ! .. تشجى ! .. ما كنت لأحيل حياتك إلى شقاء » .. وحديث « رودولف » نفسه : « هذا حق ، رغم كل شيء .. اننى إنما اعمل لصالحها .. اننى أمين ! » .

وعاد يستأنف الكتابة : « هل تدبرت قرارك بعناية ؟ اتعرفين إلى أية هوة كنت أجرك أيها الملك المسكين ؟ لا ، أليس كذلك ؟ كنت مقبلة في ثقة وغير خوف ، مؤمنة بالسعادة في المستقبل .. آه ! .. ما أتسنا من أخرقين ! » .. وتوقف « رودولف » هنا لينكر في حجة طيبة . هل يكتب : « أن كل ثروتى قد تبددت ! » ؟ .. أوه ، لا .. ثم أن هذا لن يمنع من الأمر شيئاً .. لسوف يضطر إلى أن يعود إلى هذا فيما بعد .. وهل في وسع امرئ أن يحمل هذا الصنف من النساء على الإصغاء لصوت العقل ؟ .. وتروى ، ثم عاد يكتب : « لن أنساك قط .. ثقى من هذا .. وسأظل أبداً أكن لك ونساء عميقاً ، على أن هذا الوجد الجائح لن يلبث يوماً — إن عاجلاً أو آجلاً — أن يخف ولا شك (فهذه شيمة العواطف البشرية) ، وعندئذ يعترينا الفتور .. ومن أدراى باننى قد لا اضطر إلى أن أعانى الألم الفظيع ، ألم مشاهدة ندمك ، والمساهمة فيه بنفسى ، ما دمت السبب فيه ؟ .. أن مجرد التفكير في الحزن الذى سينتابك ، يعذبنى يا ايها ! .. فسامحينى ! لماذا قدر لى أن أعرفك ؟ لماذا كنت جميلة بهذا الشكل ؟ أهو ذنبى ؟ أوأه يا الهى ! .. لا ، لا ، لا ، لا تنهمنى سوى القدر ! » .

وقال لنفسه : « ها هى ذى كلمة تحدث دائماً الأثر

المشهود ! » .. واستأنف الكتابة : « آه ! لو أنك كنت من أولئك النساء المستهترات اللاتى يصادفهن المرء ، لأقدمت أنا بالتأكيد — وبدافع من الأنانية — على خوض هذه التجربة ، لأنها لن تكون ذات خطر عليك في هذه الحال . ولكن هذه النشوة العذبة ، التى تغتلك وتغيبك في آن واحد ، حالت بينك وبين أن تفهمى ، ايتها المعبودة : زيف مركزنا في المستقبل .. كما لم أفكر أنا من ناحيتى في هذا ، في بداية الأمر ، بل استطيت ظلال هذه السعادة الخالية كما يستطيع المرء ظلال شجرة وأرفة ، دون تقدير للتبعات والنتائج ! » .

وقطع رودولف الكتابة ليسائل نفسه : « ربما ظننت اننى اتخلى عنها بدافع من البخل .. آه ! .. لا بأس ! لا ضرر ! لابد من انتهاء الأمر ! » .. ثم استأنف : « إن الدنيا قاسية يا ايها . وكان لابد من أن تضطهدنا أينما ذهبنا . وسيكون عليك أن تتحلى الأسئلة الطائشة المثيرة ، والافتراء ، والإزدراء ، وربما الإهانة .. الإهانة التى تمسك ! .. آه ! .. أما أنا ، الذى يود لو رفعك إلى عرش ! .. أنا الذى أحمل ذكراك معى كتهمة ! فلسوف أعاقب نفسى بالنفى والتعريب ، لقاء كل ما فعلت من شر ! سأرحل . إلى أين ؟ .. لست أدري ! .. فلقد فقدت عقلى ! .. وداعاً ! .. ولتتهائى دائماً بالخير ! احتفظى بذكرى التعس الذى فقدك . لفتنى طفلك اسمى ، ودعيتها ترددده في صلواتها » .. واهتز إذ ذاك لهيب الشمعتين ، فنهض « رودولف » ليفلق التافذة ، ثم قال لنفسه وهو يجلس ثانية : « يلوح لى أن هذا غاية ما هناك .. آه ! .. لأضف هذه العبارة أيضاً ، خشية أن تسمى ورأى

وتضايقنى ! « : « ساكون بعيدا عندما تقرئين هذه السطور الحزينة ، إذ وددت ان افر بأسرع ما استطيع ، تخلصا من الإغراء الذى يدفعنى لأن اراك مرة أخرى — فلا ينبغي ان نستسلم للضعف ! — لكنى سوف اعود يوما ، ولعلنا نستطيع فيها بعد ان نتحدث معا ، فى منتهى الهدوء ، عن حيننا القديم . غوداغا ! « .. وعاد يضيف كلمات : « فى رعاية الله » ، إذ رآها تنم عن ذوق بديع ، ثم قال لنفسه : « والآن ، بماذا أوقع الخطاب ؟ .. بكلمة : « الوفى » .. لا ! بل : « صديقك » ؟ .. أجل ، فليكن ! .. » .. وكتب : « صديقك » .. ثم عاد يقرأ خطابه ، فبدأ له مناسباً . وراح يقول لنفسه فى إشفاق : « يا للمرأة الصغيرة المسكينة ! سترانى أقسى من الصخر ! كان لابد من ذرف بعض الدموع على ذلك ، ولكنى لا استطيع البكاء ، وليس هذا ذنبى » .. وما لبث ان صب بعض الماء فى كوب ، ثم غمس أصبعه فيه ، وترك قطرة كبيرة تسقط منه ، فكونت بقعة باهتة على المداد — كأنها دمعته — ثم بحث عن خاتم يحكم به اغلاق الرسالة ، فصادفه الخاتم الذى نقش عليه ! « قلب عاشق ! »

— هذا لا يصلح إطلاقا للظرف .. آه .. اف ! ..

لا بأس !

ودخن بعد ذلك ملء غلبونه ثلاث مرات ، ثم أوى إلى فراشه .

● وعندما استيقظ فى اليوم التالى ، حوالى الساعة الثانية بعد الظهر — إذ كان قد نام متأخرا — امر باقتطاف ملء

سلة من المشمش ، ووضع الرسالة فى قاعها . تحت بعض أوراق الكرم ، ثم امر « جيرار » — الحوذى — بأن يحملها فوراً إلى « مدام بوفارى » ، مترفعا — وكان قد ألف استخدام هذه الطريقة للتراسل معها ، بإرسال بعض الفواكه او الطيور التى يصطادها إليها ، تبعا للفصل — وقال للحوذى : « إذا سألتك عنى فقل إننى سافرت فى رحلة . ويجب ان تقدم السلة إليها بشخصها ، فى يديها .. هيا ، وكن على حذر ! » .

وارتدى « جيرار » قميصه الجديد ، وعقد مئذيله حول سلة المشمش ، ثم سار فى خطى ثقيلة واسعة ، منتعلا حذائيه الطويلين المعززين بالقطع الحديدية ، ويمم شطر (ابونفيل) ، وحين وصل إلى دار « بوفارى » ، كانت ربة البيت تنسق مع « غيليسيتيه » حزمة من الملابس الداخلية ، على منضدة المطبخ ، فقال الحوذى : « هاك شيئا أرسله مخدومنا اليك » .. واستولى عليها جزع ، وفيما كانت تبحث فى جيبها عن بعض القطع النقدية الصغيرة ، أخذت تتأمل الفلاح بعين قلقة ، بينما كان هو نفسه يرمقها فى دهشة ، لا يفقه كيف تؤدي مثل تلك الهدية إلى ارتباك امرئ ما ؟ ! .. وأنصرف أخيرا ، بينما بقيت « غيليسيتيه » . ولم تقو « اينا » على الاحتمال ، فهرعت إلى قاعة الجلوس ، متظاهرة بأنها تنقل المشمش إلى هناك ، ثم قلبت السلة ، ونشبت أوراق الكرم ، فعثرت على الرسالة ، وفتحتها ، ثم بادرت هاربة إلى غرفتها مذعورة ، وكأنها كانت خلفها نيران رهيبية تطاردها ! وكان « شارل » موجودا .. رآه ، وتحدثت إليها ، ولكنها لم تسمع شيئا ، بل مضت ملهوفة تصعد السلم .

لاهئة ، شاحبة ، بسلوبة الرشد ، متشيثة طيلة الوقت بتلك الورقة الرهيبة ، التي كانت تقرقع بين أصابعها كأنها صفحة من حديد ! .. وإذ بلغت الطابق الثاني ، توقفت لدى باب مخزن الحبوب ، الذي كان موصداً ، ثم حاولت أن تهديء من انفعالها .. وتذكرت الخطاب ! .. يجب أن تفرغ منه ، ولكنها لا تجرؤ .. واين ؟ .. وكيف ؟ .. قد يراها احد .. وقالت لنفسها : « آه ، لا .. هنا ساكون بخير ! » ، ودفعت الباب ، ودخلت .. وكان السقف ذو الألواح الأردوازية يشع في الداخل حرارة انصبت عمودية على صدغيها ، فكادت تختنق .. وجرت نفسها إلى كوة مغلقة ، فرفعت رتاجها ، وإذا الضوء الباهر يندفع إلى الداخل .. وإمامها ، كان الريف يمتد خلف أسطح المباني إلى أقصى مرامي البصر .. وتحت ناظريها مباشرة ، كان ميدان القرية خاويًا ، وأحجار الطريق تلمع ، وأجهزة الإرشاد إلى الرياح فوق الدور ساكنة .. وعند ناصية الطريق ، كان ينبعث من مبنى منخفض خريف مسترسل ذو صوت حاد منكر . كان « بينيه » يدير آلاته !

● واستندت إلى حافة النافذة ، وعادت تقرأ الخطاب في تهكم غاضب .. وكلما ازداد تركّز انتباهها عليه ، ازدادت أفكارها ارتباكاً .. وتمثلت « رودولف » مرة أخرى ، وسمعته ، وطوقته بذراعيها في الخيال ، وأحست بدقات قلبها تنتاب في عنف خلف صدرها - كدقات المطارق - وهي تزداد سرعة ، في هترات غير منتظمة .. وتلفتت حولها وهي تنهى لو أن الأرض انهارت وتهدمت ! .. لم لا تنهى كل شيء ؟ .. ما الذي



واستندت إلى حافة النافذة ، وعادت
تقرأ الخطاب في تهكم غاضب ..

يصددها ؟ .. إنها طليقة . وقد قدمت تطل على الشارع المرسوف ، وهي تقول لنفسها : « هيا ! هيا ! » .. كانت الأشعة المنعكسة عن الأرض تجتذب نكل جسدها إلى الهاوية ! .. ولاح لها أن أرض الميدان المتهترئة — تحت وهج الشمس — ترتفع بطول الجدران ، وأن أرض الغرفة تفوق من أقصاعا ، كسفينة يتقاذفها الموج .. وصارت عند الحافة ، تكاد تكون معلقة في الهواء ، محوطة بفراغ شاسع .. وبهرتها زرقة السماء ، واخذ الهواء يلف في رأسها الأجوف ، ولم يكن شيئا سوى أن تنصاع .. أن تستسلم .. وزئير بخرطة « بينيه » لا ينقطع ، وكأنه صوت غاضب يدعوها .. وكان « شارل » يصيح : « يا زوجتي ! .. يا زوجتي ! .. » فامسكت مقيمة ، بينما استطرد « أين أنت ؟ .. تعالى ! » .. وكادت تهوى مغشيا عليها لفرط الذعر ، إذ فطنت إلى أنها أفلتت من الموت .. فاعوضت عينها ، ثم ارتجفت إذ أحست بيد تمس كعبا .. وكانت يد « غيليسيتيه » التي قالت لها : « إن السيد ينتظرك يا سيدتي ، وقد قدم الحساء على المائدة » .. فاضطرت إلى الهبوط ، وإلى الجلوس إلى المائدة !

وحاولت أن تأكل ، ولكن اللقبات كانت تسد حلقها .. ثم بسطت منشفتها كأنها تفحص مواضع البلى فيها ، وودت فعلا أن تنهك في هذا العمل ، فأخذت تحمي خيوط النسيج . وما لبثت ذكرى الخطاب أن عاودتها ، اغتراها اضاعته .. وأين تجده ثانية ؟ .. ولكنها أحست بهبوط وتقاوس ، أقعدها حتى عن أن تنتحل عذرا لتفادر المائدة . وعندئذ غشيتها جبن ، وداخلها خوف من « شارل » . من المؤكد أنه كان يعلم كل

شيء ! .. والواقع أنه قال في لهجة غريبة : « ليس من المحتمل — على ما يظهر — أن نرى السيد رودولف قبل وقت طويل » ، فقالت مرتجفة : « من قال لك هذا ؟ » ، فأجاب في دهشة لرددها السريع : « من قال لي ! .. عجباً ! .. إنه « جيرار » الذي قابلته لتوى عند باب مقهى « فرانسيه » . لقد سافر « رودولف » في رحلة ، أو هو على وشك ! .. » .. وإذ شهقت ، قال : « ما الذي يدهشك في هذا ؟ .. إنه يرحل هكذا من آن إلى آخر ، للترويح عن نفسه ، ولعمرى ، انى لأراه على صواب .. عندما يكون لدى المرء ثروة ، ويكون أعزب ! .. فضلا عن أن صاحبنا يتمتع نفسه ! .. إنه رجل لهو وعيب .. لقد روى لى السيد لانجلوا .. » ، ثم أمسك من قبيل الأدب ، لوجود الخادم التي كانت قد أقبلت وأخذت تعيد المشمش المتناثر على الرف إلى السلة . وطلب « شارل » المشمش — غير منتبه إلى احتقان وجه زوجته — وتناول واحدة فأنشبت فيها أسنانه وقال : « آه ، رائع ! .. تذوقى ! » .. وقرب منها السلة ، فدفعتها في رفق .. وعاد يقول وهو يقرب المشمشة من أنفها عدة مرات : « إذن ، شمى .. يا للعبير ! .. » فوثبت صائحة : « إننى أختنق ! .. » ثم غابت النوبة في جهد وعزيمة ، وقال : « لا شيء .. لا شيء ! .. إنها الأعصاب ! .. ألا اجلس ، وكل .. » فقد خشيت أن يشرع في سؤالها ، وفي العناية بها ، وأن لا تخلو إلى نفسها أبدا !

● وجلس شارل ليرضيها ، ولفظ بذور المشمش في راحتيه ، ليضعها بعد ذلك في طبقه .. وفجأة ، مرت عبر

الميدان عربة زرقاء منطلقة بسرعة ، فندت من «ايما» صرخة ، ثم هوت على الأرض مستلقية على ظهرها ، متبسة الأطراف ، والواقع أن « رودولف » كان قد قرر — بعد تفكير طويل — أن يرحل إلى (روان) ، ولما لم تكن شمة طريق بين (لاهوشيت) و (بوشى) سوى (ايونفيل) ، فقد اضطر إلى أن يجتاز القرية ، فعرفته «ايما» على أضواء مصابيح العربة التى مرقت خلال الفسق كالبرق . واسرع الصيدلى «هوميه» إلى الدار ، حين انبعثت الجلبة فيها ، فادا المائدة قد انقلبت بكل ما عليها من أطباق ، وإذا الصلصة ، واللحم ، والسكاكين ، والملح ، وقتينة الزيت ، قد تناثرت فى أرجاء الغرفة .. و «شارل» يصيح طالباً النجدة ، و «بيرت» تبكى مذعورة ، و «فيليبستيه» — التى كانت يداها ترتعشان — تفك إزار سيدتها التى كان جسها كله يخلج فى تشنج .. وقال الصيدلى : «سأجرى إلى معلى لأحضر بعض خل الورد » .

وإذ فتحت «ايما» عينيها ، حين تنسبت الزجاجاة ، قال : «كنت واقفاً من أن هذا كئيل بأن يوقظ الميت ! » . وقال شارل : «كلهينا .. افيقى .. ها أنذا ، شارل حبيبك .. الذى يحبك ! .. أفعرفتني ؟ .. انظرى ! .. هلاك ابنك الصغيرة ! .. الأقبلها ! » ، وبسطت الطفلة ذراعيها نحو أمها لتتعلق برقبته ، ولكن «ايما» أشاحت عنها ، وقالت فى صوت متهدج : «لا ، لا ، لا أريد أحدا ! » .. وأغمى عليها مرة أخرى ، فنظت إلى سريرها ، حيث ظلت ممددة فارغة القم ، مطبقة الأجفان ، مفتوحة راحتين ، بلا حراك ، وقد أبيض لونها كشمال من الشمع .. وكانت الدموع تجرى من عينيها ،

وتسقط فى بطن على الوسادة .. وكان «شارل» واقفاً فى أقصى المخدع — والصيدلى على مقربة منه — وقد أخذ إلى ذلك الصمت الملىء بالتفكير ، الذى يرتاح إليه المرء فى ظروف الحياة الخطيرة .. وما لبث الصيدلى أن قال وهو يلمس مرفقه : «أطمئن .. اعتقد أن النوبة قد انقضت » . فاجاب «شارل» وهو يراقبها فى نومها : «أجل ، إنها الآن ترتاح قليلا .. يا للمسكينة ! .. مسكينة ! .. لقد استغرقت الآن فى النعاس ! » .

وإذ ذاك تساءل «هوميه» كيف وقع الحادث ، فاجاب «شارل» بأن المرض دهمها فجأة وهى تأكل بعض ثمار المشمش . فقال الصيدلى : «عجيب ! .. ربما كان المشمش سبب الإغواء ، فمن الناس من أوتوا طبيعة حساسة تأثر من بعض الروائح . وهو موضوع ممتع للدرس ، سواء من ناحية علم طبيعة الأمراض ، أو من ناحية طبيعة الأجسام . ولقد عرف الكهنة ما لهذا من أهمية ، فإذا هم يطلقون البخور دائها فى طقوسهم ، وذلك لتخدير الحواس ، ولإحداث الانجذابات الروحية . وهو أمر سهل جداً ، لا سيما مع أفراد الجنس اللطيف ، إذ أنهن أرق من غيرهن . بل يقال إن هناك من يصاب بالاغواء لرائحة الذرة إذ تشوى ، أو لرائحة الخبز الطازج .. » . فقال «بومباري» بصوت خفيض : «حذار ، وإلا ايقظتها ! » .. واستطرد الصيدلى قائلاً : «وليس الأدعيون وحدهم عرضة لمثل هذا الشذوذ ، بل الحيوانات كذلك . وما أظنك تجهل ما لمادة «النبتا كاتاريا» — التى يسميها العامة «حشيش القط» — من مفعول عجيب فى إثارة

الحواس الجنسية لدى حيوانات الفصيلة القلبية . كما ان هناك مثلا تستطيع ان تؤكد صحته « فان « بريدو » — وهو من اصدقائي القدامى — وقد استقر الآن في شارع (مالبانو) — يمتلك كلبا تتنابه التشنجات بمجرد ان تمسك امامه علبه سموط ! وكثيرا ما يجرى هذه التجربة بهشده من اصدقائه في البيت الذي اقامه للاستجمام في غاية جيوم . فهل يصدق احد ان مادة للعطاس كهذه تحدث مثل هذا الضرر بأجهزة جسم حيوان من ذوات الأربع ؟ .. إنه امر غاية في الغرابة .. اليس كذلك ؟ » .

فقال « شارل » الذي لم يكن ينصت إليه : « اجل » .. فاستأنف الآخر حديثه مبسما في شيء من الرضى عن النفس : « هذا يبين لنا ألوان الشذوذ التي لا حصر لها ، في الجهاز العصبي . اما بالنسبة للسيدة — فاعترف انها تبدو لى دائما مرهفة للغاية . ومن ثم فليست ائصبك يا صديقى العزيز بشيء من تلك الأدوية المزعومة التي تؤثر على التركيب الجسمي — تحت زعم التأثير على الاعراض . لا ، لاداعي لأدوية لا نفع لها ! بل يكفى اللجوء إلى تنظيم التغذية ، وهذا غاية ما في الامر ! .. وهناك بعض المسكنات والمليينات ، والمطفات .. ثم . ألا ترى ان من المحتمل ان يكون الوهم مستوليا عليها ؟ » .. فتساءل « بوناري » : « من اية فاحية ؟ » .

— آه ، هذه هي المسألة ! .. هذه هي المشكلة فعلا ! .. كما قرأت أخيرا في الصحيفة ..

● على ان « ايما » لم تثبت ان افانقت صائحة : « الخطاب ! .. الخطاب ! » . وخيل إليهما انها تهذى .. وكان الليل قد انقصف .. ثم ثبت انها أصيبت بحصى مخية .. وظل « شارل » لا يفارقتها ثلاثة وأربعين يوما ، وقد أهمل كل مرضاه ، ولم يعد ينام في فراشه .. كان لا يفك يتحسس نبضها . ويضع اللصقات والمكمدات بالماء البارد . وكان يوفد « جويستان » إلى (نيوشاتل) بحثا عن الطلج ، فكان الثلج يذوب في الطريق — فيوفده من جديد ! .. واستدعى السيد « كاتيهيه » لاستشارته ، وأحضر من (روان) الدكتور « لاريفيير » استاذة القديم .. كان قانطا . وكان اشدهما ازعجه ضعف « ايما » وخورها ، حتى انها كانت لا تتكلم ، ولا تسمع شيئا .. بل كان يلوح انها لا تحس بالألم ! .. وكأنهما كان جسدها وروحها قد أخلدا معا إلى الراحة بعد كل متاعبهما ..

وحوالى منتصف اكتوبر ، أصبح في وسعها ان تجلس في سريرها ، تحوطها الوسائد . وبكى « شارل » حين رآها تأكل أول لقمة من الخبز والمربي . وأخذت قواها تعود إليها ، فاستطاعت أن تبرح سريرها لبضع ساعات بعد ظهر كل يوم . وعندما تصفت ، حاول يوما أن يصحبها لتتمشى في الحديقة معتمدة على ذراعه . وكانت رمال دروب الحديقة قد اختفت تحت أوراق الشجر الجافة .. وسارت « ايما » في بطنه تجر خفيها ، مستندة إلى كتف « شارل » ، وكانت تبتسم طيلة الوقت .. وسارا حتى أقصى الحديقة ، على مقربة من رصفة السور .. وكانت هي تتحامل على نفسها في ثورة ،

وقد اظلمت عينها بيدها لتستطيع أن تبصر . وارسلت بصرها بعيدا ، إلى أبعد ماوسمها ، ولكن ، لم تلمح عند الأفق سوى نيران هائلة تبث دخانها فوق القلال . . النيران التي اوقدت لاجتثاث الأعشاب .

وقال بوفاري : « لسوف تعمين نفسك يا حبيبتي ! » . ودفعها برفق ليحملها على دخول الخيلة ، قائلا : « اجلسي على هذا المقعد ، لتستريحي » . فقالت في صوت واهن : « لا ! لا ! لا ! .. ليس هنا » . وتولاها دوار . وعاولها مرضها منذ تلك الليلة ، بشكل لا تتضح منه حقيقة ، وباعراض غامضة ، غير جليلة ! فهي تالم أحيانا من ظمها ، وأحيانا من صدرها ، ومن رأسها ، ومن أطرافها . . وكانت تنقلبها نوبات قى ، خيل لشارل أنه رأى فيها مبادئ السرطان . . وكان المسكين — علاوة على كل هذا — يعانى الهموم من جراء المسائل المالية !

الفصل الرابع عشر

• كان — أولا — لا يدري كيف يدفع للسيد « هوميه » نفقات كل الأدوية التى امده بها . . ومع أنه — كطبيب — لم يكن ملزما بدفع أثمانها ، إلا أنه كان يخجل من مثل هذا الدين . ثم كانت هناك نفقات بيته ، فان الطاهية حين غدت ربة البيت صارت « فظيعة » فى إسرائفها . . وأخذت كشوف الديون تتدفق على البيت ، وشرع التجار يتذمرون ، بل إن السيد « لوريه » — بوجه خاص ، راح يزعمه . والواقع أنه — فى عفوان مرض «ايما» — استقل الظروف ليزيد من قيمة دينه ، فأسرع باحضار المعطف ، وحقيبة السفر الصغيرة ، وحقيبتين كبيرتين بدلا من واحدة ، وعدة أشياء أخرى ، وكان من السهل على « شارل » أن يقول إنه لا يريد ما ، ولكن التاجر أجاب فى تحرش بأنها طلبت منه ، فلا يستطيع أن يستردها . . فضلا عن أن هذا قد يسوء السيدة فى فترة نقاهتها ، ومن ثم يخلق بالسيد أن يفكر جيدا فى الأمر . ومجمل القول أنه كان مصرا على أن يرفع الأمر إلى القضاء ، حتى لا ينزل عن حقوقه ويسترد السلع . وإزاء هذا أمر « شارل » من ناحيته برد السلع إلى حانوت التاجر . . ولكن « فيليبسيته » نسيت ، وشغل هو بأمور أخرى ، فلم يعد يفكر فى ذلك . وعاد مسيو « لوريه » إلى المطالبة ، مهددا مرة ، ومتباكيا أخرى ، حتى اطلع بهناوراته فى حمل « بوفاري » على توقيع سند تعهد فيه بالدفع فى خلال ستة شهور . على أنه لم يكذب بوقع ، حتى خطرت له فكرة جريئة : تلك هى أن يقترض ألف فرنك من « لوريه » . ومن ثم سأله مخرجا إن كان من الميسور أن

بواغيه بهذا المبلغ ، على ان يعتبر هذا الدين لمدة عام ، وبإية فائدة يريد احتسابها ! فهرع « لوريه » إلى متجره ، وعاد بالمبلغ ، وأمل وثيقة أخرى تعهد فيها « بوفارى » بأن يدفع لأمره في أول سبتمبر التالى ألفا وسبعين فرنكا ، إذا أضيفت إلى المائة والثمانين التى اتفقا عليها من قبل ، غدا المجموع ألفا ومائتين وخمسين . وهكذا ، باحتساب الفائدة بسعر ستة فى المائة ، فضلا عن عمولة بمعدل الربع ، إلى جانب ربح فى السلع يصل إلى الثلث على الأقل ، فان هذه الصفقة كانت كفيلة بأن تدر على التاجر فى اثنتى عشر شهرا ربحا قدره مائة وثلاثين فرنكا . وراوده الأمل فى أن لا تنف المسألة عند هذا الحد ، وأن لا يدفع الدين ، ومن ثم يتجدد ، وهكذا يتغذى المبلغ الهزيل لدى الطبيب — كما لو كان فى مصحة ! — فيعود إليه سميئا ، تتفق لبدانته حافظته !

ومفوق ذلك ، فان كل أموره أخذت تزداد نجاحا ، فقد ناز فى مناقصة توريد شراب التفاح — « السيدر » — لمستشفى (نيوشاتل) ، ووعد السيد « جيومان » ببعض أسهم فى مناجم (جومسفال) ، فأخذ يحلم بإنشاء نظام جديد للمواصلات السريعة بين (أركوى) و (روان) ، لن يلبث أن يقضى ولا شك على العربية المتداعية التابعة لفندق « الأسد الذهبى » . كما أن السفر السريع ، بنفقات زهيدة ، مع إمكان اصطحاب مزيد من المتاع . سيضع فى يديه كل تجارة (ابونفيل) .

● وسال « شارل » نفسه مرات عديدة : انى له ان يدفع مثل هذا المبلغ فى العام المقبل ؟ .. وراح يفكر ، ويتصور

سبلا للعون ، كان يلجأ إلى أبيه ، أو يبيع شيئا .. ولكن أباه كان يصمم أذنيه ، كما أنه لم يكن يملك شيئا يباع .. وكان إذ ذاك يتصور المتاعب المقبلة غيادر إلى إقصاء مثل هذا الموضوع غير المستحب عن ذهنه ، ويلوم نفسه لنسيانه « أينا » كأنها كانت كل أفكاره ملكا لهذه المرأة ، بحيث يكون عدم قصر أفكاره عليها باستمرار ، استلابا لبعض حقوقها ! وكان الشتاء قارسا . ونقاهة مدام بوفارى بطيئة . وكانت — إذا تحسن الجو — تدفع فى مقعدها إلى النافذة المظلة على الميدان ، إذ أصبحت تشعر بنفور نحو الحديقة ، حتى أصبحت المصاريح المظلة عليها مغلقة على الدوام . ورغبت فى أن يباع الجواد .. وأصبح كل ما اعتادت ان تحبه فى الماضى ، يسوؤها الآن ! ولاح كأنها اقتصرت كل أفكارها على العناية بنفسها ، فكانت تمكث فى الفراش ، مقتصرة على تناول وجبات خفيفة ، وتدق الجرس للخدام لتسألها عن شرابها أو لترثر معها . وكان الجليد المتراكم على سقف السوق يعكس على الحجرة ضوءا ناصعا . ساكنا .. ثم بدأ موسم الأمطار ، فكانت « أينا » ترتقب فى غرفتها يوميا — بذهن منعم بالتليف — الأنباء التى لا بد منها عن بعض الأحداث الغامضة التى لا علاقة لها بها ، وكان أهمها وصول « العصفورة » فى المساء ، فكانت ربة الفندق ترفع إذ ذاك عقيرتها بالصياح ، فتدق عليها الأصوات الأخرى .. بينما يومض مصباح « هيبوليت » كالنجمة فى الظلام ، وهو يخرج الصناديق من مؤخرة العربية .. وكان « شارل » يقد عند الظهيرة ، ثم يعود للخروج . وتتناول

هي — عقب ذلك — بعض الحساء .. وحوالي الساعة الخامسة ، يبدأ النهار في الرحيل ، ويعمد الأطفال العائدون من المدرسة — وهم يجرون تعاليم الخشبية على الرصيف — إلى طرق «شناكل» المصاريع ببساطهم ، واحدا بعد الآخر .. تلك كانت الساعة التي اعتاد الأب «بورنيسيان» أن يفد فيها ليرأها ، فيسأل عن صحتها ، ويفضي إليها بالأنباء ، ويرشدها إلى أمور دينها ، في صوت خافت ، رخيم ، لا يخلو من سحر . بل إن مجرد التفكير في مسوحوه ، كان يشيع في نفسها ارتياحا . ولقد حدث ذات يوم — في عنفوان مرضها — أن ظنت أنها تحتضر ، فطلبت أن تتناول القربان المقدس ، وبينما كانت الإجراءات تتخذ في غرقتها لاعدادها للمراسم ، وقد حولت المنضدة الحافلة بأنواع الشراب إلى مذبح ، وأخذ في نثر زهور «الداليا» على الأرض ، شعرت «اينا» بشيء قسوى يمر عليها ، فيستل منها آلامها ، وكل فكر ، وكل حس .. وإذا تخفف جسدها من الفكر ، بدأت حياة أخرى ، فخيل إليها أن كيانها يرقى صاعدا إلى الله ، حيث يتلاشى في ذلك الحب ، كالبخور المحترق إذا ما انصهر وغدا بخارا . ونثر الماء المقدس على الفراش ، وأخرج القس من العلبة المقدسة رقاقة الخبز الرباني الأبيض ، فانتشلت «اينا» بهذه الغبطة السماوية ، حتى أنها مدت شفتيها لتتلقى «جسد المخلص» الذي قدم إليها . وكانت ستائر المخدع تتطاير حولها في رفق كأنها السحب ، والشمعتان المشعلتان على المنضدة تتألقان كأنهما هالتان باهرتان .. وما لبثت أن طوحت براسها إلى الخلف ، متوهمة أنها تسمع في الفضاء انغام الموسيقى الملائكية ..

وفي السماء اللازوردية — على عرش ذهبي وسط قديسين ممسكين بالسعف الأخضر — خيل إليها أنها تلمح ، الله ، الأب ، محوطا بالجلال ، وقد أوقد إلى الأرض — بإشارة منه — ملائكة ذوو أجنحة من لهب ، ليحملوها في أحضانهم صاعدين ..

● واستقرت هذه الرؤيا الرائعة في ذاكرتها كأجل ما يمكن أن يرى في الأحلام ، ومن ثم راحت تجاهد لتستجمع حواسها ، التي ظلت باقية رغم ذلك ، وإن كانت قد فقدت الكثير من طابعها الشخصي ، واكتسبت رقة وعذوبة عيقتين . ووجدت نفسها ، التي عذبها الغرور ، راحة في التواضع المسيحي ، فلما تذوقت لذة الضعف ، رأت انهيار الإرادة في أعماقها ، مما فتح ولا بد طريقا واسعا إلى المسالك المفضية إلى النعم الإلهية والتسامح الرباني .. وفي مكان السعادة ، قامت مباحج اعظم .. حب يفوق كل حب ، لا ينقطع ولا ينتهي ، وإنما يظل في نمو إلى الأبد ! .. وأبصرت وسط رؤى الأمل الخيالية ، حالة من الطهر والنقاء ، تطفو فسوق الأرض ، وتختلط بالساء ، فتأقت إلى أن ترقى إليها .. تمت أن تغدو قديسة .. وابتاعت مسابح ، وحملت الأحرار والتائبين ، ورغبت في أن يوضع في حجرتها — إلى جوار سريرها — صندوق للذخائر القدسية ، مرصع بالياواقيت ، لتقبله في كل ليلة .. وانتشى القس بهذه الروح ، وإن خال أن تدن «اينا» قد تنتهي — لفرط تحمسها — إلى التخطيب بين البدع والمغالاة .. وإذا لم يكن على تفقه كبير بهذه الأمور ، فقد بادر بمجرد تجاوزها حدا معيناً ، بالكتابة إلى السيد «بولار» — بائع كتب

المطران - يسأله أن يوافيه بها « يصلح لسيدة جمة الذكاء » .
وفي غير اكرثات - كما لو كان يرسل سلما لزنوج - حزم
المكتبي كل الكتب الدينية التي كانت مقروءة إذ ذاك ، دون
تميز . . ماذا هي بعض الكتب الموجزة لتعليم الدين عن
طريق الأسئلة والإجابات ، وبعض النشرات التي كتبت
بأسلوب متهم على طريقة « مسيو دي ميستر » ، وبعض
روايات ذات أغلفة وردية ، وأسلوب معسول ، من وضع
رجال الاكليروس الشعراء الفرسان ، أو الثائين ذوي
الجوارب الزرقاء . . فكان بينها : « فكر في هذا جيدا » ،
و « رجل الدنيا عند قدمي مريم ، بقلم السيد . . . » ، مزيئا لبعض
الدرجات الكهنوتية » ، و « اغلاط فولتير ، ليفيد منها الشباب »
. الخ . ولم يكن ذهن مدام بوفاري قد صفا إلى الدرجة التي
تجعلها تعكف جادة على أى شيء ، فضلا عن أنها بدأت قراءة
هذه الكتب في عجلة لا تسمح باستيعابها . . فسرعان
ما ضايقها فقه أصول الدين ، وساءتها حدة المؤلفات الجدلية ،
لإمعانها في مهاجمة اناس لم تكن تعرف عنهم شيئا . . أما
القصص الدينية الموضوعة لأغراض دينية ، فقد لاح لها
أن تأليفها قام على جبل بالدنيا ، حتى أنها جعلتها تنفر من
الحقائق التي وضعت لإثباتها ! . . ولكنها - مع ذلك -
واظبت على القراءة . . وكانت - إذا أنزلت الكتاب من يدها -
تنوهم نفسها وقد تملكها أرق الوان الأسى الكاثوليكي التي
يمكن أن تصل إليها روح متسامية . .

● أما عن ذكرى « رودولف » فقد طوحت بها إلى قاع

قلبها ، فظلت هناك أكثر جللا وجمودا من مؤمياء ملك في مقبرة
اثرية ! . . كان يتصاعد من هذا الغرام المحنط عبر يتخلل كل
شيء ، ويعيق بالحنان ذلك الجو القدسي الذي كانت تصبو
إلى أن تعيش فيه . وكانت إذا ركعت في مركبها الذي صنع
على الطراز القوطي ، وجهت إلى الرب عين الكلمات الوالهة
التي كانت تتمم بها فيها مضى إلى حبيبها ، في غوارت مجونها
. . كانت تفعل ذلك لتجذب الايمان ، ولكن شيئا من المباح
لم يكن يهبط عليها من السماء ، فكانت تنهض وقد أضنى
الركوع اطرافها ، وتولاها شعور غامض بأنها مغبونة إلى
درجة هائلة . . وكانت ترى أن هذا السعى وراء الايمان ليس
سوى فضيلة واحدة من الفضائل ، فأخذت في عنفوان زهوها
بولائها وتقواها ، تقارن نفسها بأولئك السيدات الجليلات
اللاني عشن في الماضي البعيد ، واللاني كانت تحلم بمجدهن
إذا ما رأت لوحة من لوحات « لافالير » ، واللاني كن يجرن
أفياهن الموشاة بالدانتيل ، في جلال عارم ، وهن ياوين إلى
خلاتهن ليرتن على قدمي المسيح دموع قلوبهن التي جرحتها
الحياة !

وتحولت بعد ذلك تكرر نفسها لعمل الخير على نطاق
واسع . فكانت تخطط الثياب للفقراء ، وترسل الوقود للنسوة
اللاني في المخاض . ووجد « شارل » - عند عودته إلى البيت
ذات يوم - ثلاثة من الافاقين جالسين إلى المائدة في المطبخ
يتناولون الحساء . وأمرت باستعادة ابنتها - التي كان زوجها
قد أرسلها ثانية إلى المريية إبان مرضها - إذ رغبت في أن
تعلمها القراءة . ولم تعد تضيق بكثرة بكاء « بيرت » ، لقد

ولم تلتفت نفسها على التسامح والرحمة الشاملين . وأصبح حديثها عن كل شيء مليئا بالمصطلحات المثالية ، فكانت إذا سألت أبنيتها عن حالها ، قالت : « هل فارتك المفضل . . يا ملاكى ؟ » . ولم تعد مدام بوفارى الأم تجد ما تنتقده اللهم سوى ذلك الانصراف التهورى إلى نسج السعرات للقيام بدلا من أن ترتق بياضات منزلها . . ولكن النزاع العائلى كان قد أضنى العجوز الطيبة ، فراق لها هذا البيت الهادى ، حتى لقد مكثت إلى ما بعد عيد الفصح ، فرارا من مخزبات « بوفارى » المسن الذى لم يتخل قط في يوم الجمعة اليتيمة عن طلب سجع من أمعاء الخزير !

● وإلى جانب محبة حمايتها ، التى قوت من عزيمتها بعض الشيء بصواب آرائها ، ورزانة أساليبها ، أصبحت « ايمى » تستقبل كثيرا من الزائرات في كل يوم تقريبا ، وكانت من هؤلاء مدام لانجلوا ، ومدام كارون ، ومدام دوبروى ، ومدام توفاش . . وفيما بين الساعة الثانية والساعة الخامسة من بعد الظهر — بانتظام — كانت تستقبل مدام « هوميه » الفاضلة ، التى لم تصدق قط — من ناحيتها — شيئا من النيمية التى كانت تقال عن جاريتها ! وكان أبناء « هوميه » يأتون أيضا لزيارتها ، يصحبهم « جوستان » ، فكان يصعد معهم حتى مخدعها ، ويظل واقفا بجوار الباب ، لا يحير حراكا ، ولا ينبس ببنت شفة ، حتى لقد كانت مدام بوفارى كثيرا ما تشرع في زينتها ، غير عابئة به . وكانت تبدأ بتناول مشطها ، فتعز شعرها بهركة سريعة . وعندما رأى للمرة

الأولى كل ذلك الشعر الفزير الذى انسدل إلى ركبتيهما في خصلات سوداء ، خيل للفتى المسكين أنه وقف فجأة على شيء جديد ، غريب ، أرهبه بهأوه !

ولا شك في أن « ايمى » لم تكن تلاحظ اهتمامه بالصامت ، ولا تهيبه الخجول ، فما خطر ببالها أن الحب الذى تلاشى من حياتها كان قائما ينبض إلى جوارها ، تحت القميص الخشن ، في ذلك القلب المراهق الذى تفتح على غير جمالها . . ثم أنها أصبحت تلف كل شيء بغلالة من عدم الاكتراث ، غفدت لها تعبيرات رقيقة متلطفة ، تصحبها نظرات متكبرة مرفعة ، وأساليب متناقضة من هذا القبيل ، تجعل المرء عاجزا عن أن يميز فيها بين الأنانية والخير ، وبين الفساد والتقوى . فتى ذات مساء — مثلا — غضبت من الخادم التى طلبت الإذن بالخروج ، وتلعثمت حين همت بأن تتدخل عذرا . . وفجأة ، سألها « ايمى » : « إذن فأنت تحبينه ؟ » . . واستطردت دون أن تنتظر ردا من « فيليسييتيه » — التى تخرج وجهها حياء : « هيا . . أجرى . . معنى نفسك ! » .

وأمرت — في مطلع الربيع — بأن تغلب أرض الحديقة من أولها لآخرها ، رغم معارضة « بوفارى » . . على أنه اغتبط — مع ذلك — إذ رآها أخيرا تبسدى رغبة ، أيا كانت هذه الرغبة ! وأخذت كلما ازدادت قوة ، تبسدى مزيدا من العناد والصلابة . . فبدأت بانتهاز فرصة لطرد الأم « روليه » — المربية — التى كانت خلال نفاستها قد اعتادت الاكثار من التردد على المطبخ مع الرضيعين والصغار الذين في حضانتها ، والذين أوتوا أسنانا تفوق أسنان أكلة البشر ! . ثم تخلصت

من زيارات أسرة « هوميه » ، وسرحت الزائرات الأخريات تباعا ، بل وغدت أقل مثابرة على التردد على الكنيسة ، مما تحمس الصيدلى لتحبيذه ، فقال لها فى لهجة ودية : « لقد كنت موشكة أن ترتدى المسوح ! » .. على أن الأب « بورنيسيان » ظل يتردد عليها يوميا — كعادته من قبل — بعد أن يفرغ من تلقين الدين لتلاميذه الصغار . وكان يؤثر البقاء خارج جدران البيت ، ليستنشق الهواء فى « البستان » كما كان يسمى الخميلة .. وكان هذا موعد عودة « شارل » إلى البيت . وحين كانا يشعران بالحر ، كان يؤتى بشراب التفاح الخفيف ، ويشربان معا نخب اكتمال شفاء السيدة .. وكان « بينيه » يحضر هذه الجلسات .. او بالأحرى ، كان يصيد السمك ، على مسافة بسيطة من سياج الحديقة ، فيدعوه « بوفارى » إلى كأس .. وكان خبرا بفض سدادات الثعنيات المصنوعة من الفخار ، فيقول وهو يلقي نظرة راضية على كل ما حوله ، إلى آخر أطراف المنظر : « يجب أن تملك الزجاجاة فى وضع راسى على المنضدة ، وبعد أن تقطع الخيوط ، اضغط السدادة إلى أعلى ، فى دفعات بسيطة ، فى رفق ، وشينا غشيا ، كما يفعلون فى المطاعم لفض سدادات زجاجات المياه المعدنية » .

● لكن شراب التفاح كثيرا ما كان يندفع — خلال هذا الشرح — متناثرا على وجوههم ، فلم تكن النكتة تقوت رجل الدين قط ، بل كان يقول وهو يطلق ضحكة غليظة : « أن جودته تقفز إلى البصر ! » .. كان رجلا طيبا ، فلم يستنكر ما نصح به الصيدلى شارل — ذات يوم — من أن يتبع

لزوجته شيئا من الترويح يسليها ، بأن يصحبها إلى المسرح فى (روان) ليستمعا المغنى الشهير « لاجاردى » ، ودهش « هوميه » لصمت القس ، فأراد أن يعرف رايه ، وإذ ذلك صرح القس بأنه يرى الموسيقى أقل خطرا على الأخلاق من الأدب .. غير أن الصيدلى انبرى يدافع عن الأدب ، فقال : إن المسرح يعمل على محاربة الخرافات والأباطيل . وأنه يدعى إلى الفضيلة من تحت ستار اللهو . ومضى يقول : « إنه يقوم العادات عن طريق الضحك يا سيد بورنيسيان ! .. الأناهل الدور الجليل الذى لعبته مسرحيات « فولتير » .. لقد رصعت بالأفكار الفلسفية ببراعة ، مما جعلها مدرسة يتلقى عنها الشعب الأخلاق والديبلوماسية » .

فقال « بينيه » : لقد شهدت مرة مسرحية كان اسمها « فتى باريس » ، ترى فيها شخصية ضابط كبير منسن ، يضرب ضربا مبرحا ، إذ يتشاجر مع شاب مدلل أغوى عاملة ، أقدمت فى النهاية .. » ، فقاطعة « هوميه » مواصلا حديثه : « من المؤكد أن ثمة أدبا سينا ، كما أن هناك صيدلة سيئة ، ولكنى أرى أن اتهام أهم الفنون الجميلة — فى مجموعته — بالاعتساد ، بلاهة .. تعصب أعشى يليق بذلك العمر البغيض الذى قضى فيه على « جباليلو » بالسجن ! » .. فقال القس معارضا : « إننى أعرف تماما أن هناك مؤلفات طيبة ، ومؤلفين طيبين ، ولكن .. لو أن الأمر اقتصر على تلك الشخصيات من الجنسين المختلفين ، تجتمع فى غرفة فاتنة ، مزينة بأسباب الترف الدنيوية ، وتلك الأصوات الناعمة .. فان كل هذا لابد أن يؤدي على طول الزمن إلى شيء من الفجور الذهنى ،

ويشير أفكارا بعيدة عن الحشمة ، وإغراءات غير طاهرة .. هذه ، على أية حال ، فكرة رجال الدين جميعا » . ثم أردف وقد اتخذ نفاة لهجة رجل الدين ، وهو ينساق على أبهامه قبضة من السعوط : « وأخيرا ، إذا كانت الكنيسة تستنكر المسرح ، فلابد أن لديها ما يبرر ذلك ، وعليها أن نرضخ لأوامرها » .. فتساءل الصيدلى : « ولماذا تقضى الكنيسة على الممثلين بالحرمان .. في حين أنهم كانوا فيما مضى يساهمون جهرا في الطقوس الدينية ؟ .. أجل كانوا يمثلون ويقدمون في قلب المحراب أنواعا من التهريج أسموها أسراراً ، وكانت قوانين الحشمة والحياء كثيرا ما تنتهك فيها ! » .. واكتفى رجل الكنيسة بأن بعث أنثى خافتا ، بينهما مضى الصيدلى يقول : « كذلك الحال في التوراة ، فهناك .. كما تعلم .. أكثر من رواية شائكة ، عن أشياء .. في الواقع .. خبيثة ! » .. وإذ صدرت من الأب « بورنيسيان » حركة منفعلة ، قال : « آه ! .. إنك ولابد تقر بأنه كتاب ينبغى أن لا يوضع بين يدي فتاة صغيرة .. ولسوف يغضبني أن « اتالى » .. » فصاح الآخر وقد نفذ صبره : « ولكن البروتستانت — لا نحن — هم الذين يفرضون التوراة » . فقال « هومييه » : « هذا لا يهم .. إننى لأدهش إذ أرى في أيماننا هذه ، في عصر النور ، من لا يزال يصر على أن يلعب — دون تبصر — وسيلة من وسائل الترويح الذهني ، لا ضرر منها ، وإنما هي خلقية ، بل وصحية أحيانا .. اليس كذلك يا دكتور ؟ » .. فاجاب الطبيب في غير اكتراث — إما لأنه كان يعتقد الرأي ذاته ولم يشأ أن يغضب احدا ، أو لأنه لم

يكن على رأي ما البتة : « بلا شك ! » .. ولاح أن النقاش أوشك أن ينتهى ، عندما راق للصيدلى أن يطلق سهما آخر من جعبته ، فقال : « اننى لأعرف مساوسة يرتدون الشيايب العادية ، ليسعوا إلى رؤية الرافصات وهن يحركن سيقانهن ! » .. فقال القس : « كفى ، كفى ! » .. فمضاد « هومييه » يكرر : « أجل عرفت بعضهم ! » ، ثم ردد العيارة ، ففرقا كلماتها : « عرفت .. بعضهم ! » .. فقال « بورنيسيان » ، موطنا نفسه على أن يسمع أسوا ما في الأمر : « فليكن .. لقد كانوا على خطأ ! » .. وصاح الصيدلى : « لعمري .. إنهم لياتون ما هو أكثر من هذا ! » ، فاجاب رجل الكنيسة : « سيدي ! » ، وتبدى في عينيه غضب أرهب الصيدلى ، فقال في لهجة أقل قسوة : « إنما قصدت أن أقول إن التسامح هو أضمن الطرق لاجتذاب الناس إلى الدين » .. فاجاب الرجل الصالح : « هذا حق ! .. هذا حق ! » .. وعاد يجلس في مقعده ، ولكنه لم يمكث سوى لحظات قلائل ..

وما إن أنصرف ، حتى قال السيد هومييه للطبيب : « هذا ما يسمى صراع الديكة ! .. لقد مرغته في الهزيمة ، كما رايت ! .. على أية حال ، صدقنى واصطحب السيدة إلى المسرح ، ولو لتغيط مرة في حياتك واحدا من هؤلاء الغريبان المفاكيد ! .. لو اننى وجدت من يقوم بعملى ، لصحبتهما بنفسى ! .. ولا تضيعا الوقت ، فإن « لاجاردى » لن يقيم سوى عرض واحد ، لأنه متعاقد في إنجلترا لقاء اتعاب ضخمة .. إنه — على ما يؤكدون — يطير إلى حيث يكون المال ! ..

إنه ليمتدح في الذهب ! .. ولسوف يصحب معه ثلاث عشيقات وطاهية ! .. إن هؤلاء الفنانين الكبار جميعا يوقدون الشمعة من طرفيها ، فهم يسمعون إلى حياة داعرة تتمشى بعض الشيء مع خيالهم ، حتى إذا خان أجلمهم ، ماتوا في المستشفيات ، لأنهم لم يؤثروا من العقل في شبابهم ما يوحى إليهم بالادخار والاقتصاد ! .. والآن ، طاب عشاؤك ، وإلى الغد ! » .

● أخذت فكرة المسرح تخترع سريعا في رأس «بوفارى» ، نبادر بتلقاها إلى زوجته ، التي رفضت في البداية ، متملة بالتعب والخور والنفقات .. ولكن « شارل » — على غير عادته — لم يترجع . فقد قدر أن هذا النوع من الترفيه سيكون عظيم النفع ، ولم ير ما يحول دونه ، إذ كانت أمه قد أرسلت لهما ثلاثمائة فرنك لم يكن شديد الحاجة إليها بعد أن قلت ديونه الجارية ، كما أن موعد استحقاق سندی « لوريه » كان بعيدا بحيث لا تدعو الحاجة إلى التفكير فيها في الوقت الراهن . هذا فضلا عن أنه توهم أن « ايما » كانت ترفض من قبيل المجاملة أو الإشفاق ، فازداد إصرارا ، حتى انتهت إلى أن لا خلاص من إلحاحه إلا بالقبول .. من ثم رحلا في الساعة الثامنة من اليوم التالي ، مستقلين « العصفورة » ، وتنهسد الصيقل إلى إذ رآهما يتحركان ، فما كان ليبقيه في (ايونفيل) سوى شعوره بأن ليس في وسعه أن يفرحزح عنها .. وقال لهما : « هيا .. رحلة طيبة أيها السيدان ! » .. ثم خاطب « ايما » — التي كانت ترتدي ثوبا من الحرير الأزرق ذا أربع ثنيات — قائلا : « أنك لتبدين في جمال آلهة الجبال ، وما احسبك إلا مستبهرين روان ! » .

ونزلا في فندق « الصليب الأحمر » ببيدان (بوفوازان) . وكان ككل فنادق الريف ، ذا حظائر كبيرة ، ومخادع صغيرة ، وترسح الدواجن في غنائه ملتقطة الحب من تحت حواف عربات التجار التجولين ، الملطخة بالوحل .. كان بيتا عتيقا ، ينخر السوس شرفاته التي كانت تبعث صريرا إذا ما هبت الريح في ليالي الشتاء .. وكان يحفل دائما بالناس والضجة ، والأكلين .. وكانت مواثد الفندق السوداء ملطخة ببقع القهوة والخمر ، وقد استحال لون زجاج نوافذه السميك إلى الصفرة من اثر الذباب ، وتندت المناشف التي يقدمها لنزلاته بالنبيذ الرخيص ، نفاحت منها روائح الريف ، وبدت كهلبس أهل المدن التي يرتديها عمال الزراعة في أيام الأحاد ! .. كما كان به مقهى يطل على الشارع ، والحققت به — من ناحية الحقول — حديقة زرعت بالخضر . وبادر « شارل » لقوه إلى المسرح ، ليحجز مقعدين ، فراح يخطط بين المقاعد الامامية ومقاعد « الدالة » ، وبين « البلكون » و « الألواج » واستفسر فلم يفهم ، وأحيل من نافذة الحجز إلى مدير المسرح ، ثم عاد إلى الفندق ، ورجع ثانية إلى المسرح ! .. وهكذا اجتاز البلدة بطولها عدة مرات ، من المسرح إلى الميدان .. أما زوجته ، فابتاعت قبعة وقفازين وبلاقة ورد ، وكان السبد في خوف شديد من أن تفوتهما بداية العرض ، فلم يضيعا وقتا في احتساء قدح من الحساء .. وكانت النتيجة أن وصلا إلى ابواب المسرح وهي ما زالت بعد مغلقة !

الفصل الخامس عشر

• كان الناس يستندون إلى جدران المسرح في الانتظار ، وقد اصطفوا بين السياجين القائمين عند المدخل .. وعند نواصى الشوارع المجاورة كانت لوحات الإعلان الضخمة تحمل بحروف ملقوية زخرفية : «لوسى دى لامرور .. لأجاردى .. أوبرا .. الخ » .. وكان الجو بديما ، ولكن الناس ما لبثوا أن شعروا بالحر ، فأخذ العرق يسيل بين غدائر شعور النساء ، وظهرت المناديل من جيوب الرجال لتجفف الجباه المحمرة . وكانت تهب من النهر بين آن وآخر نسمة حارة ، فتهمز في رفق اللافتات المعلقة عند أبواب الحانات .. ومع ذلك ، وعلى مسافة بسيطة ، كان المرء يجد تيارا باردا ينعشه ، مبعقا بروائح الشحم والجلد والزيت .. روائح شارع « ديه شاريت » المليء بالحوانيت السوداء الكبيرة ، حيث تصنع البراميل ..

وخشيت « اياها » أن يثير وقوفهما الضحك ، فرغبت في أن تتمشى في الميناء ، قبل دخول المسرح . ولكنهما ما لبثا أن ولجا المسرح ، فأخذ قلب «اياها» يخفق بمجرد أن بلغا البهو . وابتنست في زهو - على الرغم منها - إذ رأت الجمهور يتدافع يمينا خلال ردهة أخرى ، بينما كانت تصعد درجات السلم إلى مقعديهما المحجوزين . وابتهجت في غبطة الطفل وهى تتحسس بأصابعها الباب المبطن بالسجاد ، واستنشقت بكل قوتها العبير الممزج بالبخار المتصاعد من الردهات ، حتى إذا جلست

في مقصورتها ، مالت إلى الأمام في بساطة كما لو كانت إحدى الدوقات ! .. وأخذ المسرح يملأ ، وأخرجت منظارات الأوبرا المقربة من حافظاتها ، وأخذ أصحاب المقصورات المحجوزة طوال الموسم يتبادلون النظرات والتحيات .. لقد جاءوا يتشددون في الفنون الجميلة ترويحاً ، بعد مشاغل « البورصة » ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينسوا العمل ، فظلوا يتحدثون عن الأقطان ، أو الخمر ، أو النيلة (المادة التى تستخدم في الصباغة) . وكانت وجوه الكهول ترى خالدة من أى تعبير ، تعلوها سكتة مطمئنة ، وقد بدوا بشعورهم الفضية وبشراهم كالأيقونات ، أو الميداليات الفضية التى تعرضت لبخار القصدير ! .. وكان الشبان المتأنقون يجوسون خلال « الصالة » ، يعرضون - خلال فتحات صداريهم - ربطات العنق الوردية ، أو تلك التى فى لون التفاح الأخضر .. وكانت مدام « بوفارى » تتبعهم فى إعجاب - من عل - وهم يتكئون على عصيهم ذات المقابض الذهبية التى تبرز خلال أيديهم المكسوة بالقفازات الصفراء ..

وما لبثت مصابيح مقصورة الفرقة الموسيقية أن اضيئت ، وكانت إحدى الثريات تتدلى من السقف ، ناشرة بتألق جوانبها بهجة مفاجئة على المسرح .. ثم أقبل الموسيقيون واحدا بعد آخر .. وسمع فى البداية ضجيج النفثات الغليظة من « الكمنجات » الكبيرة ، ثم الأنغام الرفيعة من « الكمنجات » العادية ، ودوى الأبواق ، وصغير الناي والمزمار .. على أنه لم تلبث أن انبعت على منصة المسرح ثلاث دقات ، فأرسلت الطبول دقات متتابعة ،



وشعرت « إيمّا » بنفسها ترند إلى ما كانت تقرا في
صباها .. إلى غمار قصص « وولتر سكوت » ..

وصدّرت بعض الحان من الآلات النحاسية .. ثم رفعت الستار ،
فكشفت عن منظر ريفي : ملتقى طسرق في غابة ، ونافورة
— إلى اليسار — تظللها شجرة بلوط ، وفلاحين ، وسادة تعلو
اكتافهم اثرطة ، ويرددون معا إحدى أغنيات الصيد . ثم ظهر
نجاة قائد رفع يديه إلى السماء ، يستعين بروح الشر ..
وما لبث أن ظهر شخص آخر ، فانصرفا معا ، وعاد
الصيدون من جديد !

● وشعرت « إيمّا » بنفسها ترند إلى ما كانت تقرا في
صباها .. إلى غمار قصص « وولتر سكوت » .. وخيل إليها
أنها تسمع خلال الضباب أنغام موسيقى القرب الاسكتلندية ،
تتردد فوق المرج . ثم ساعدها تفكر الرواية على أن تفهم
ما كان يجري على المسرح ، فراحت تتبّع القصة عبارة بعد
عبارة ، بينما بددت الموسيقى في الحال الأفكار المبهمة التي
روادتها .. وأطلقت نفسها مع الألحان الرخيصة ، فخيّل
إليها أن كيائها يتذبذب ، كما لو كانت أقواس « الكمنجات »
تجري على أعصابها ! .. ولم تكن عينها تسعفانها لتحيط
بكل الأزياء ، والمناظر والممثلين ، والأشجار المرسومة التي
كانت تهتز إذا اقترب منها أحد ، والقلنسوات المخفية ،
والأوشحة ، والسيوف .. وكل تلك الأشياء الخيالية التي
راحت تطفو مع الأنغام المنسجمة وكأنها تحلق في جو عالم
آخر . وما لبثت أن ظهرت امرأة شابة ، وهي تلقى كيسا
إلى فارس في زى أخضر ، ثم بقيت وحيدة ، وسمع الناي
يرسل أنغاما كخزير النافورة ، أو تغريد العصافير .. وعزفت

« لوسى » على قيثارتها نغما عاليا ، واخذت تشكو الهوى ، وتتوق إلى جناحين .. وتمنت « ايماء » بدورها أن تتطلق كذلك طائفة ! .. وفجأة ظهر « ادجار لاجاردى » .. كان على شيء من ذلك الشحوب البديع الذى يخلع رواء المرمز على أبناء الجنوب النشيطين . وكان صدره البادى الفتوة يحتويه صدىرى بحكم الالتفاف ، ذو لون بنى ، وقد تدلى على فخذه اليسر خنجر صغير ذو نصل عريض . وراح يجول بنظراته فيها حوله وهو يتقسم ، كاشفا عن أسنان بيضاء .. كان يقال أن اميرة بولندية سمعته ذات ليلة يغنى على شاطئ بياريتز ، حيث كان يصلح القوارب ، فتدلته في هواه ، وانسدت حياتها على نفسها من أجله .. ثم هجرها هو من أجل نساء أخريات ! .. ولم تؤد هذه السمعة العاطفية إلا إلى إنكاء شهرته الفنية ، حتى لقد اعتاد هذا الماجن الواسع الحيلة أن يدس دائما في اعلاناته بعض عبارات شاعرية عن فتنة شخصه ، وإبرهاف عواطفه .. كان من هذا الدجال الرائع نتاج صوت عذب ، وهذوء رصين ، ووليد مزاج أكثر منه ذكاء ، وإلقاء أكثر منه غناء .. وقد خلقت له هذه الصفات طبيعة فائقة ، يشوبها شيء من طبايع الحلاق ومصارع الثيران !

ومنذ الفصل الأول الهب المشاعر ، إذ ضم « لوسى » بين ذراعيه ، ثم ألقها .. وبدا قانطا .. وانتابته غورات من الغضب .. وراح يصدر آهات خزينة لا حد لعذوبتها .. وكانت الأتنام المناسبة من حلقة زاهرة بالنهضة والقبلات .. ومالت « ايماء » إلى الأمام لتراه ، وهى تتشبث — بأظفارها —

بالمخيل الذى يكسو المقصورة .. كانت تملأ فؤادها بهذا الغناء الحزين الذى صحبتته أنغام من الكمان الكبيرة . بدت كأنها صرخت غريق فى عنفوان الأنواء ! .. وتذكرت كل النشوة وكل الشجن اللذين كادا يقتلانها .. ولاح لها أن صوت الممثلة الأولى لم يكن سوى أصداء نفسها ، وأن هذا التمثيل الذى اشجأها لم يكن إلا قطعة من صميم حياتها .. ولكن أحدا فى الدنيا لم يولها مثل هذا الحب .. لم يبك كما بكى « ادجار » — الممثل الأول — فى الليلة المقمرة الأخيرة ، وهو يودع حبيبته ! .. واهتزت أرجاء المسرح بالهتاف ، فاعيد المشهد من جديد .. وراح العاشقان يتحدثان عن الزهور التى يتيمينان أن تظلل قبرهما ، وعن العهد . والبعاد . والقدرة ، والآمال .. حتى إذا تبادلا الوداع الأخير ، ثدت من « ايماء » صرخة حادة ، ضاعت فى ضجيج الأنغام الأخيرة ، فتساءل بوفارى : « عجباً .. هل ظلها ذلك السيد ؟ » .. فأجابت ايماء : « لا ، لا .. إنه حبيبها ! » .

— ولكنه يقسم أن ينتقم من أسرتها ، فى حين أن السيد الآخر الذى ظهر قبله كان يقول : « إننى أحب لوسى .. وهى تحبني ! » .. كما أنه خرج متابطا ذراع ابيها .. إذ لابد أن ذاك الرجل الضئيل الجسم ، القبيح الوجه ، والذى يضع ريشة فى قبعته ، هو أبوها ؟

وعلى الرغم من ايضاحات ايماء لموضوع المسرحية ، فإن شارل لم يكد يرى خاتم الخطبة الزائف الذى أعد لخداع « لوسى » — عندما راح « جليير » يقرح لمولاه « اشتون »

بناوراته الخبيثة — حتى ظن انه هدية غرامية ارسلها « ادجار » .. بل لقد صرح — فوق ذلك — بانه لم يفهم القصة لأن الموسيقى كانت تطفئ على الكلام كثيرا .. فقالت « اينا » : « وما قيمة هذا ؟ .. الزم الصمت ! » فقال وهو بهيل على كتفها : « انا أحب ان أفهم ما يجرى كما تعلمين » . فصاحت في ضيق : « اسكت ! .. اسكت ! » .

وتقدمت « لوسى » ، تكاد وصيغاتها يحلنها ، وفي شعرها إكليل من زهور البرتقال ، وقد كاد شحوبها يغلب على بياض ثوبها الحريري .. وتذكرت اينا يوم زفافها ، وتمثلت نفسها ثانية في قريتها ، بين حقول القمح التى كانت تحف بالطريق الذى ساروا فيه إلى الكنيسة . آه ، لم لم تقاوم وتتوسل كهذه المرأة ؟ .. لقد كانت — على العكس — مغتبطة ، لا تبصر الهوة التى كانت تلقى بنفسها فيها . آه ! .. لو انها استطاعت في نضارة شبابها — قبل أدران الزواج ، وقبل أن تتبدد الآمال التى عقدتها على علاقتها الفاسقة برودولف — أن تقيم حياتها على قلب كبير قوى ، لامتزجت الفضيلة ، والفجور ، والحنان ، والواجب ، في حياتها ، ولما هوت من مثل هذه الهناء الرفيعة !

على أن هذه الهناء ولابد أكذوبة موهومة لكبح كل شهوة . لقد أصبحت تدرك مدى ضالة العواطف التى يبالغ الفن في تصويرها . ومن ثم أخذت تواجه لتتحول عن افكارها ، وقد قررت ألا ترى في هذا التمثيل — الذى يصور لها اشجانها — أكثر من إنتاج تصويرى يتمتع الأبصار ..

حتى انها لم تلبث أن ابتسمت في رثاء مترفع حين رأت ، تحت الستائر المخملية في مؤخرة المسرح ، رجلا في معطف أسود ، سرعان ما سقطت قبعته الأسبانية العريضة الحواف بحركة من يده . وفي الحال ، انطلقت الانغام العالية من الآلات الموسيقية ومن المغنين ، فاستشاط « ادجار » غضبا ، ورفع مقرته بالغناء ، فطفئ صوته الجهورى على الجميع .. فانبرى له « اشتون » بعبارات مثيرة ، قاتلة .. وأرسلت « لوسى » ضراعتها بصوت صارخ .. وكان « آرثر » يؤدي دوره — على حدة — بصوت متوسط الجرس ، بينما انسأب صوت القس خفيضا كأنه الأرغن ، فكانت أصوات النساء تردد كلماته في غناء جماعى بهيج ..

كانوا جميعا في شجار ، وقد اختلطت اشاراتهم ، بينما كان الغضب ، والانتقام ، والغيرة ، والفزع ، والذهول ، تنبعث جميعا في وقت واحد من أفواههم المفتوحة .. وراح العاشق يلوح بسيفه المشهر ، وزوائد « الدانتيل » التى توشى قميصه تهتز مع تهدج صدره ، وقد أخذ يسير من اليمين إلى اليسار بخطى واسعة ، وهو يدق الأرض بهمازين قضيين ثبنا إلى حذاءيه الرقيقين .. وخيل لايما أن معين الحب لديه لا ينضب ، والا ما راح يغدق منه على الجمهور بهتل هذه الطلاقة ! .. وتورات الأخطاء التافهة التى كانت تحصيها عليه في روعة التمثيل التى استولت على لبها . وأخذت تشعر بأن سحر شخصية ذلك الرجل يجذبها إليه .. وحاولت أن تصور لنفسها حياته .. تلك الحياة الدوية ، العجيبة ،

الرائعة ، التى كان من الممكن أن تكون حياتها هى ، لو أن القدر شاء فجعلها يتعارفان ، ويحب كل منهما الآخر .. أنها إذ ذاك كانت تطوف معه بكل ممالك أوربا ، منتقلة من عاصمة إلى عاصمة ، تشاطره التعب والمجد ، وتلتقط الزهور التى تلقى عليه ، وتوشى بأشغال أبرتها ثيابه .. وتلوذ — فى كل ليلة — بأحدى المقصورات ، تعب فى نهم انطلاقات روحه التى تتبطل فى أغان يشدو بها لها وحدها ، ويتطلع إليها وحدها ، وهو يؤدي دوره على المسرح !! .. وما لبثت أن تملكها فكرة جنونية أوحى إليها بأنه يتطلع إليها بالفعل .. بالتأكد .. وتأقت إلى أن تجرى إلى أحضانه ، وأن تاوى إلى قوته الفتية ، وكان الحب قد تجسد فى شخصه .. وأن تقول له ، بل تصيح فيه : « خذنى بعيدا ! .. أحملنى معك ! لنرحل ! .. أنت ، أنت ، كل وجدى وكل أحلامى ! » .. وفى ذلك الوقت اسدلت الستار !

● واختلط عبير غاز الاستمباح بالأنفاس ، ولم تزد المراوح الجو إلا ثقلا خائفا ، فرغبت «ايما» فى الخروج ، ولكن الناس كانوا يملأون الردهات ، فتخالكت فى مقعدها الوثير ، وراحت أنفاسها تتعثر فى حلقتها حتى كادت تختنقها . وخشى « شارل » أن يغيب عليها ، فجرى إلى المقصف ليحضر لها كوبا من ماء الشعير .. ووجد عناء شديدا فى العودة إلى مقعده ، إذ كان مرغقا يصدمان فى كل خطوة بسبب الكوب الذى كان يحملها ، حتى أنه سكب ثلاثة أرباعه على منكبيه سيّدة من (روان) كانت ترتدى ثوبا قصير الكمين ، فما إن أحسست

بالسائل البارد يجرى إلى ردفها ، حتى أخذت تصرخ كالطاووس ، كما لو كانت تنبح ! .. واندفع زوجها — وكان من أصحاب مصانع النسيج — إلى صاحبنا المرتبك ، وبينها كانت تسبح البقع عن ثوبها الأنيق المصنوع من نسيج من «التافتاد» فى لون « الكريز » ، راح يتحدث مغضبا عن الخسارة ، والنفقات ، والتعويض . وبلغ « شارل » مكان زوجته أخيرا ، فقال وهو يلهث : « لعمري ! .. لقد خيل إلى اننى ساقطل هناك ! .. بالخلق .. بالحشد .. ثم أردف قائلا : « أحسنى .. من قابلات هناك ! .. السيد ليون ! » ، فهتفت : « ليون ! » .. قال : « بالذات ! .. أنه آت ليقدّم تحياته ! » . وما إن أتم كلماته ، حتى ولج المقصورة ، الشاب الذى كان من قبل كاتباً فى (أبونفيل) ، فبسط يده بطريقة السيد المهذب الراقى ، وبسطت مدام « بوفارى » يدها فى حركة آلية ، منصاعة لجاذبية ارادة قوية بلا شك .. لم تكن قد مست يده منذ تلك الليلة من ليالى الربيع ، التى سقط فيها المطر على أوراق الشجر الخضراء ، وهما يتبادلان تحية الوداع لدى النافذة . على أنها ما لبثت أن تذكرت مقتضيات الموقف ، فدلرحت عنها عبء الذكريات فى جهد ، وأخذت تتبتم متلعثمة ، متعجلة ، ببضغ كلمات : « آه ! .. طاب يومك ! .. عجباً ! .. أنت هنا ؟ » .. وتصاعدت من « الصالة » أصوات تصيح : « صمتاً ! » ، إذ كان الفصل الثالث قد بدأ ..

— أذن ، فانتما فى روان ؟

— أجل .. — ومنذ متى ؟

واخذ الناس يتطلعون نحوهم .. وصاحت أصوات :

« أخرجوهم ! أخرجوهم ! » ، فلابوا بالصمت .. بيد ان « إيما » لم تعد تسمع شيئا منذ تلك اللحظة .. كانت أغاني المدعوين لحفلة الزفاف (في الرواية) ، والمشهد الذى جرى بين « اشتون » وخاديه ، والمشهد الفنائى الكبير .. كل هذه كانت بعيدة عن سمعها ، وكأنها كانت الآلات الموسيقية تزداد خفوتا ، والممثلون يزدادون نايًا .. وتذكرت لعب الورق في دار الصيدلى ، والسعى إلى دار المرضعة ، والقراء في الخميلة ، والأحاديث الخافتة إلى جوار المدفأة .. كل هذا الحب البائس ، بما كان يتصف به من هدوء ، وتردد طال أمده ، وتعقل وتكنم ، ورقة وحنان .. ومع ذلك فقد نسيت .. ولماذا عاد الشاب ؟ .. أية ظروف جمعت لتعيده إلى حياتها ؟ .. وكان هو يقف خلفها ، مستندا بكتفه إلى جدار المقصورة ، فأخذت تحس — بين آن وآخر — برجفة تحت الأنفاس الحارة التى تنساب من أنفه إلى شعرها .. وانحنى مقتربا منها ، حتى مست ذؤابة شاربه خدها ، وسأله : « أو يروق لك هذا ؟ » .. فأجابته في غير اكتراث : « آه يا الهى ! .. لا ! .. لا يروق كثيرا ! » .. وإذ ذاك اقترح أن يخرجوا من المسرح ، وأن يذهبوا إلى أى مكان غيتناولوا بعض المثلجات ، فقال « بوفارى » : « لا .. لم يحن الوقت .. غلنمك ! .. ان شعرها غير منسق .. ان هذا الفصل يوحي بالمأساة ! »

على أن الفصل « الحافل » لم يلذ لايها على الاطلاق ، ولاح لها تمثيل المطربة مليشا بالمغالة ، فقالت وهى تلفت إلى « شارل » الذى كان منصرفا للأصفاء : « انها تصرخ بصوت

مرتفع » ، فأجاب وهو موزع بين رضائه عن التمثيل وبين احترامه لراى زوجته : « أجل .. بعض الشيء ! » .. وما لبث « ليون » ان قال وهو يزفر : « أن الحر .. » ، فأكلمت « إيما » عبارته : « لا يطاق ، حقا ! » .. فسأله بوفارى : « هل تضايقت ؟ » .. أجابت : « أجل ، إننى اختنق .. لننصرف ! »

وطرح السيد « ليون » على كنفها — برفق — الشال الطويل المصنوع من « الدانتيل » ، وخرج ثلاثتهم ليجلسوا في هواء الميناء المطلق ، خارج الواجهة الزجاجية لأحد المقاهى .. وتحدثوا في البداية عن مرض « إيما » ، وإن راحت هى تقطع على « شارل » الحديث من آن لآخر ، خثسية أن يثقل على السيد « ليون » . وقال لهما هذا أنه جاء ليقضى عامين في (روان) ، في مكتب كبير ليحظى بهمان متين ، تاهبا لممارسة مهنته ، نظرا لأن القضايا في (نورماندى) كانت تختلف عما يدرس في باريس .. ثم سأل « ليون » مدام بوفارى عن « بيرت » ، وآل « هوييه » ، والأم « لوغرانسوا » .. وما لبث الحديث أن توقف ، إذ لم يعد لديهما مزيد من الكلام الذى يستطيعان أن يتبادلاه في حضور الزوج ! .. ومر على الرصيف بعض من كانوا في المسرح ، وهم يترنمون في خفوت ، أو بأعلى أصواتهم باغنية : « آواه ياملاكى الجميل .. يا حبيبتي لوسى ! .. » .. إذ ذاك تحول « ليون » إلى الحديث عن الموسيقى ليوحى بانه يهواها .. كان قد رأى « تامبورينى » ، و« روبينى » ، و« برسيانى » ، و« جريسي » ، وقال إن « لا جاردى » رغم تالقه لا يقارن بهم .. فقاطعه « شارل » — الذى كان يرشف شرابه في بطة — قائلا : « ومع ذلك ، يقال انه في الفصل الأخير

اروع ما يكون . إبنى لأسف إذ انصرفت قبل النهاية ، لأن التمثيل كان قد بدا لىذلى . . فقال الكاتب : « أطمئن ، فلسوف يقيم حفلة أخرى قريبا . . ولكن « شارل » قال إنها راجعان فى غدهما ، ثم استدرك متلفتا إلى زوجته : « اللهم إلا إذا شئت أن تبقى وحدك يا قطيقتى ! » .

وبادر الشاب إلى تغيير أساليبه ازاء هذه الفرصة غير المرتقبة التى تتفق مع آماله ، ومن ثم أخذ يسهب فى إطراد دور « لاجاردى » فى الفصل الأخير ، قائلا إنه خارق ، راق . . وإذا ذاك راح شارل يلح : « تستطيعين أن تعودى يوم الأحد . . هيا ، بئى فى الأمر . . إذا شعرت أن هذا يروق لك فمن الخطأ أن تترددى . . وكانت الموائد حولهما قد بدأت تخلو ، وأقبل ساق ، فوقف بالقرب منهم متخرجاً . وبادر « شارل » — الذى أدرك سر وقوفه — فأخرج كيس نقوده ، ولكن الكاتب رد ذراعه . . ولم ينس أن يترك قطعتين من العملة الفضية — رنا على الرخام — فوق الحساب . . فقال « بوفارى » : « إبنى سناء حقاً ، لهذه النقود التى . . فأشار الآخر بسكته فى ود ، وتناول قبعته قائلا : « اتفقتنا . . اليس كذلك ؟ . . سنطلقى فى السادسة من مساء غد ! » . . واعتذر « شارل » مرة أخرى — عن نفسه — بأنه لا يستطيع أن يطيل غيابيه ، ولكن لا شئ يمنع « ايما » . . فقالت متلثمة ، وهى تبتسم ابتسامة غريبة : « ولكنى لست متأكدة . . »

— لا بأس ! . . يجب أن تفكرى فى الأمر ! . . سوف نرى ما يكون ، فالليل جلاب للآراء !

ثم خاطب « ليون » الذى كان يسير معها قائلاً : « ايما وقد أصبحت فى منطقتنا ، فأمل أن تأتى لتتناول معنا العشاء بين وقت وآخر . . فأكد الكاتب أنه لن يتوانى عن ذلك ، لا سيما وأنه مضطر إلى الذهاب إلى (ايونفيسل) ليعرض مهام المكتب الذى يتدرب فيه . ثم افترقوا عند مهر « سان هربلان » ، وساعة الكاندرائية تدق معلنة منتصف الحادية عشرة .

- ٣ -

الفصل الأول

● كان السيد « ليون » - خلال دراسة القانون - قد أكثر من غشيان مرقص الطلبة المسمى « لاثومبير » ، حيث قدر له أن يظفر بنجاح كبير بين الفتيات اللاتي رابن في مظهره ما يميزه عن سواه . . كان الطف الطلبة مسلكا ، وكان يقص شعره بحيث لا يدعه يسرفا في الطول ، ولا شديد القص . ولم يكن ينفق كل مصروفه في اليوم الأول من الشهر ، كما كان على علاقات طيبة بأساتذته . أما عن التطرف في نزواته ، فهذا ما كان يحجم عنه دائما ، جينا منه وترفعا ، في آن واحد . . وكثيرا ما كان يمكث في غرفته للقراءة . . كما كان كثيرا ما يترك كتاب القانون بهوى إلى الأرض - وهو جالس في بعض الامسيات تحت أشجار الزيزفون في حدائق لوكسمبورج - حين تعاوده ذكرى « ايما » ! . . على أن هذا الشعور لم يلبث أن تضاعف ، وأخذت تعدو عليه شهوات أخرى ، وإن ظل يتأرجح فوقها . . فان « ليون » لم يفقد كل أمل ، بل ظل لديه في الواقع رجاء مبهم يطفو على صفحة المستقبل ، كثرة ذهبية تتدلى من شجرة خيالية ! . . فلما رآها بعد غياب ثلاث سنوات ، عاد وجده

يستيقظ . وخطر له أن يعمل - أخيرا - على أن ينالها ، لا سيما وأن حيائه كان قد انجاب نتيجة اتصاله بزملائه المرحين ، فعاد إلى الريف وهو يستصغر كل من لا يطأ أرض الشوارع بحذابين لامعين !

وما كان ثمة شك في أن الكاتب المسكين كان يرتجف كالطفل ، لو أتيح له أن يجلس إلى جوار امرأة باريسية انيقة ، في حجرة الجلوس بمنزل طبيب لامع أوتى أوسمة ، وأوتى عربة . . أما هناك ، في (روان) ، وعند الميناء ، وأمام زوجة طبيب صغير ، فقد شعر بأنه عزيز الجانب ، وتكاد مقدما من أن نجبه لامع . . فان الثقة بالنفس تتوقف على الوسط الذي يوجد فيه المرء . . ونحن لا نتكلم في الطباق الأول بعين اللهجة التي نتكلم بها في الطباق الرابع . . والمرأة الفنية ، تبدو وكأن أوراقتها المالية تحوطها لتصون عفتها !

وعندما غادره « بوفارى » وزوجته ، اقتنى خطاها عن كتب خلال الطرقات ، حتى إذا رآها يلجان فندق « الصليب الأحمر » تكمن على عقبه ، وقضى الليل يفكر في خطته . فلما كان اليوم التالي ، نفذ في نحو الساعة الخامسة إلى مطبخ الفندق ، وقد شحبت صدغاه ، وأحس بأنه يختنق ، وإن تملكه ذلك العزم الذي يواتي الانذال الذين لا يتورعون عن شيء ! . . وأجابه الخادم ، إذ سأله : « إن السيد غير موجود » . . ورأى

في هذا غالا طيبا ، فصعد السلم . . ولم تنزعج «ايما» لمقدمه ، بل إنها - على العكس- اعتذرت لكونهما غفلا عن إنبائه بالمكان الذى نزلا فيه ، فقال : « آه . . لقد حدثته بالتخمين ! » . . وزعم انه اهتمدى إليها بالخط ، بالفريزة . . وبدأت تبتسم ، فبادر - لإصلاح زلته - إلى إنبائها بأنه قضى النهار يطسوف بفنادق البلدة جميعا - واحدا إثر الآخر - سائلا عنها . واستطرد قائلا : « هل قررت البقاء ؟ » . . قالت « أجل » ، واتى لخطئته في ذلك . فما ينبغى للمرء أن يمنح نفسه متعا مستحيلة ، عندما يكون وراءه ألف مطلب وعمل . . .

— آه . . إفتنى ادرك . .

— آه ! . . لا ، لأنك رجل . .

. . لكن للرجال - هم الآخرون - هوهم . . واتجه الحديث بهما نحو بعض الأفكار الفلسفية . وراحت «ايما» تسهب في الحديث عن يؤس المواطف الذنبوية ، والعزلة الأبدية التى يظل الفؤاد دفيناً فيها . ويدافع من الرغبة في الظاهر ، أو لمجرد مسابرة هذا الأسى الذى أثار أساءه ، ذكر الشاب انه كان يعانى ساءا فظيما طيلة دراسته . . فكان القانون يثقل على نفسه ، وكانت ثمة بهن أخرى تجتذبه ، وكانت أمه لا تكف عن مضايقته في كل خطاب . وفي سياق حديثها ، أخذ كل منهما يزداد إفصاحا عن بواعث أساءه . ويضمنها هذا الاعتراف المطرد . على أنهما كانا في بعض الأحيان يمسكان ، إذ يوشكان أن يكشفوا في جلاء تام عن أفكارهما ، ثم يسميان مع ذلك إلى ابتكار عبارة تترجم تلك الأفكار . . ولم

تعترف «ايما» بأنها تملقت بسواه ، ولا قال «ليسون» إنه نسيها ! . . ولعله لم يعد يذكر عشاءه مع الفتيات بعد حفلات الرقص التنكرية . . كما انها لم تعد تذكر - بلا ريب - تلك اللقاءات الماضية ، حين كانت تجرى عبر الحقول في الصباح إلى بيت عشيقها . وكان ضجيج البلدة لا يكاد يصل إليها ، ولاحت الغرفة صغيرة ، وكان صفرها كان متعمدا ليقرب بين عزليتهما . . وكانت «ايما» في ثوب من البفنة ، وقد طوحت برأسها إلى مسند مقعد وثير عتيق ، ورسم ورق الحائط الأصفر إطارا ذهبيا خلفها ، وانعكست صورة رأسها العارى على المرأة ، وقد بدا مفرق شعرها أبيض ، وبرزت حافتا أذنيها خلال ثنايا شعرها . .

وما لبثت أن قطعت المسبب قائلة : « ولكن معذرة . . من الخطأ أن أثقل عليك بشكاياتى الإبدية » . . فقال ! « لا ، أبدا . . أبدا » . . قالت وهي ترفع عينيها الجميلتين إلى السقف وقد تفرقت فيهما دمة : « لو علمت كل ماكنت أحلم به ! » .

— وأنا ! . . واوه . . أنا الآخر تعذبت ! . . كثيرا ماكنت أخرج ، فاذهب بعيدا ، وأجر نفسي على طول ضفة النهر ، واهيم في ضجيج الناس ، دون أن أقوى على دفع العبء الذى يجثم على صدرى . . وفي حانوت حضار أختام في الطريق ، عثرت على رسم إيطالى لإحدى الحوريات ، متشحة بقلالة ، وقد راحت تتطلع إلى القمر ، والزهور تتخلل شعرها المسترسل . . وكانت ثمة قوة خفية تدفعنى إلى هناك باستمرار ، حيث أقضى ساعات طوالا . .

ثم أردف بصوت مرتجف : « كانت تشبهك قليلا » ..
 ناشاحت مدام « بونارى » بوجهها حتى لا يرى الابتسامة التى
 أحسبت بها تقفز إلى شفتيها دون أن تقوى لها دفعا ..
 واستطرد يقول : « وكثيرا ما كنت أكتب رسائل لا اليك ان
 أزعجها » .. ولم تجب ، فواصل الحديث : « وكنت أخال أحيانا
 ان المصادفات قد تسوقك ، فكنت أتوهم اننى المحك عند
 منعطفات الطرق ، وكنت أجرى وراء كل العربات التى المح
 خلال نوافذها شالا أو قناعا يشبهان ما لديك ! » .. وبدأ انها
 تنوى أن تدعه يتكلم دون أن تقاطعه ، إذ عقدت ذراعيها ،
 ونكست رأسها ، وراحت تتأمل نقوش خفيها ، وتحرك أصابع
 قدميها داخلهما ، بين وقت وآخر .. وأخيرا ، تهتدت قائلة :
 « ولكن الأدعى للأسى ، هو أن تحمل عبء حياة لا جدوى منها ،
 كما افعل .. ليس كذلك ؟ لو أن آلامنا كانت تعود بالنفع على
 أحد ، لوجدنا عزاء في فكرة التضحية » .. فانطلق يطنب في
 امتداح الفضيلة ، والواجب ، والتضحية الصامتة ، قائلا : إنه
 يشعر برغبة جامحة للتضحية بالنفس ، لا يدري كيف يشبعها !

وقالت ايماء : « لكم اتوق إلى أن اكسون ممرضة في
 مستشفى ! » ، فقال : « وا أسفاه ! ليس للرجال شيء من هذه
 المهام ذات القداسة ، فليست أرى لها شبيها في مهنة .. اللهم
 الا مهنة الطب » .. فقطعت « ايماء » عليه حديثه بهزة خفيفة
 من كنفها ، وتحولت تتحدث عن مرضها الذى أوشتك أن يقضى
 عليها .. وليته فعل ، فانها ما كانت لتعانى ما تعانى الآن من
 آلام .. وبادر « ليون » يحسد القبر لهدونه وسكينته ، قائلا :

إنه كتب ذات ليلة وصيته ، طالبا أن يكن في تلك السجادة
 البديعة ذات الخطوط المخملية التى تلقاها منها مرة ! .. وهكذا
 كانا يتمنيان أن تسير الأمور : كل منهما يقيم من نفسه مثلا أعلى
 يحاول به إعادة تشكيل ماضيه ليتسق مع هذا المثل ! .. فضلا
 عن أن الحديث — كحجر المسن — يشحذ الشعور ! .. على
 أن « ايماء » لم تنهك ان سألت عندها سمعت قرية السجادة :
 « ولماذا ؟ » ، فقال في تردد : « لماذا ؟ .. لأننى .. لأننى
 أحبك ! » .. وغبط نفسه إذ اجتاز العقبة ، وراح يرقب وجهها
 بنظرة مختلطة من ركن عينه .. كان وجهها كالسماء التى
 دفعت نسمة من ريح بعض السحب عن صفحاتها .. فاذا ركام
 الأفكار الحزينة الذى كان يرين على عينيها قد انجاب ، وإذا
 وجهها بأسره يشرق ! .. وظل « ليون » يرتقب .. وأخيرا ،
 قالت : « كنت دائما أحدث هذا » !

ثم أخذوا يستعرضان كل الأحداث الفارقة التى اكتنفت تلك
 الحياة الماضية ، التى أجلا أفرانها وأشجانها في كلمة واحدة
 .. تذكرنا « تكسية » نبات « الداليا » الشوكى ، والياباب التى
 كانت ترتديها ، وأثاث حجرتها ، والبيت بأسره .

— وشجيرات الصبار المسكنة ، أين هى ؟

— قتلها البرد في هذا الشتاء .

— آه ، اتعرفين اننى كثيرا ما فكرت فيها ! .. كنت

كثيرا ما أتأملها كهدهدى بها في الماضى ، حين كانت الشمس في
 صباح أيام الصيف تطرق مصراعى نافذتك .. وكنت أرى في
 الخيال ذراعيك العاريتين تنتقلان بين الزهور ..

نهدت يدها إليه هاتفة : « يا صديقي المسكين ! » ..
ففضط « ليون » شفتيه إلى يدها برفق .. وبعد أن ملأ صدره
بعبيرها ، قال : « كنت لى إذ ذاك قسوة غامضة — لم أدرك
كنهها — استولت على حياتى . فمثلا ، ذهبت مرة كى أراك
.. ولكذك ولا ريب لا تذكرين هذه المناسبة » .. قالت : « بل
انكرها .. قل ! » .

— كنت فى الحجره الصغيره بالطابق الارضى ، تستعدين
للخروج ، وقد اتخذت كل اهبة .. فكنت تضمين قبعه ذات
زهور زرقاء صغيره .. وعلى الرغم من نفسى ، ودون دعوة
منك ، خرجت معك .. على اننى فى كل لحظه كنت ازداد
شعورا بطيشى ، فظللت أسير ، لا أجروء على ان اتبعك ، ولا
استطيع ان افارئك .. واذا ولجت حانوتا ، وقفت فى الشارع
انتظرك ، وأنا أراك خلال النافذه تخلعين قمازيك ، وتعددين
النقود على منضده البائع .. ثم دققت جرس بيت مدمام
« توفاش » ، فدعيت للدخول ، بينما ظللت انا واقفا كالغبي
امام الباب الكبير الضخم الذى افلق خلفك !

● دهشت مدمام « بونفاري » إذ خيل إليها ، وهى تنصت
ان أحداث الماضى — حين بعثت فى ذاكرتها — راحت توسع من
نطاق حياتها ، وتضاعفه .. كأنها كانت ترد إلى فيض عاطفى
تدفقت به هذه الأشياء .. وكانت بين آن وآخر تقول بصوت
خافت ، وقد اطبقت جفניה فى نصف إغماضه : « أجل ، هذا

صحيح .. حقا .. حقا ! » .. وسمعت الساعات المختلفة فى
حى (بونوازان) — الحافل بالمدارس والكنائس والقصور
الكبرى الخالية — تدق معلنة الثامنة . وكفا عن الكلام ، ولكنها
أحسا — وكل منهما يرمى الآخر — أن ثمة دويا فى راسيهما ،
كأنها كان يتبعث من عينى كل منهما شيء ذو رنين .. وكانت
يد كل منهما فى يد الآخر ، وقد اختلط الماضى بالمستقبل ،
والفكرات بالأحلام ، فى عذوبة هذه الغيوبة العاطفية ..
واخذ الليل يزحف على الجدران اننى ظلت ألوانها الثقيلة تبدو
فى أربع صور متواريه فى الظلام ، وتمثل أربعة مناظر من
(تور دول) ، وتحته كلمات بالاسبانية والفرنسية .. وخلال
الجزء العلوى من النافذه ، بدت رقعة من السماء المعتمة ، بين
السقوف المديبة ..

ونهضت ايما فواقدت شمعتين على صوان الملابس ، ثم
عادت إلى الجلوس ، فهتف ليون : « وبعد ؟ ! » .. فرددت :
« وبعد ؟ ! » .. وكان يفكر فى وسيلة لاستئناف ما انقطع من
الحديث ، حين سألته : « كيف حدث أن إنسانا ما لم يبيع لى حتى
اليوم بمثل هذه المشاعر ؟ ! » .. فقال الكاتب : إن النفوس
ذات الفطرة المثالية تستعصى على الإدراك .. فهو قد أحبها منذ
اللحظة الأولى ، وكان يشعر بالفتور كلما فكر فى السعادة التى
كان من الممكن أن ينعم بها ، لو أن الحظ قادها إلى الالتقاء قبل
ذلك فارتبطا بارتباط لا انفصام له . فقالت : « أنا الأخرى
خطر لى هذا » .. فغمغم : « يا له من حلم ! » .. واخذ يلمس

بأصبعه — فى رفق — الحافة الزرقاء المحيطة بحزامها الأبيض،
ثم أرفف : « وما الذى يحول دون أن نبداً من جديد ؟ » ..
فاجابت : « لا يا صديقى ، إننى الآن كبيرة السن ، وأنت فى
بكورة الشباب .. ألا اتسنى ! لسوف تحبك أخريات ، وسوف
تحبين ! » .. فصاح : « لن أحبهن كما أحبك ! » ..

— يا لك من طفل ! .. فلنتعقل ! .. هذه رغبتى !

وبينت له استحالة غرامهما ، وإنهما يجب أن يظلا على
ما كانا عليه من قبل .. مجرد صداقة أخوية .. أفكانت فى هذا
جادة ؟ .. لا شك فى أن « ايبا » ذاتها لم تكن تدرى ، وهى
مستغرقة فى سحر الإغراء ، شاعرة بضرورة الدفاع عن نفسها
إزاءه .. ورمقت الشاب بنظرة اشفاق وتأثر ، وهى تصد
المحاولات الخجلى التى بذلتها يداها المرتعشتان لتطويقها ..
لهفت وهو يتراجع : « آه ! .. أغفري لى ! » ..

واستولى على « ايبا » خوف مبهم من هذا الحياء ، الذى
بدا لها أخطر من جراحة « رودولف » حين كان يسمى إليها
باسطا ذراعيه .. قط ما لاح لها رجل فى مثل جمال هذا الشاب
الخجول الذى أسيل أهدابه الطويلة الناعمة التى كانت
أطرافها تنثنى إلى أعلى .. وخطر لها أن تورد بشرة خده
الناعمة ، كان بتأثير اشتهاه لها ، فأحسبت بشوق جارف لأن
تلتصق بها شفيتها .. وما لبثت أن مالت نحو الساعة ، كأنها
تتمرف الوقت ، وقالت : « لكم تأخر الوقت ! .. يا إلهى : كم
الهانا الحديث ! » .. ونهم إيمارها ، فتناول قبعته .. بينما

استطردت : « بل انتى نسيت التمثيل ! .. مع أن بوفسارى
المسكين خلفنى هنا خصيصا لذلك ! .. إن السيد « لومرو » —
من شارع (جران بون) — لن يلبث أن يفد ليقتلنى مع زوجته
إلى المسرح » .. وهكذا كان مقدرا للفرصة أن تضع ، إذ أنها
كانت راحلة فى اليوم التالى .. فهتف ليون : « حقا ؟ » ..
قالت : « أجل » .. فقال : « ولكنى يجب أن أراك مرة أخرى ..
إذ أريد أن أنبك .. » ..

— بماذا ؟

— بأمر .. هام ، جدى .. آه ، لا ! .. ما أراك راحلة ،
لا يمكن ! .. لو عرفت .. ألا انصتى لى .. إنك لم تفهمينى
إننى ؟ .. إنك لم تحدسى إننى ..

قالت ايبا : « مع أنك تكلمت فى وضوح » ..

— آه ! .. اتزحجن ! .. كفى ، كفى ! .. بحق الرحمة
دعبنى أراك ثانية .. مرة واحدة .. واحدة !

قالت : « حسنا .. » ، ولكنها أمسكت ، ثم أرففت وكأنها
فكرت فى الأمر : « آه ! .. ليس هنا ! .. فتساءل :
« وأين تحبين ؟ » .. فقالت : « أحب .. » ، وبدا عليها
التفكير ، ثم قالت فى إيجاز : « غدا » ، فى الساعة الحادية
عشرة ، فى الكاتدرائية .. فصاح متشبها بيديها وهى تحاول
التخلص : « ساوأفك هناك ! .. » .. وإذ كانا واقفين — هو
خلفها ، وهى منكسة الرأس — فقد انحنى على عنقها ، وطبع
قبلة طويلة على قفاها ، فقالت فى ضحكات قصار ، بينما
تضاعفت قبلاته : « ولكن هذا طيش منك ! آه ! إنك أحرق ! »

.. وأطل برأسه فوق كتفها، كما لو كان يريد أن يقرأ في عينيها انصياعها، فإذا عيناها ترمقانه في كبرياء باردة! .. وتراجع ليتصرف .. ثم توقف لدى الباب، وهمس في صوت متهدج: « إلى غد! » .. فاجابت بهزة من رأسها، وأسمرت كالطائر تختفي في الحجرة الداخلية ..

● كتبت « ايما » في ذلك المساء خطابا طويلا للكاتب، تحملت فيه من الموعد .. إذ انتهى كل شيء، ولا يجب — من أجل سعادتهما — أن يلتقيا مرة أخرى .. ولكنها لم تكذ تفرغ من الخطاب حتى تولتها حيرة، لأنها لم تكن تعرف عنوان « ليون »، ولكنها قالت: « سأسلمه إياه بنفسى، فهو لا يد آت ».

وفي الصباح التالي، أخذ « ليون » ينظف خذائيه بنفسه، مسبغا عليهما عدة طبقات من الطلاء، وقد فتح نافذة غرفته، وأخذ يهمهم باغنية خافتة .. وارتدى بنطلونا أبيض، وجوربين رقيقين، وسترة خضراء وأفرغ كل ما كان يمتلك من عطور في منديله، ثم سعى إلى الصلاق فطلب أن ينسق شعره في تجاعيد، وعاد فطلب بسطها ليكتسب الشعر رواء طبعيا! .. ونظر إلى ساعة الحلاق التي كانت تشير إلى التاسعة، وقال لنفسه: « لا يزال الوقت جد مبكر » .. ومن ثم تصفح جريدة قديمة للأزياء، وخرج فدخل سيجارا، وذرع ثلاثة شوارع، ثم خطر له أن الوقت قد حان، فسار على مهل إلى فناء « نوتردام » .. وكان الصباح بديعا، من أيام الصيف، والحلى الفضية تتألق في وجهات محال المصوغات، والضوء يسقط على

الكاتدرائية بانحراف، فيضئ على أركان الأحجار السمراء بريقا، وسرب من الطيور يحوم في السماء الزرقاء حول أبراج الأجراس ذات اللون الأخضر، والمكان يمجج بالأصوات، ويتضوع بشذى الأزهار التي كانت تحف بأرصفته، من ورود، وباسمين، وزهر الخشخاش، ونرجس، وسوسن، وقد نبتت على مسافات غير متساوية بين الفعناع البرى، والشيع .. وكانت النافورات في الوسط تبعث خريرا، وتحت مظلات واسعة — وسط البطيخ الذي تراكم في أكوام — راحت بائعات الزهور يلففن الورق حول حزم البنفسج وهن عاريات الرؤوس .. وابتاع الشاب حزمة .. كانت أول مرة يبتاع فيها زهورا لامراة، فانتفخ صدره زهوا وهو يتنسمها، وكان هذا التكريم الذي قصد به غيره، قد ارتد إليه!

على أنه كان في خوف من أن يراه أحد، فولج الكنيسة .. وكان الحارس السويسرى يقف إذ ذاك على العتبة، في منتصف الباب الأيسر، تحت تمثال « ماريان الراقص » — وقد بدا في قلنسوته ذات الريش، وسيفه المتدلى حتى عرقوبيه، أكثر جلالا من أى كردينال، وأشد لمعانا من علبة الأسرار المقدسة — وتقدم صوب « ليون » وقال وهو يبتسم ابتسامة التلقى الحميد التي يصنعها رجال الدين حين يستجوبون الأطفال: « لا شك أن السيد ليس من هنا؟ .. أفيجب السيد أن يرى تحف الكنيسة؟ » .. فقال الآخر: « لا! » .. وجلس في البداية خلال الردهة الخارجية، ثم خرج ليلقى نظرة على الميدان، ولكن « ايما » لم تكن وصلت بعد، ومن ثم دخل ثانية وسار حتى الحراب ..

وكانت صورة صحن الكنيسة منعكسة على أحواض

التمعبد المترعة ، وقد ظهرت مقدمة الأقواس ، وبعض أجزاء من النوافذ الزجاجية . ولكن صور اللوحات الزيتية كانت تتكسر على حافة الرخام ، لتستقيم بعد ذلك على البلاط ، فتبدو كبساط متعدد الألوان . وكان ضوء النهار الساطع ينساب إلى داخل الكنيسة في ثلاثة خطوط ضخمة ، خلال ثلاث كوات مفتوحة . ومن وقت لآخر ، كان أحد خدم الكنيسة يمر في الطرف الأقصى ، فيركع عند المذبح في انحراف ، كما يفعل الاتقياء المتعجلون ! .. وكانت الثريات البلورية تتدلى ساكنة ، وفي المحراب كان ثمة مصباح فضي مشتعل . وفي بعض الأحيان ، كانت تنبعث من المهرات الجانبية والبقاع المعمدة اصوات كأنها التفهيدات ، يصحبها صوت ارتطام نافذة تغلق ، فيتردد الصدى متموجا تحت القبة الفخمة ، وسار « ليون » بخطى وريفة في محاذاة الجدران . . ابدأ لم تبد له الحياة أطيب مما كانت إذ ذاك . . إن « ايما » لن تلبث أن تأتي ، فائتة ، منفعلة ، تتلفت خلفها إلى الابصار التي تتبعها ، وقد ارتدت ثوبها ذا الزوائد الهنفاة ، ونظارتها الذهبية ، وحذاءيها الرفيعين ، وكل مستلزمات الأناقة التي لم يستمتع بها ابدأ من قبل ، تحف بهما ما للجنة المستسلمة من غواية فائتة . . والكنيسة كمخدع هائل يحيطها ! والاقبية تحنى وكأنها تنصت - في الظلام - إلى اعتراف حبها ، والنوافذ تسمح للضوء بالانسحاب لينير وجهها ، والبخور يتصاعد ، وهي تبدو كالملاك وسط الدخان الذكي الشدي !

ولكنها لم تأت . . فجلس على مقعد ، ووقعت عيناه على نافذة ذات زجاج أزرق يمثل ملاحين يحملون سلالا . . وأطال تأملها في تمنع ، وأخذ يحمي زعائف الأسماك ، وعدد العرى في

الصداري ، بينما كانت افكاره تطلق نحو « ايما » . . وكان الحارس - الذي وقف جانبا - حائقا في نفسه على هذا الشخص الذي اباح لنفسه ان يتأمل محاسن الكاندرائية بنفسه . . كان يبدو له أنه يفرض نفسه ظلما ، وأنه يسلبه بعض ما هو حق له . . بل ينتهك حرمة مكان العبادة ! .. على أن « ليون » ما لبث ان انتبه إلى حيف حرير على البلاط ، وحافة قبة ، ومعطف . . كانت هي ! .. ونهض جازيا ليلقاها . . ماذا هي شاحبة ، تسير بسرعة . . وقالت وهي تبسط له ورقة : « اقرأ . . اواه ، لا ! » .. وسحب يدها في عجلة ، لتلج مصلى العذراء ، حيث ركعت وشرعت تصلى . . وأحسن الشاب بانفعال لهذه النزوة المتدنية . . وعلى أنه لم يلبث ان شعر بشيء من الفتنة وهو يراها تغرق في العبادة - خلال موعد غرامي - كهركيزة اندلسية ! .. ثم بدا يضجر ، إذ بدا له انها لن تفرغ !

● أخذت « ايما » تصلى - أو بالأحرى تحاول جاهدة ان تصلى - أملا في أن تهبط عليها من السماء عزيمة مفاجئة ! .. ولكن تستمد العون الإلهي ، ملأت عينها حتى أغرقتهما ببهاء المحراب ، وملأت صدرها بشذى الزهور المفتحة التي كانت في الأواني الكبيرة ، واصفقت إلى سكون الكنيسة الذي جعل لغط قلبها يبدو أكثر جلاء لاذنيها . . ثم نهضت . وفيها كانا بهمان بالاتصاف أقبل الحارس وقال في عجلة : « إن السيدة ليست من هنا ولا شك . هل تحبين يا سيدتي أن تتفرجى على تحف الكنيسة ؟ » .. غفال الكاتب : « آه ، لا ! » .. قالت

وهي تثبت بعفتها المتداعية ، وبالعذراء ، والنمائل ،
والأضرحة .. وإي شيء : « ولم لا ؟ » .. ولكي يتفرجا
- حسب الأصول المرمية - قادهما الحارس إلى المدخل القريب
من الميدان ، حيث أشار بعصاه إلى دائرة من الأحجار السوداء
لا تعلوها كتابة ولا نقوش ، وقال في جلال : « هذا محيط جرس
» امبرواز « البديع .. إنه وزن أربعين ألف رطل ، ولم يكن له
صنو في أوربا كلها .. ولقد مات الرجل الذي نحته غرما ... » .

وهنا قال ليون : « لننصرف ! » .. ولكن الحارس عاد
بهما إلى مقصورة العذراء ، وبسط ذراعيه بحركة تهليلية
فاخرة ، وهو أكثر زهوا من أحد أعيان الريف إذ يمرض ثيراته ،
وقال : « هذا الحجر يغطى » ببير دوبريزيه « ، سيد (فارن)
و (بريساك) ، والمارشال الأكبر لبواتو ، وحاكم نورماندى ،
الذى مات في معركة (مونتيرى) ، في ١٦ يوليو سنة ١٤٦٥ »
.. وعض « ليون » شفته وهو ينفخ غضبا ، بينما استطرد
الرجل : « وإلى اليبين مباشرة حفيده » لوى دوبريزيه « سيد
(بريغال) و (موشوفيه) ، وكونت دى مولفرييه ، وبارون
دى مونى ، أمين الملك ، وعضو نظام الفرسان ، وحاكم
نورماندى أيضا .. هذا هو السيد المكسوكه بالحديد ، على
جواد رفع ساقه في خطوة متخطرة .. مات في ٢٣ يوليو سنة
١٥٣١ ، وكان يوم أحد ، كما تنبئ بهذا السطور المنقوشة ..
وتحته ، هذا الشخص الذى يرم بالزئول إلى القبر ، أنه يمثل
نفس السيد .. من غير الميسور أن تريا تمثالا أكمل تبياننا للفناء
من هذا « .. ورغمت مدام « بوفاري » نظارتها .. وبقى
« ليون » جامدا يرتبها ، وقد كف عن محاولة الاتيان بأية حركة ،

حتى من أن ينبس بكلمة ، أو يصدر إشارة ! .. وأحس بقنوط
ازاء هذين اللذين انهمكا في الثثرة واتفقا على عدم
الاكتراث به !

ومضى الدليل الأبدى في شرحه : « وبالقرب منه ، هذه
المرأة الراكعة التى تبكى .. إنها زوجته « ديانا دى بواتيه » .
كونتة (بريزيه) ودوقة (فالنتاوا) ، ولدت في ١٤٩٩ ، وماتت
في ١٥٦٦ .. وإلى اليسار ، هذه التى تحمل الطفل .. إنها
العذراء المقدسة . والآن ، فلنمرج إلى هذه الناحية .. ها هي
ذى قبور آل « امبرواز » الذين جمعوا بين مطرانية واستقنية
(روان) ، كان هذا وزيرا في عهد لويس الثانى عشر ، وقد
قام بأعمال جليلة للكاندراكية ، وترك في وصيته ثلاثين ألفا من
الدنانير الذهبية للفقراء .. ودفعهما الدليل - دون أن يتوقف
عن السير أو الكلام - إلى مقصورة مليئة بالحواجز التى اقصى
بعضها ، فكشف عن كتلة من الصخر لا بد أنها كانت يوما تمثالا
ردىء النحت .. ثم قال في صوت حزين : « لقد كانت تزين
- حقا - قبر ريتشارد قلب الأسد ، ملك إنجلترا ودوق نورماندى .
كان الكلفانيون (١) يا سيدى هم الذين شووهو بهذا الشكل .
وقد دفنوه - للكتابة - في جوف الأرض ، تحت المتعد الاستقى
لصاحب النيافة . انظروا ! .. هذا هو الباب الذى كان الاسقف
يجتازد إلى بيته .. لنمر بسرعة كي نرى النوافذ الميزابية » .
بيد أن « ليون » أسرع يخرج بعض قطع العملة الفضضية ،

(١) اتباع مذهب « كلن » القائل ان الخلاص من الذنوب يتأتى بصفة الله
وليس بالأعمال ..

وامسك بذراع « ايما » . ووقف الحارس مذهولا ، لا يكاد يفقه سر هذا السخاء الذى اظهره الشاب فى غير موعده ، إذ كانت لا تزال هناك كثيرا من الاشياء التى يتوق الأجانب لرؤيتها . . . لذلك اسرع وراءها صائحا : « سيدى ! .. البرج ! البرج ! » .. فقال ليون : « شكرا » ..

— ولكك على خطأ يا سيدى ! .. ان ارتفاعه اربعمائة واربعون قدما ، اى أقل من ارتفاع هرم مصر الأكبر بتسعة اقدام . . . كله من الحديد المصبوب ، و . . .

وغير « ليون » ، إذ خيل إليه ان هواء الذى ظل ساعتين جامدا داخل الكنيسة كأنه حجر ، يوشك الآن أن يتبخر ويتبدد كال دخان فى الفضاء ، متسربا خلال ذلك القمع الأبر القائم فوق صندوق مستطيل والمتصل بهدنة تصل إلى الفضاء ، خارجة من مبنى الكاتدرائية بشكل مزر ، كأنها محاولة قام بها مهندس للمدافع ببذر ماغون ! .. وقالت « ايما » : « إلى أين ترانا ذاهبين ؟ » .. ولكنه لم يجب ، بل سار بخطى واسعة . . . وكانت مدام « بوفارى » قد غمست اصبعها فى الماء المقدس ، حين سمعا خلفهما أنفاسا لاهثة ، يتخللها وقع عصا تطرق الأرض بانتظام ، فالتفت « ليون » . . .

— سيدى ؟ — ماذا ؟

ورأى الحارس السويسرى يحمل تحت إبطه نحو عشرين كتابا كبيرا ، مجلدا ، احتضنها إلى بطنه ليحفظ توازنها . . . تلك كانت المؤلفات التى تتعلق بالكاتدرائية . . . فزجر « ليون » وهو يندفع إلى خارج الكنيسة : « غبى ! » .. وكان ثمة صبي يلعب على مقربة ، فصاح به : « اذهب فاستدع عربة ! » ..

فقفز الصبى كالكرة صوب شارع (كاترفانت) ، وبقي وحدهما يضع دقائق ، وجهها لوجه ، يسودهما شيء من الحرج . . . وهمت ايما : « آه ! ليون ! .. انتى حقاً .. لا أدري . . . إذا كان ينبغي . . . » ، ثم أردفت فى لهجة جادة : « هذا لا يليق البتة . . . افندرك ؟ » .. فأجاب : « كيف ذلك ؟ أنه أمر شائع فى باريس ! » .. فرفضت بعد هذه الكلمات ، وكأنها حجة لا تقاوم !

● ولما لم تأت العربة فى تلك الأثناء ، خشى « ليون » أن تعود « ايما » إلى الكنيسة . . . ولكن العربة ما لبثت أن ظهرت أخيرا . وصاح الحارس الذى خلفاه وحيدا لدى الباب : « اذن مآخرجا من الباب الشمالى حتى تريا — على الأقل — لوحات : البعث ، والحساب الأخير والجنة ، والملك داود ، والمذنبين فى نار جهنم » !!

وقال الحوذى : « إلى أين يا سيدى ؟ » فقال ليون وهو يدفع ايما إلى داخل العربة : « حيثما شئت . . . فانتطلقت العربة خلال شارع (جران بونت) ، واجتازت ميدان (ديزار) ، و (وكيه نابوليون) ، و (بونت نيف) ، ثم وقفت عند تمثال (بيير كورنى) ، فصاح صوت من الداخل : « استمر ! » .. وعادت العربة تسير ، حتى إذا بلغت ميدان (كاريفور لافاييت) ، شرعت تهبط السفح ، ودخلت المحطة والجوادران بركضهم . وصاح الصوت ذاته : « لا ، امض فى خط مستقيم ! » .. فاندفعت العربة خلال الأبواب ، وسرعان ما بلغت

(الكورنيش) ولاحت تخطر الهوينى تحت اشجار الدردار .. وجفف الحوذى العرق عن جبينه ، ووضع قبعته الجلدية بين ركبتيه ، ثم قاد العربية في الطريق الجانبية - المجاورة للمرج - إلى الطريق الممتدة بجانب الماء .. وسارت العربية في محاذاة النهر ، في الدرب الذى ترسو فيه المراكب ، والرمصوف بالحمى الصلب .. وظلت فترة طويلة في اتجاه (اوبيل) ، خلف الجزائر .. ولكنها انصرفت فجأة ، واندمغت عبر (كاتريمير) و (سوتفيل) و (لاجراند شوسيه) وشارلوع (ديليف) ، ثم وقفت مرة ثالثة أمام حديقة النباتات .. فصاح الصوت في لهجة اشد حنقا من قبل : « امض في السير ! » .. وعادت العربية تواصل سيرها ، مارة بسان سيقيه ، عن طريق (كيه ديه كوراندييه) ، و (كيه اوميل) ، وعبرت الجسر مرة أخرى إلى ميدان (شام دومار) ، ثم مضت خلف حدائق المستشفى ، حيث كان الكهول - في سترات سوداء - يتمشون في الشمس ، في محاذاة سياج قصير كساه اللبلاب بخضرة تامة .. ثم سارت إلى (بوليفار بورفيس) ، ومضت في (بوليفار كوشواز) ، ثم طافت بهونت ريبوديه كلها ، واتجهت إلى تلال (ديفيل) .

ثم عادت العربية من حيث أتت ، وراحت تلف كيفما اتفق ، دون ما وجهة معينة ، فشوهدت في «سان بول» ، و (ليسكور) ، و (مونف جارجان) ، و (لاروج مارك) ، وميدان (جاريارباوا) ، وشارع (مالاديريرى) ، وشارع (ديناندرى) ، مارة بكنائس « سان رومان » ، و « سان قيفيان » ، و « سان ماكلو » ، و « سان نيكيز » .. وإمام الجمارك ، وبرج (فيبى نور) ،

و (تروا بيب) ، والمقبرة التفكيرية . وكان الحوذى يلقي نظرة محسورة على الحانات من وقت لآخر .. لم يكن يفقه أية رغبة طاعية في التنقل تحذو بالراكبين إلى عدم التوقف ! .. وحاول أن ينههما - بين الفينة والفينة - فكانت صيحات الغضب تنبعث من خلفه ، ومن ثم ساط جواديه اللذين كانا يتصعبان مرقا ، ولكنه لم يكثر لسيرهما ، بل تركهما يتخبطان هنا وهناك ، غير حائل .. وقد خارت قواه المعنوية ، وأوشك أن يبكى لغرط الظلما ، والتعب ، والضيق ..

وفي الميناء - وسط البضائع الثقيلة والبرامل - وفي الطرقات ، عند المتعطفات ، كان الناس يحلقون في دهشة وعجب لمثل هذا المنظر غير المألوف في الريف .. عربية مسدلة الستائر ، تبدو باستمرار مغلقة كما لو كانت قبرا ، وتتأرجح كأنها سفينة ! .. وحدث أن كانت العربية تسير في الخلاء ، وقد انتصف النهار ، وأخذت الشمس تلهب بقسوة مصباحى العربية العتيقين ، فامتدت يد من خلف الستائر الصغيرة المصنوعة من الخيش الأصفر ، وألقت بقصاصات من الورق تناثرت في الهواء ، ثم تهاوت بعيدا كالفراشات البيضاء على حقل البرسيم الذى تفتحت زهوره الحمراء !

وفي نحو الساعة السادسة ، وقفت العربية في شارع خلفى بحى (بوقوازان) ، وهبطت منها امرأة تسدل على وجهها قناعا ، وسارت دون أن تلتفت ..

الفصل الثانى

● دهشت مدام « بوفارى » إذ لم تر عربة البريد عند وصولها إلى الفندق — وكان السائق قد انطلق في رحلته بعد أن انتظرها ثلاثا وخمسين دقيقة — ولم يكن ثمة ما يجبرها على الرحيل ، ولكنها كانت قد وعدت بأن تعود في ذلك المساء ، فضلا عن أن « شارل » كان يرتقبها ، فأحسّت في مؤاذاها بذلك الأسى الناعم الذى يكون بالنسبة لبعض النساء مغالبة للنفس وتكثيرا عن الفجور . وأسرعّت تحزم متاعها ، ودفعت حساب الفندق ، ثم استقلت عربة من الساحة ، واستحثت الحوذى ، وراحت توسمه في كل لحظة سؤالا عن الوقت وعدد الكيلومترات التى قطعها . واستطاع أن يلحق بالمصفورة — عربة البريد — وهى تقترب من طليعة بيوت (كينكاويوا) . وما إن استقلت ايميا إلى عربة البريد ، حتى أغمضت عينيهما فلم تفتحهما إلا عند سفح التل ، لترى « فيليسيته » عن بعد ، وقد وقفت تنتظر العربة أمام دار الطبيب البيطرى ، فأوقف « هيفر » جواده ، وتعلقت الخادم بنافذة العربة ، وقالت بلهجة غامضة : « سيدتى ، يجب أن تذهبي فوراً إلى السيد هوميه ، فهناك امر هام » .

وكانت القرية ساكنة كماداتها . وعند تقاطع الطرق ، كانت ثمة أكوام وردية ينبعث منها دخان في الهواء ، إذ كان موسم صنع المربى قد حل . وكان أهل (ايونفيل) جميعاً يصنعون مؤونتهم منها في نفس اليوم . على أن المرء كان لا يملك أن يعجب بكومة أمام الصيدلية بدت أكبر مما عداها ،

وانضل منها ، بها لايد أن يتوفر لأى معمل من تفوق على المتاجر العادية ، حتى يتضح الفارق بين حاجة المتجر العام وحاجة الفرد . .

ودخلت « ايميا » الصيدلية ، فإذا بالمقعد الكبير مقلوب ، بل وكانت صحيفة « غانال دى روان » ملقاة على الأرض ، بين مدقنين (هاوئين) . . ودفعت باب الردهة . . وبين الجرار البنية المليئة بالزبيب النباتى المجرد من اعناقته ، وبالسكر المسحوق والسكر البلاط ، وبالموازين على المنضدة ، وبأواني الطهو على النار ، رأت أسرة هوميه كلها ، صغيرها وكبيرها ، في مراول تغطى صدورهم حتى الأذقان ، وفي أيديهم شوكات وملاعق ، بينما كان « جوستان » يقف منكس الرأس ، والصيدلى يصيح : « من قال لك أن تبحث عنه في كثر ناحوم (1) ؟ » . . فتساءلت ايميا : « ماذا هناك ؟ . . ماذا جرى ؟ » . . فأجاب الصيدلى : « ماذا هناك ؟ . . أننا نصنع المربى ، وهى تنضج على النار ، ولكنها أوشكت أن تغور وتفيض ، إذ زاد العصير ، فأمرت باحضار ائاء آخر . فإذا به — اى جوستان — يذهب ، بدافع من الخمول والكسل ، فيأخذ — من مسمار في معلى — مفتاح كثر ناحوم . . (فهكذا كان الصيدلى يسمى غرفة صغيرة تحت السقف مليئة بالأوعية والسلع الكيماوية . وكثيرا ما كان يقضى ساعات طويلة فيها ، وحيدا ، يلصق بطاقات ، ويفرغ بعض القنينات ، ثم يعيد أحكام سداداتها . . ولم يكن

(1) اسم قرية باللسطين كان المسيح يتردد عليها كثيرا للتبشير برسائله

يعتبرها مجرد مخزن ، وإنما كانت في نظره محررا قدسيا ،
يخرج منه فيها مدام يكون قد أعد بهديه من كافة أنواع
الحبوب ، والجرات ، والفصيل ، وعصائر الأعشاب ،
والأدوية السائلة التي تحمل سمته منتشرة طولا وعرضا !
.. ولم يقدر لخلوق في الدنيا أن يضع في هذه الغرفة قدميه
.. فقد كان يعتز بها ، ويكتس أرضها بنفسه .. وإذا كانت
الصيدلية - المفتوحة لكل قادم - هي المكان الذي يعرض فيه
براعته ، فإن « كهر ناحوم » كانت الملاذ الذي يخلو فيه
« هوميه » إلى نفسه ، حيث يستمتع بممارسة ميوله وهواياته
.. ومن ثم كان نهور « جوستان » يلوح له كاهتمام فظيع
لحرمة المكان ، فراح يردد ووجهه أكثر احتقاناً من الزبيب :
« أجل ، من كهر ناحوم ! .. المفتاح الذي يفتح مخزن
الأحماض والقلويات الكاوية ! .. إحضار وعاء إضافي ..
وعاء ذى غطاء ، قد لا احتاج إلى استخدامه ! .. إن لكل
شيء أهمية في العمليات الدقيقة في مننا ! .. ولكن ،
يا للشيطان ! .. يجب أن يقيم المرء بعض الفوارق ، فلا
يستعمل في أغراض تعتبر منزلية ، أشياء خصصت لأعمال
الصيدلة ! .. وإلا ، كان الأمر أشبه باستخدام المبيض
لتطهير دجاجة ، أو كتاف .. » .

وهنا قالت مدام هوميه : « ألا اهدأ .. وتشببت
» اتالي « بنسخته صالحة : « بابا ! بابا ! .. فاستطرد
قائلا : « دعوني الآن .. دعوني وحدي ! لعمري ! بشرى أنه
لنضيق بالمرء أن ينشئ منجرا للبدالة ! .. هكذا .. أذهب !
لا نزع شيئا ! اكسر ، وهشم ، واطلق العلق الذي يمتص

الدم الفاسد ، واحرق المعاجين ، واخل الخيار في القهاتم ،
ومزق الأريطة والضمادات ! » .
وقالت « ابنا » : « لكلك .. » .

— حالا ! .. افتعرف لاي شيء عرضت نفسك ؟ ..
الم تر شيئا في الركن ، إلى اليسار ، فوق الرف الثالث ؟
.. تكلم ، أجب .. قل شيئا !

وقال الفتى المتعجب ، في لعنة : « لست .. لست .. لست
أدرى » .

— آه ! لست تدري ! جميل ! أما أنا فأعرف ! لقد رايت
زجاجة .. زجاجة زرقاء ، مختومة بالشمع الأصفر ، وتحتوى
على مسحوق أبيض ، وقد كتب عليها ! « خطر ! » .. افتدري
ماذا بها ؟ .. زرنين ! .. ثم تذهب فتلمسها .. وتحضر وعاء
كان إلى جانبها !

فصاحت مدام هوميه وهي تهز قبضتها : « إلى جانبها !
.. زرنين ! .. كان من المحتمل أن تسممنا جميعا ! » .

وشرع الأطفال يصرخون كما لو كانوا قد شمعوا بآلام
رهيبية في أحشائهم .. واستأنف الصيدلي الحديث : « أو تسمم
مرضا ! .. افتريد أن تراني في قمص الاتهام مع المجرمين في
المحكمة ؟ .. أو أن تراني أساق إلى المشنقة ؟ .. الا تعرف أى
حذر التزمه في كل الأمور ، رغم أنني تعودتها تماما ؟ .. إننى
كثيرا ما أجزع إذ أفكر في مسؤوليتي ، وبخاصة أن الحكومة
تظلمنا وتضطهدنا ، والتشريع السخيف الذي يحكمنا ليس
سوى سيف ديموكليس المعلق فوق رؤوسنا ! » .

ولم يعد لإيها أمل في أن تسأل عما كانوا يريدون منها .. واستمر الصيدلي في عبارات لاهثة : « اهذا ما تقدمه جزاء كل ما أوليتك من كرم ! .. ابهذا تكافئني على الرعاية الأبوية الصادرة التي أغدقها عليك ؟ .. من يمدك بالغذاء ، والتعليم ، والثياب ، وكل الوسائل التي تمكنك يوما من أن تكون مكرما في طبقات المجتمع ؟ ! .. ولكنك يجب أن تشد المجاذف بقوة وجهد - كما يقولون - حتى تتورم يداك ! .. ثم أردف باللاتينية : « إن العامل الذي لا يعيش من عمله ، يفعل ما يشاء » .. ومضى يتكلم باللاتينية حتى تعب .. وما كان ليحجم عن الكلام بآية لغة ، لو أنه كان يعرفها ، لأنه كان يمر بأحدى تلك اللوبات التي تطفح فيها النفس بكل ما تحتوى عليه دون تمييز ، كالمحيط الذي يلغظ - في الأنواء - كل ما فيه من الأعشاب البحرية القريبة من شاطئه ، والرمال التي في أعماقه ! .. وعاد هومييه يقول : « لقد بدأت أعانى ندما شديدا إذ كلفتك .. كان يحسن بي بالتاكيد أن أتركك للبوارج في فمرك وفي الغدرة التي ولدت فيها .. آه ! انك لن تصلح قط لغير رعى الحيوانات ذات القرون ! .. ليس لديك استعداد للعلم ! إنك لا تكاد تعرف كيف تلصق بطاقة ! .. ومع ذلك فانت - كما ترى - تعيش معى نظيفا كالراهب ، مرتاحا كديك يسمنه أصحابه ! » .

● لم تلبك « إيها » أن التفتت إلى مدام هومييه قائلة : « لقد استعديت .. » .. فقطعت عليها السيدة حديثها قائلة في لهجة حزينة : « آه ! يا إلهي ! .. كيف أزجى إليك النبا ؟

.. انه شؤم ! » .. ولم تتم حديثها .. وكان الصيدلي يصيح مهذرا : « أفرغها ! نظفها ! أعدّها حيث كانت ! أسرع ! .. وأمسك بـ « جويستان » من ياقة قميصه ، فاوقع كتابا من جيبه .. واتحنى الفتى ، ولكن « هومييه » كان أسرع منه .. وما إن التقط الكتاب ، حتى تأمل عنوانه بعينين جاحظتين وغم فاغر : « الحب .. الزوجي ! » .. قالها في تؤدة ، متعبدا أن ينصل بين الكلمتين ، ثم أردف : « آه ! جميل جدا ! جميل جدا ! بديع جدا ! .. وصور أيضا ! .. آه ، هذا كثير جدا ! .. » .. واقتربت مدام « هومييه » ، فصاح : « لا .. لا تلهى الكتاب » .. وأراد الأطفال أن ينظروا إلى الصور ، فصاح بلهجة أمرة : « أخرجوا من الحجرة ! » ، فخرجوا .. وأخذ - في البداية - يسير في الغرفة رائحا ، غاديا ، والكتاب مفتوح بين أصابعه ، يقلب فيه بصره مشدوها ، مستحييا ، وانفاسه تتتابع في عناء .. ثم اتجه إلى مساعده ، فوقف أمامه ، وعقد ذراعيه على صدره ، وقال : « أذن ، فقد اجتمعت فيك كل الرذائل أيها التعس الصغير ! احترس ! .. انك بالتاكيد تتردى ! .. أقلم يخطر ببالك أن هذا الكتاب الفاضح قد يقع في أيدي أولادى ، فيشعل في اذهانهم شرارة ، ويلطخ طهر « اتالى » ، ويفسد « نابليون » ! .. لقد دخل مدارج الرجال .. أفانت واثق - على الأقل - من أنهما لم يقرأ ؟ .. هل تقسم ؟ » .

وقالت إيها : « ولكن يا سيدي .. هل أردت أن تقول لي .. ؟ » .

— أجل ياسيدتى .. أن حماك قد توفى !

● كان السيد « بومارى » الأب قد مات بغتة ، فى الليلة السابقة ، من جراء سكتة قلبية . وزيادة فى الحبطة ، وحرصا على مشاعر « ايمى » ، التمس « شارل » من هوميه أن ينهى إليها النبا « الفطيع » فى رفق وحكمة ! .. ولقد فكر هوميه فيما يقول ، وتمق القول ، وصقله ، ووزنه ، حتى جعله تحفة من الحكمة والتدرج ، ومن الحيلة والرفقة ، ولكن الغضب كان أكثر بلاغة وبيانا .. وإذ بنست « ايمى » من أن تسمع أية تفصيلات ، بارحت الصيدلية . وكان السيد هوميه قد عاد يستأنف السباب والتفريق ، وإن كانت سورة غضبه قد بدأت تهدأ ، وأصبح يهدد فى لهجة أبوية — وهو يحرك قلنسوته الاغريقية التماسا للهواء ! .. « ليس معنى هذا أننى لا أقر الكتاب البيتة ، فان مؤلفه طيب ! .. فضلا عن أنه يحتوى على مسائل عقلية ليس من الضرر أن يعرّفها رجل .. بل اننى لاذهب إلى أن على الرجل أن يعرّفها .. ولكن ، فيما بعد .. فيما بعد ! .. أنتظر على الأقل حتى تغدو رجلا ، وتكمل مداركك ! » .

وعندما قرعت « ايمى » باب بيتها ، أقبل « شارل » — الذى كان فى انتظارها — باسطة ذراعيه أمامه ، وقال والدوموع تخالط صوته : « آه ، يا عزيزتى ! » .. وانحنى بلطف يقبلها ، ولكن ملمس شفثيه رد ذكرى الرجل الآخر إليها ، فمسحت وجهها براحتها وهى ترتجف . وأطلعها على

الخطاب الذى روت فيه أمه الحادث ، دون ما مبالغات عاطفية ، لم تكن آسفة الا على أن زوجها لم يحظ بالمراسم الدينية ، إذ مات فى الطريق — فى (دوفيل) — على سباب مقهى ، بعد مادية وطنية مع الضباط القدامى .. وأعادت « ايمى » الخطاب إلى زوجها . وعند العشاء ، تصنعت بعض الزهد للتظاهر بالأسى ، ولكنها أقبلت على الطعام — حين الح عليهما أن تحاول — بينما جلس هو منصرفا عن الأكل ، لا يحير ساكنا .. وكان من وقت لآخر يرفع رأسه ويرمقها بنظرة طويلة زاخرة بالحزن . وتنهّد مرة قائلا : « وددت لو اننى كنت رأيته مرة أخرى ! » .. وكانت « ايمى » لاذة بالصمت ، ولكنها اندركت أخيرا أن لا بد لها من أن تقول شيئا ، فسالته : « كم كان عمر أبيك ؟ » .

— ثمانية وخمسين — آه !

وكان هذا كل ما لديهما . وما لبث أن أضاف بعد ربع ساعة : « يا لأمى المسكينة ! .. ماذا سيكون من أمرها الآن ؟ » .. فصدرت من « ايمى » إشارة تم عن أنها لا تدري .. وإذ رأى « شارل » وجوها ، خيل إليه أنها شديدة التأثر ، فحمل نفسه على الكف عن الكلام ، لكى لا يذكرى هذا الأسى الذى تملكها . على أنه ما لبث أن قال ليقلب اسماء : « هل استمتعت بيوم أمس ؟ » .. فأجابت : « نعم » .. حتى إذا رفعت المائدة ، لم ينهض « بومارى » ، ولا نهضت « ايمى » .. وفيما كانت تنظر إليه ، أخذ جمود المنظر يطرد من عليهما — شيئا فشيئا — كل رثاء واشفاق .. فقد لاح لها زوجها تافها سخيفا ، ضعيفا ، عديم الشخصية .. وقصارى القول :

كان فقيرا ، بسكيننا ، من كل النواحي ! .. فكيف تتخلص منه ؟ .. ويا لها من ليلة لا تنتهى ! .. وتهلكها شيء مخدر كخضان الاميون ! .. وما لبنا أن سمعا في الردهة ضجة ناشئة عن وقع ساق خشبية على الواح الارضية ، وإذا « هيبوليت » قد اقبل حاملا متاع السيدة . ولكى يضعه على الأرض ، لف في عناء ، راسها بساقه الخشبية ربع دائرة .. فقالت « ايمما » لنفسها وهي تتأمل هذا الشيطان المسكين الذى كان شعره الاحمر الكث يقطر عرقا : « إنه لم يعد يذكر شيئا ! » .. واخذ « بوفارى » يبحث في قاع كيس نقوده — عن قطعة من العملة النحاسية ، دون أن يبدو عليه انه يظن إلى ما هناك من ذلة ومهانة له ، في مجرد وجود هذا الرجل الذى كان يقف وكأنه تانيب مجسم للخطا الذى كان وليد عجز الطبيب ، والذي لا سبيل إلى اصلاحه !

وأخيرا ، قال شارل لزوجته : « مرحى ! لقد جئت بباقة جميلة ! » .. فقالت « ايمما » في غير اكتراث : « اجل .. اشتريتها قبيل حضوري ، من مسول .. » فتناول « شارل » الزهور لينعش بها عينيه المحتقتين من اثر الدموع ، وشمها في رفق .. فاسرعت « ايمما » تأخذها من يده وتضعها في كوب ماء !



● وصلت مدام « بوفارى » الأم في اليوم التالي ، فبكت مع ابنها كثيرا .. بينها اخفت « ايمما » بحجة اعطاء تعليمات للخادم . وفي اليوم الذى أعقبه ، تحدثوا من الحداد ، ثم ذهبوا فجلسوا تحت الخيمة ، بجوار النهر ، وقد حبلت

المراتن صندوقى اشغالهما .. واخذ « شارل » يفكر في ابنيه ، فادهش به ان احسن بحب جم لذلك الرجل الذى كان يظن — حتى ذاك الحين — انه لا يحفل به كثيرا . كذلك راحت مدام « بوفارى » الأم تفكر في زوجها .. وبدت لها اسوا ايام الماضي اياما لا تعوض .. نسيت كل شيء في غمرة حسرتها الغريزية على مثل هذه العشرة الطويلة ! .. وكانت تنحدر على أنفها — من أن لآخر وهي تخط — دمة كبيرة تقف عند اسفله لحظة معلقة .. أما « ايمما » فكانت تفكر في انه لم يمض بعد ثمان وأربعون ساعة مذ كانت مع « ليون » بعيدين عن الدنيا ، في نشوة من الغبطة ، وقد ود كل منهما لو كان له مزيد من الأعين ليتولى من الآخر .. واخذت تحاول تذكر أبسط تفصيلات اليوم الاسبق ، ولكن وجود زوجها وحمايتها كان يزعجها ، فتمتعت أن لا تسمع شيئا ، وان لا ترى شيئا ، حتى لا يضطرب تفكيرها في حبيبها .. على أن هذا التفكير كان يتبدد في احساسها بما هو خارج كيانها ، رغم كل ما بذلت !

وكانت تفكك بطانة ثوب ، فتناثرت قطع القماش حولها . امام مدام « بوفارى » الأم ، فكانت تحرك مقصها في نشاط دون أن ترفع رأسها ، في حين كان « شارل » ينتعل الخفين اللذين يستعملهما في اوقات راحته ، ويرتدى « ردنجوت » الاسمر القديم الذى كان يستخدمه كثوب منزلى ، وقد جلس مقبيا يديه في جيبه ، دون أن يتكلم .. وعلى مقربة منهم ، كانت « بيرت » في مروة بيضاء صغيرة ، تعبت بمجرعتها في رمال دروب الحديقة . وفجأة ، راوا مسيو « لوريه » — تاجر الاقمشة — يقبل خلال الباب الخارجى .. جاء يعرض خدماته « في الظروف

الحزنة » ، فأجابت « ايما » بانها تظن ان بوسمها ان تستغنى عن الجديد ، بيد ان التاجر لم يسلم بالهزيمة ، بل قال لشارل : « معذرة .. احب ان اتكلم معك على حدة ! » .. ثم قال بصوت خفيض : « الامر يتعلق بتلك المسألة .. التى تعرفها » ، فاحتقن وجه « شارل » حتى اذنيه ، وقال : « آه ، أجل ! .. بالتأكيد ! » .. والتفت فى ارتياكه إلى زوجته وقال : « هلا توليت أنت الامر يا عزيزتى ؟ » .. ولاح أنها أدركت ، إذ نهضت .. فقال شارل لأمه ! انها ليست مسألة ذات بال .. بعض مطالب البيت البسيطة » .. فلم يكن الطبيب راغبا البتة فى ان تعرف امه شيئا عن قصة السند ، خشية لومها !

وما إن أصبح السيد « لوريه » على انفراد مع « ايما » حتى شرع يهنتها فى عبارات واضحة بالمراث ، ثم تكلم عن مسائل غير ذات بال ، كمرائس النباتات ، والمحصول ، وعن صحته التى كانت دوما بين بين ، فى صعود وهبوط .. وكان مضطرا إلى أن يجد ويعمل جاهدا ، وإن لم يملك ان يكسب ما يدر عليه « غموسا » لخبزه ، رغم ما يقوله كل الناس .. وتركت « ايما » يتكلم .. فما أكثر ما احتلت من مضائقات فى هذين اليومين الأخيرين ! .. ومضى يقول : « وأنت .. هل أصبحت بخير مرة أخرى ؟ .. لمعمرى ! .. لقد رايت زوجك فى حال حزنة .. انه شاب طيب ، وإن كان بيتنا سوء تفاهم بسيط .. فسألته عن سوء التفاهم ، إذ لم يكن شارل قد أنبأها بالنزاع الذى جرى بشأن السلع التى احضرها لها التاجر ، فصاح « لوريه » : « عجا ، أنك لتعرفينه تماما ! .. كان من أجل رغبائك الكمالية .. حقائب السفر ! » .

وكان قد أرخى قبعته على عينيه ، وعقد يديه خلف ظهره ، وراح يبتسم ويصفر وهو يتفرس فى وجهها بطريقة لا تطاق . اتراه حدس شيئا ؟ .. وتاهت « ايما » فى كل أنواع الهواجس .. غير أنه ما لبث أن عاد يقول : « على اننا سوينا الامر .. وقد جئت أعرض عليه تسوية جديدة » .. تلك هى تجديد السند الذى وقع « بوفارى » ، ولا ريب ان الطبيب سيسر لهذا ، إذ ليس عليه ان يزج نفسه ، لا سيما فى ظروفه الحاضرة التى تشغله باطائفة من الهوم .. « أو أنه ليحسن صنعا لو عهد بهذه المسألة إلى شخص آخر - اليك أنت ، مثلا ! - وهو امر سهل التدبير إذا اعطاك توكيلا رسميا ، وإذ ذاك نستطيع - أنت وأنا - أن نبرم معا صفقات صغيرة » ! .. ولم تفقه مرماه .. ولاذ التاجر بالصمت ، ثم تحول إلى تجارته ، فقال ان لا بد للسيدة من ان تحتاج إلى شيء ، وأنه سيرسل إليها قمائشا اسود ، يكفى اثنا عشر مترا منه لعمل ثوب ، وأردف قائلا : « هذا يصلح للبيت ، ولكك فى حاجة إلى ثوب للخروج ، وقد لاحظت هذا لأول وهلة حين قدمت .. فأننى اوقيت ما للأمريكيين من سرعة ملاحظة ! » .

● ولم يرسل القماش ، وإنما أحضره بنفسه .. ثم جاء مرة أخرى ليقبضه .. واخذ يتردد على المنزل لعل اخرى ، وهو يحاول دائما ان يتلطف ، وأن يبدو ذا نفع - عارضا خدماته فى الوقت المناسب ، كما كان يمكن ان يصنفه هوميه - وكان لا يفتأ يشير فى حديثه مع « ايما » إلى « التوكيل الرسمى » . على أنه لم يذكر السند قط ، ولا هى فكرت فيه .. ومن المؤكد

ان شارل حدثها عنه في بداية نقاهتها ، ولكن كثيرا من المشاعر والانفعالات تناوبت رأسها ، فلم تعد تتذكره ، فضلا من انها حرصت على ان لا تتعرض لاية مسائل مالية ، مما ادهش الأم « بوفاري » ، وحملها على ان تعزوه إلى التطور الذي طرأ على مشاعرها الدينية خلال مرضها ! .. ولكن ، بما ان كانت الأم تغيب ، حتى كانت « ايبا » تثير دهشة بوفاري بادراكها العلى .. فمن الضروري الحصول على بعض بيانات ، وتحري « الرهنيات » ، وتبين ما إذا كانت ثمة فرصة لعمل تصفية او « بيع بالمزاد العلني » .. وكانت تذكر - عرضا - بعض المصطلحات القانونية ، وتنتطق بالكلمات الكبيرة عن الطلب والحوالة ، والمستقبل ، وتدبر العواقب . وتعد دائما إلى المبالغة في وصف الصعاب التي تفترض تسوية شئون أبيه .. حتى انتهت ذات يوم إلى ان اطلمته على مسودة توكيل رسمى ينيبها عنه في أن « تتولى » وتتنصرف في اعماله ، بما في ذلك تدبير القروض بأنواعها ، وتوقيع وتحويل السندات بأنواعها ، ودفع جميع المبالغ ، الخ .. وهكذا ، كانت قد فهمت دروس « لوريه » !

وسألها « شارل » - في سذاجة - عن مصدر تلك الورقة ، فقالت : « السيد جيومان » . ثم اردف بغاية الهدوء : « اننى لا اثق فيه كثيرا » ، فان لموثقى العقود سمعة سيئة .. وقد يحسن بنا ان نستشير .. ولكننا لا نعرف .. احدا .. « فاجاب « شارل » مفكرا : « اللهم الا .. ليون » .. على انه كان من العسير مناقشة الامور بالمراسلة ، ومن ثم تطوعت لان تسافر ، فشكرها معذرا ، ولكنها اصرت .. وتباريا في



ولم يرسل القماش ، وإنما احضره بنفسه .. ثم جاء مرة أخرى ليقبضه ..

التطسوع للأمر .. ثم صاحت فى غضب مصطنع : « لا ، ارجوك .. ساذهب انا » ، فقال وهو يقبل جبهتها :
ما أطيبك ! ..

وفى اليوم التالى ، استقلت « العصفورة » ذاهبة إلى
(روان) لتستشير السيد « ليون » .. ومكثت هناك ثلاثة
أيام !

الفصل الثالث

● كانت ثلاثة أيام كائلة ، ممتعة ، رائعة .. شهر عسل حقيقى ! .. كانا فى فندق (بولونى) ، عند الميناء .. وهناك ،
هائبا بين البتائر المسدلة ، والأبواب المغلقة ، والزهور على
الأرض ، والمشروبات المثلجة تحمل إليهما كل صباح .. وفى
المساء ، كانا يستقلان قاربا غير مكشوف ، ويذهبان للعشاء فى
أحدى الجزر .. تلك كانت الساعة التى يسمع فيها - بجانب
أرضنة الميناء - صوت المطارق الخشبية وهى تدق جوانب
المراكب .. ودخان القار يتصاعد بين الأشجار .. وعلى منحة
الماء تسبح بقع كبيرة شحمية ، وتتموج تحت أرجوان الشمس ،
كانها صفائح من البرونز الفلورنسى .. وكانا يمضيان بقاربهما
وسط المراكب الراسية ، التى كانت اسلاكها الطويلة الممتدة
بانحراف ، تحتك بعض الشيء بأسفل القارب .. ويأخذ عجيج
المدينة فى الخفوت رويدا ، فتبتاعد قرقعة العريسات ، وهدير
الاصوات ، وعواء الكلاب الرابضة على أسطح السفن ..
وكانت « ايماء » تخلع قبعتهما ، ثم يهبطان إلى جزيرتهما ،

فيجلسان فى القاعة ذات السقف المنخفض ، فى أحدى الحانات
التي اسدلت على أبوابها شباك سوداء .. ويأكلان السمك
المقلو ، و « الكريمة » ، والكريز ، ثم يستلقيان على الأعشاب ،
ويتبادلان القبلات وراء أشجار الحور ، ويتمنيان لو أنهما عاشا
كطائرَيْن فى هذه البقعة الصغيرة التى يخالاها - فى نشوتهما -
أنهم بقاع الأرض ! .. وما كانت هذه أول مرة يريان فيها
أشجارا ، وسماء زرقاء ، ومروجاً ، أو يسمعان فيها خرير
الماء ، وخفيف الريح خلال أوراق الشجر .. ولكنهما لم يعجبا
بكل هذا قبل الآن ، وكانا لم يكن للطبيعة وجود من قبل ، أو
كانها لم تحظ بالجمال الا منذ استجابا لشهواتهما !

ويعودان فى الليل ، ينساب بهما القارب مارا بشواطئ
الجزر ، وقد جلسا معا فى قاعة ، مزروبين فى الظلال ، صامتين
.. والمجدافان العريضان يرتطمان بالحلقتين الحديديتين
- اللتين ثبتتا إليهما - فيبدو وقعهما فى السكون كدقات مؤذنة
بمرور الزمن ، تصدر عن جهاز للتوقيت .. بينما تكف الدفة
- فى المؤخرة - عن حفيفها الرقيق فى الماء .. وحدث أن بزغ القمر
مرة ، فلم يفتحا أن يصفاه بعبارات رقيقة ، وأن يعلقا على
الكوكب الحزين المغمم بالشاعرية .. بل أن « ايماء » شرعت
تغنى : « ذات ليلة - افتذكر ؟ - كنا نهمز عباب الماء ..
الخ » .. وضاع صوتها الرخيم الواهن مع الأمواج ، وحملت
الريح الصوت المرتعش الذى خاله « ليون » رغيف جناحين
حوله ! .. وكانت تجلس أمامه ، متكئة على جدار القارب
الذى كان ضوء القمر ينساب خلال نافذته .. وثوبها الأسود
الذى انتشر حولها كالمروحة ، يظهرها ارشق عودا ، واهيف

قواما .. وقد ارتفع رأسها ، وانمعدت يداها ، وتطلعت عيناها إلى السماء .. وكانت ظلال الصفصاف — على شواطئ الجزر التي يمران بها — تغمرها تماها في بعض الأحيان ، ثم لا تلبث أن تظهر في ضوء القمر كالطيف !

وعثر ليون — وهو جالس إلى جوارها في قاع القارب — على شريط من الحرير القرمزي تحت يده ، فتأملته النوتى ، ثم قال : « لعله من مخلفات الجماعة التي كنت أظنها في اليوم السابق .. ثلة من المرحين ، سادة وسيدات ، ومعهم مظائر وشهبانيا وأبواق الصيد .. وكل ما يخطر بالبال ! .. وكان بينهم — بوجه خاص — رجل أثيق ، ذو شاربين صغيرين ، بالغ الظرف ! .. وكانوا يقولون له : هيا ، ارو لنا شيئا .. يا أدولف .. أو لعله رودولف .. على ما اظن » ..! وارتجفت « أيما » فاقتربت منها «ليون» قائلا : « هل تشكين من شيء ؟ » .. فقالت : « لا ، لا شيء ! .. أنها رطوبة الليل ولا بد ! .. »

ومع ذلك ، كان لا بد من أن يفترقا .. وكان الوداع اليها .. واتفقا على أن يرسل خطاباته بعنوان الام «رولية» ، فاوصلته بأن يحرص على أن يضع كل الرسالة في مظروف داخل المظروف الخارجى ، فاطرى — في إعجاب شديد — هذا الحرص الغرامى ! .. وقالت مع قبلتها الأخيرة : « إذن ، فانت تؤكد لى أن كل شيء على ما يرام ؟ » .. فاجاب : « أجل .. بالتأكيد ! » .. وراح يسائل نفسه فيما بعد ، وهو يعود وحده

خلال الطرقات : « ولكن ، لماذا هى جد ملهونة على التوكيل الرسمى ؟ » .

الفصل الرابع

● لم يلبث « ليون » أن أبدى ترغما إزاء زملائه ، فآخذ يتحاشى صحبتهم ، وأهمل عمله أهبالا تاما .. وكان ينتظر خطاباتهما ، فيقرأها مرارا ، ثم يكتب إليها ، ويروح يمثلها بكل ما لشهوته وذكرياته من قوة . وآخذ الشوق إلى رؤيتها يزداد بدلا من أن يفتر لطول الفراق ، حتى انتهى به الأمر — في صباح يوم سبت — إلى الفرار من عمله ، ليزورها ! وما إن أبصر — من أعلى التل — برج الكنيسة في الوادى ، والراية الحديدية البيضاء الصغيرة التي تعلوه — وهى تتحرك مع الريح — حتى شعر بتلك الغبطة المتزجة بالغرور المزهو ، والحنو الأنانى .. تلك الأحاسيس التى تستشعرها الملايين من الناس حين يزورون قراهم ! .. وراح يحوم حول بيت « أيما » .. وكان ثمة ضوء ينبعث من المطبخ . وآخذ يرتقب ظلها وراء الستائر ، ولكن شيئا لم يظهر !

وأرسلت الام «لوفرانسوا» فيضا من صيحات العجب ، إذ خيل إليها أنه « كبر ، ونحل عوده » ، بينما ألفته « ارتميز » على النقيض « ازداد سمته وسمره » ! .. وتناول عشاءه في القاعة الصغيرة ، كعهده في الماضى ، ولكنه كان وحيدا ، إذ لم يكن محصل الخبرائب هناك . فقد سئم «بينييه» ، انتظار عودة

« المصفورة » في كل مساء ، فقرر أن يقدم موعد عشائه ساعة ، وأصبح يتناوله في الساعة الخامسة بانتظام ، ومع ذلك فلم يكن يكف عن القول بأن « ساعة الفندق العتيقة متأخرة » !

على أن « ليون » لم يلبث أن حزم أمره ، فطرق باب الطبيب .. وكانت السيدة في حجرتها .. أما السيد ، فقد أبدى اغتباطا لرؤيته . وفي ذلك المساء ، رآها « ليون » وحدها — في ساعة جد متأخرة — في الدرب الممتد وراء الحديقة .. عين الدرب الذي كانت تتقابل فيه « الآخر » ! .. وكانت الليلة عاصفة ، فراحا يتناجيان تحت مظلة ، على وميض البرق .. وكان الفراق لا يطاق ، فقالت أينا : « أن الموت أهون ! » .. وترغمت في أحضانه باكية ، وهي تقول : « وداعا ! .. وداعا ! .. متى أراك ثانية ؟ » .. ونكصا على أعقابهما ليتمانقا مرة أخرى .. وإذ ذلك ، عاهدته على أن تدبر عما قريب — بأية وسيلة كانت — فرصة يلتقيان فيها بانتظام — وفي حرية — مرة في كل أسبوع .. على الأقل ! .. وما ارتابت « أينا » قط في قدرتها على ذلك ، فضلا عن أنها كانت مقيمة بالأمل ، إذ كانت توشك أن تحصل على بعض المال .. وفي ارتقاب وصوله ، ابتاعت لخدمها زوجا من الستائر الصفراء ذات الخطوط العريضة ، أكد السيد « لوريه » أنها حصلت عليهما باقل من ثمنهما . وكانت تحلم بسجادة ، فقال « لوريه » أنه ليس بالحلم العسير ، وأنها لا تطع في « أن تشرب البحر » ، وتولى احضار سجادة لها . ومن ثم لم تعد تستغنى عن خدماته . وكانت ترسل في استدعائه عشرين مرة في اليوم ،

يتترك أعماله دون تذمر ليلبي دعوتها .. كذلك لم يعد الناس يدركون سر ذهاب الأم « روليه » لتتناول الفطور عندها كل يوم ، ولا سر اختلائها بها في زيارتها ..

● وفي تلك الفترة — أي حوالي بداية الشتاء — تملكها شغف كبير بالموسيقى . وفي إحدى الليالي ، جلس « شارل » يصغي إليها ، فإذا بها تعيد عزف القطعة ذاتها أربع مرات متواليات ، وهي غير راضية ، مع أنه لم يلاحظ في عزفها أي اختلاف ، فصاح : « مرحى ! .. بديع جدا ! .. أنك مخطئة في ظنك ! .. وأصلي ! » .

— آه .. لا .. هذا نشاز .. لقد صدات أصابعي !

ورجأها في اليوم التالي أن تعزف له ثانية إحدى المقطوعات ، فقالت : « لا بأس .. إرضاء لك ! » . واعترف « شارل » بأنها خرجت عن اللحن قليلا .. وراحت تخطيء في توقيع الانغام ، وتتخبط ، ثم توقفت دون أن تتم اللحن ، وهتفت : « آه ! .. لا فائدة ! .. خليقي بي أن اتلقى دروسا ، ولكن .. » .. وعضت شفتيها مستطردة : « ولكن عشرين فرنكا للدرس ، مبلغ باهظ ! » .. فقال « شارل » متضحكا في غيابة : « أجل ، في الواقع .. بعض الشيء .. إنها يلوح لي أن في وسع المرء أن يحصل على الدروس بثمن اقل .. إذ هناك فنانون مغمورون ، كثيرا ما يكونون أفضل من المشهورين » .. قالت أينا : « ابحث عنهم ! » .

وعندما عاد إلى البيت في اليوم التالي ، رمعها بنظرة خبيثة ، وما لبث أن عجز عن كتابها ما لديه ، فقال : « كم أنت عنيدة في بعض الأحيان ! .. لقد كنت في (بارفوشير) اليوم .. حسنا ! .. لقد انبأني مدام « ليجار » أن بناتها الثلاث اللاتي يدرسن في معهد الرحمة — « لامييريكورد » — يتلقين دروسا بمعدل خمسين سو (أى فرنكين ونصف) للحنة .. وعلى يدى أستاذة مشهورة كذلك ! » .. فهزت كتفها ، ولم تعد تفتح معزفها . ولكنها كانت كلما مرت به — و « بوفاري » موجود — زفرت قائلة : « آه .. يامعزفى المسكين ! » .. وإذا زارها أحد ، لم تكن تقصر في إشعاره بأنها هجرت الموسيقى ولم تعد قادرة على العودة إليها ، لأسباب خاهرة . فكان الزائر يقول : « يا للخسارة ! .. كيف ذلك وهى التى أوتيت هذه الموهبة البديعة ! » .. بل كان الزائرون يتحدثون إلى « بوفاري » ، ويخجلونه .. لاسيما الصيدلى الذى كان يقول : « انك على خطأ ، غما يتبغى للمرأة قط أن يترك المواهب الطبيعية مهلة . ثم تذكر ، يا صديقى الحميم ، انك إذ تحمل زوجتك على الدراسة ، إنما تقتصد نفقات التعليم الموسيقى لطفلك فيما بعد ! فانا أعتقد أن على الأمهات أن يعلن أطفالهن بأنفسهن ! .. هذا رأى « روسو » .. ولعله لا يزال رأيا مستحدا ، ولكنى متأكد من أنه لن يلبث أن ينتصر فى النهاية ، كما انتصر الرأى الخاص بلبن الأم ، وبطعيم الأطفال ! » .

وهكذا عاد شارل مرة أخرى إلى موضوع « البياتو » ، فقالت « ايها » فى جفاء : إن من المستحسن بيعه .. وبدا لبوفاري

أن التفريط فى هذا المعزف — الذى طالما أرضى كبرياءها — ليس سوى قتل لجزء من كيانها دون مرأ ، ومن ثم قال : « إذا كنت بحاجة إلى درس — من وقت لآخر — فما أظن هذا يبهظنا كثيرا » ، فأجابت : « ولكن الدروس لا تجدى الا إذا تابعت فى مقابلة » .

وبهذه الطريقة ، استطاعت أن تحصل على اذن من زوجها بأن تذهب إلى (روان) مرة كل أسبوع ، حيث كانت تلتقى بعشيقتها .. وما انقضى شهر ، حتى بدا أنها أحرزت تقدما كبيرا فى العزف !!

الفصل الخامس

• كان اليوم الذى خصص للدراسة هو يوم الخميس من كل أسبوع .. فكانت تنهض من نومها وترتدى ثيابها فى هدوء ، حتى لا توقظ « شارل » الذى كان ولابد سيدهش ، لأنها تتأهب للرحيل فى وقت جد مبكر ! .. وكانت بعد ذلك تروح وتجيء ، وتذهب إلى النواغذ فتطل على الميدان .. والفجر الوليد يحبو بين أعمدة السوق ، وبيت الصيدلى ، حيث تكون المصاريع مغلقة .. وعلى ضوء الفجر الشاحب ، تبدو الحروف الكبيرة التى كتبت بها لافتة الصيدلى .. فاذا ما أشارت الساعة إلى الربع بعد السابعة ، قصدت إلى فندق « الأسد الذهبى » ، فتفتتح لها « ارتميز » بابها وهى تتأهب ، ثم تحرك لها الفحم القابع تحت رمال المدفأة .. وتبقى « ايها » فى المطبخ وحيدة ، تخرج من آن لآخر ، و « هيفير » يسرج جواده فى تراخ ، مصغيا — بجانب ذلك — إلى الأم « لوفرانسوا » التى تدفع

راسها بقلنسوة النوم القطنية خلال كوة ، وتكلفه بالمهام ، وترهقه بإيضاحات كانت كقيلة بأن تثير غيظ أى إنسان آخر .. ونظّل « ايبا » تدق رصيف الغناء بنملى حذاءيها .. وأخيرا ، يرتدى الحوذى معطفه — بعد أن يكون قد تناول حساءه — ويشعل غلبونه ، ويتبض على سوطه ، ثم يستقر على متعده فى « العصفورة » ، فتبدا هذه رحلتها فى خطى بطيئة ، متوقفة هنا وهناك — خلال الميل الأول — لتلتقط المسافرين الذين يكونون فى انتظارها وقونا على حافة الطريق ، امام ابواب افنية دورهم .. وكان الذين حجزوا لأنفسهم مقاعد فى الليلة السابقة ، يتركون العربة تنتظرهم .. بل كان منهم من ينتظرها وهو فى سريه ، داخل داره .. فكان « هيفير » ينادى ، ويصيح ، ويمصّب ، ثم يهبط عن متعده ، ويطرق الأبواب فى عنف .. والرياح تصفر خلال شقوق نوافذ العربة ..



● وإذ تملى المقاعد الأربعة ، تنطلق العربة ، وصوف اشجار التفاح تتتابع ، والطريق بين خطى الخنادق المليئة بالماء الأصفر — لرى هذه الأشجار — تبدا مائلة إلى الضيق باطراد كلما قاربت الأفق .. وكانت « ايبا » قد عرفت هذه الطريق من أولها إلى نهايتها ، فكانت تعلم أن ثمة علامة من علامات الطريق تقوم بعد منطقة من المراعى ، تطلوها شجرة دردار ، ثم أحد الإهراء (شونة) ، وكوخ أحد الفلاحين العاملين فى الحقول .. بل إنها كانت أحيانا تغمض عينيها أهلا فى المفاجآت . ولكنها كانت لا تخفق أبدا فى التكهّن بما يطوى من مسافات

.. وأخيرا ، تبدا البيوت المبنية بالطوب فى القتابع ، وتزداد تقاربا ، ويسمع للمجالات صوت خاص — إذ تدلف إلى الطرق المرصوفة — ثم تنساب « العصفورة » بين حدائق يرى المرء خلال فرجاتها تماثيل ، واحدى عرائس الكروم ، وأشجار « الشوحت » المقلمة ، وأرجوحة .. ثم تظهر المدينة فجأة ، متدرجة فى الانحدار كما لو كانت مدرجا فى احد الملاعب ، وقد غرقت فى احضان الضباب .. وتنبسط بعد الجسور ، متسعة فى فوضى .. ثم يمتد الريف بعد ذلك ، فى استرسال رتيب ، حتى يمس — على البعد — الخط المانع الذى تلتقى عنده السماء الباهتة بالأرض .. وكانت المنطقة تبدو من عل جامدة ، كلوحة مرسومة .. وقد تجمعت السفن الراسية فى أحد أركانها ، وتلوى النهر حول سفوح التلال الخضراء ، واستلقت الجزر فى أوضاع منحرفة ، وسط الماء ، كأنها أسماك ضخمة ، ساكنة ، سوداء .. ومداخل المصانع تفتت سحبا بنية هائلة من الدخان ، تنتشر فى الفضاء .. وهدير المسابك يسمع مختلطا بالرنين الجلى المنبعث من اجراس الكنائس القائمة وسط الضباب .. والأشجار العارية عن الأوراق فى الطرقات ، تبدو — على بعد — متجمعة كأكراش بنفسجية وسط البيوت ، والسقوف اللامعة بماء المطر تعكس بريقا غير متعادل ، تبعا لارتفاع الاحياء التى تقوم فيها .. وأحيانا ، تهب نسمة من ربح ، فتدفع السحب نحو تلال (سائنت كاترين) ، كأنها موجات هوائية تتكسر فى صمت على صخرة شاهقة ..

وكان يخيّل لإيما أن لونا من الزهو يواتيها من هذه الكتلة

أن يراها أحد ، بل كانت تضرب في الصواري المعتمة ، حتى تبلغ نهاية شارع (ناسيونال) — على مقربة من النافورة — وهي تتصيب عرقا .. كان ذلك حى المسارح ، والحانات ، والغانيات .. وكمن مرة كانت تمر بها عربة بداخلها منظر منكر ! .. بينما ينهك خدم المشارب — في مراولهم — في نثر الرمل على البلاط ، بين الشجيرات الخضراء ، والجو يعبق بروائح الكحول ، والسيجار ، والمخار ..

وتتحرف إلى احد الشوارع .. ثم تعرفه بشعره المجعد المناسب من تحت قمعته .. ويسير « ليون » على الرصيف ، وهي في أثره ، حتى الفندق ، فيصعد ، ويفتح الباب ، ويدخل .. وياله من عناق ! .. ثم تنساب الكلمات دافقة بعد القبلات .. ويحدث كل منها الآخر بمتاعب الأسبوع ، وهو اجس القلب ، واللحفة إلى الخطابات .. على أن كل شيء كان لا يلبث أن يغدو منسيا ، ويروح كل منهما يحملق في وجه الآخر ، وينطلق في ضحكات داعرة ، ويناديه بارق الاسماء !

وكان السرير واسعا ، من خشب المهوجاني ، على شكل قارب ، والستائر من حرير الشرق الأحمر ، تنسدل من السقف ، وتنتفخ كثيرا وهي تقترب من رأس الفراش الشبيه بالناقوس .. وما كان في الدنيا ما هو أجمل من شعر « اينا » البنى وبشرتها البيضاء ، وسط هذا اللون القرمزى — الذى تصفيه الستائر — عندما تثني ذراعيها العاريتين في حركة مستحبة لخفى وجهها في راحتها .. وكأنها كانت الحجرة الدافئة — بستائر السبيكة ، وزخرفها البهيج ، وضوءها

من الوجود ، فينتفخ فؤادها ، وكان المائة والعشرين الف قلب — التى تخفق في المدينة — قد نفثت في هذا الفؤاد ما تعمر به من عواطف مشبوبة ! وينمو حبها ازاء هذا الفضاء الشاسع ، ويزخر قلبها بصخب ازاء الطنين المبهم الذى يترامى إليها من البلدة ، فتروح تسكب بدورها ما يقم به قلبها ، وتفيض منه على الميدان ، والطرق ، والشوارع .. وتمتد أمامها هذه المدينة العريقة — من مدن نورماندى — كما لو كانت عاصمة ضخمة .. أو كأنها « بابل » توشك أن تدخلها ! .. وتميل على نافذة ، معتمدة على كلتا يديها ، لتعب من التنسيم .. وتأخذ الجياد الثلاثة في الركض على الأرض المرسوفة بالحجار التى يكسوها الوحل ، والعربة ترتج ، و « هيفير » يحيى عن بعد العربات التى تجرى في الطريق ، بينما ينحدر الاهالى الذين قضوا ليلتهم في غابة (جيوم) ، على السفح في هدوء ، مستقلين عربات أسراتهم ..

● وتقف العربة عند السياج ، فتطلع « اينا » الوقائع اللذين يحيطان بخذايعها ، وترتدى قمازيها ، وتسوى من شالها ، ولا تلبث أن تغادر « العصفورة » .. فاذا المدينة تنفض عنها السبات ، وعمال المناجر ينظفون — في قلنسواتهم — واجهات الحوانيت ، وبعض النسوة قد حملن سلالا استدنهن إلى اردافهن ، ورهن ينادين بأصوات جهورية عند ناصيات الشوارع في فترات .. وتسير « اينا » لصق الجدران ، وقد نكست عينيها ، وراحت تبسم في غبطة تحت قناعها الأسود . ولم تكن تسلك أقرب الطرق — في العادة — خشية

الهادىء - قد خلقت للخلوات المشبوبة ! .. وكانت القصبات
التي علقت إليهما الستائر ، والتي كانت تنتهى من الطرفين
بسمهين ، والحلقات النحاسية ، والكرتان الكبيرتان المعلقتان
فوق المدفأة ، تبرق فجأة حين تتسلل الشمس إلى الغرفة . .
وبين الشمعدانين القائمين على رف المدفأة ، كانت ثمة محارتان
كبيرتان من ذلك النوع الذى يخيّل للمرء ، إذا ما لصقه بأذنه ،
أنه يسمع خرير البحر ! .. ما كان أقوى حبهما لهذه الحجرة
الغالية ، المفعمة بكل هذه البهجة ، رغم روائها الخايب ! ..
كانا دائما يجدان قطع الأثاث فى أماكنها المهدودة ، بل كانا
أحيانا يجدان دبابيس الشعر التى تكون قد نسيتهما فى يوم
الخبيس السابق ، عند قاعدة الساعة . . وكانا يتناولان
الفداء إلى جوار المدفأة ، على منضدة صغيرة مستديرة ،
مرصعة بخشب الورد . . وكانت « ايما » تقطع اللحم ، وتنقل
قطعا إلى طبقه ، بكل ألوان الحركات الخليعة ، وترسل
ضحكات رنانة منغممة إذا سال زبد الشمينانيا من الكوب إلى
الخواتم التى تحيط بأصابعها . . وكان كل منهما ينتشى بقرب
الأخر ، حتى ليخال أنه فى بيتهما ، وأنهما سيعيشان معا حتى
الموت ، كقرينيين كتب لهما الشباب أبدا ! .. وكانا يرددان فى
أحاديثهما : « غرفتنا » ، و « سجادتنا » . . بل كانت تقول
« خفى » ، وهما خفان أهداهما إليها « ليون » ، فكانت تشعر
بلذة فى انفعالهما . . كانا من الحرير الوردى ، يحيط بكل منهما
إطار من زخارف نقشت على شكل البجعة . . وكانت إذا
ما جلست على ركبتيه ، تتدلى ساقاها فى الهواء - لتصرهما فى

هذا الوضع - فلا يمسك الخف الأنيق ، إلى قدمها العسارية ،
سوى أطراف أصابع القدم !

أما هو ، فقد نعم للمرة الأولى بألوان اللطف الأنثوى التى
لا سبيل إلى وصف عذوبتها . . أبدا لم يصادف من قبل هذه
اللغة الرقيقة ! ولا هذه الألوان من الثياب المستقرة ، ولا هذه
الأوضاع التى يملأها عليها الطيش فى نعاسها . . وكان يعجب
بما تزخر به نفسها من غواية ، وما يزدان به قميصها من
« دانتيلا » ! .. ثم ، ألم تكن سيدة مجتمع وزوجة ! ..
وعشيقة صادقة ، أخيرا ؟

وبتأنيب مزاجها - من مزاج ورع ، إلى مرح ، إلى ثرثار ،
إلى صامت ، إلى منفعل مشبوب ، إلى مستهتر - أيقظت فيه
الف رغبة ، وأثارت الغرائز والذكريات . . كانت تمثّل العشيقية
فى كل رواية ، والبطلية فى كل مسرحية . . و « هي » الغامضة ،
المبهمة ، فى كل دواوين الشعر . . وعلى كتفها ، تراءى له
ذلك اللون الكهرمانى الذى كان قد رآه فى لوحة « جارية فى
الحمام » ! .. ورأى فى جسدها ذلك الخصر الطويل الذى
كان طابع سيدات القصور فى العصور الاقطاعية ، كما كانت
تشبه « حسناء برشلونة الشاحبة » . . على أنها كانت فوق
كل هذا ! « الملاك » ! .. وكثيرا ما كان يخيّل إليه ، وهو
يتأملها ، أن روحه تنطلق نحوها ، فتنتشر كعوجة حول حدود
رأسها ، ثم تهبط مجذوبة إلى نحرها . . وكان يركع أمامها على
الأرض ، ويعتمد بمرمقيه على ركبتيها ، ويروح يقطع إليها
بابتسامة ، مشربها بعنقه ! .. وكانت هى تنحنى عليه ، وتغمغم
والنشوة تخفقها : « آواه ، لا تتحرك ! لا تتكلم ! انظر إلى ! ..

من عينيك تنبث حلاوة تمنعنى ! » .. وكانت تدعوه بالطفل ، فتقول : « او تحبى يا طفل ؟ » .. ولم تكن تسمع جوابه ، إذ تسرع بالصاق شفتيها بشفتيه !

وكان فوق الساعة تمثال برونزى لكوبيد بمتسا ، وهو يثنى ذراعه تحت غصن ذهبي .. انهما كثيرا ما ضحكا لمظهره ، ولكنه كان يبدو لهما إذا حانت ساعة الفراق ، حزينا عابسا ! .. وكان يرددان وهما يقفان متقابلين ، لا يحيران حراكا : « إلى الخميس القادم .. إلى الخميس ! » .. وكانت تحتوى رأسه بين راحتيهما فجأة ، وتطبع قبلة متعجلة على جبينه ، وتصيح : « وداعا ! » .. ثم تندفع إلى المسلم ، فتيمم شطر شارع (لا كوميدى) ، لدى حلاق ينسق لها شعرها . ويهبط الليل ، فيوقد مصباح الغاز فى حانوت الحلاق ، وتسمع جرس المسرح المواجه يدعو الممثلين إلى الظهور ، وترى رجالا ذوى وجوه بيضاء ، ونساء ذوات زينة خابية ، يلجون خلال الباب المفضى إلى « الكواليس » .. وكان الجو حارا فى ذلك الحانوت الصغير ذى السقف الشديد الانخفاض ، حيث كانت المدفأة — التى توقد بغاز الاستصباح — تنثر وسط الشعور المستعارة والدهون . وكانت رائحة ملاقط كى الشعر ، مع رائحة اليدين الملطختين بالزيوت واللبن تعالجان شعرها ، لا تلبثان أن تخدراها ، فتغفو قليلا ، تحت يدي الحلاق .. وكثيرا ما كان الرجل يقدم لها — وهو ينسق شعرها — تذاكر لحفلات رقص تنكرية !

وكانت تنصرف بعد ذلك ، فتجتاز الطرق حتى تبلغ فندق الصليب الأحمر ، حيث تكون « العصفورة » فى الانتظار ، تحتبط

حذاءها بالوقامين اللذين دستهما تحت المقعد فى الصباح ، وتندس فى مجلسها بين المسافرين النافدى الصبر . وكان بعضهم يبارح العربية أسفل التل ، فبقى « ايما » وحيدة .. وأضواء البلدة تزداد جلاء كلما مضت العربية فى طريقها فوق السفح ، فتنبث غلالة كبيرة منيرة فوق البيوت المعينة .. وترتك « ايما » فوق الوسائد ، وترسل بصرها يحوم فوق الأضواء المتألقة .. وتبكي .. وتنادى « ليون » .. وتنبث إليه مع الريح — بارق المنجاة وأعذب القبلات .. وكان ثمة متسول مخبول يهيم على السفح ، ضاربا بعصاه بين عربات البريد ، تغطى منكبيه كومة من الأسفال ، ويخنى وجهه وراء قبة من جلد كلب البحر ، تبدو كومة مقلوب فاذا رفعها ، كشف فى مكان الجفنين عن ثقبين غائرين ملطخين بالدم ، وقد تمزق لحمهما أريا حمراء تتدلى وتنزى بسوائل تنساب فى خط أخضر على طول الأنف الذى كانت مفتحة تخطجان فى حركات تشنجية ! .. ولكن يتحدث إليك ، كان يطوح رأسه إلى الخلف فى ضحكة مخبولة ، ثم يدور إنسانا عنيبه — الضاريان إلى الزرقعة — فى حركة مستمرة ، مندفعين نحو صدغيه ، على حانة الجرح المنكوء .. وكان يردد وهو يتبع العربات أغنية قصيرة : « دفء الأيام الجميلة كثيرا ما يوحى إلى العذارى بأحلام الهوى » .. ويدور باقى الأغنية حول الطيور ، والشمس المشرقة ، وأوراق الشجر الخضراء ..

وكان — فى بعض الأوقات — يظهر نجاة وراء « ايما » وهو عارى الرأس فتجفل صارخة .. ويسخر منه « هيفير » ، وينصحه بأن يستاجر خيمة فى مهرجان « سان رومان » أو

يسأله ضاحكا عن صحة عشيقته ! وكثيرا ما كانت العربية تتحرك ، فاذا تبعته تندفع إلى داخلها بحركة مفاجئة من يده ، خلال النافذة الصغيرة ، بينما يتعلق بذراعه الأخرى بحانة العربية ، بين المجلات التي تثر الوحل .. وينبعث صوته في البداية واهنا ، مرتجفا ، ثم يزداد حدة ، ويدوى في الليل كائنين غامض ينبعث من شخص محزون .. وقد أوتى ريننا ينطلق إلى مدى بعيد بين دقات الأجراس ، وحفيف الأشجار ، وقرقرة العربات الفارغة ، فيثير الاضطراب في نفس «ايما» ، ويتغلغل إلى أعماقها ، كاعصار في هوة سحيقة ، ويحبلها إلى مفازات من الأسى لا حدود لها ! .. ولكن « هيغير » كان لا يلبث أن يشمر بثقل في مؤخرة العربية ، فيلهب الأعمى بسوطه ، ويمس طرف السوط جراحه ، فيهوى في الوحل صارخا .. ولا يلبث أن ينتهي الأمر بركاب « العصفورة » إلى النوم ، فمنهم من يغرق في نوم ، ومنهم من يحض ذقنه على صدره ويرتكز إلى كفف جاره ، أو يدس ذراعيه خلف حزام العربية ، ويروح يهتز مع ارتجاجاتها .. وضوء المصباح الذي ينمى متذبذبا على كفل الجواد القريب ، ينساب إلى داخل العربية خلال الستائر المصنوعة من خيش بني ، فيلقى ظلالات دموية على أولئك الجامدين في أماكنهم جميعا .. وكانت « ايما » المستغرقة في أسائها ، ترتجف تحت ثيابها ، وتحس بقدميها تزدادان برودة باطراد ، وبالموت يجثم على نفسها !

● ويكون « شارل » في انتظارها في البيت .. وكانت « العصفورة » تتأخر دائما في أيام الخميس .. وتصل السيدة

إلى دارها أخيرا ، فتقبل طفلتها في ازورار .. ولا يكون المشاء بعدا ، فلا تحفل ، بل تلتبس للخادم عذرا ، فقد أصبحت الفتاة تتصرف كما يحلو لها ! .. وكثيرا ما كان زوجها يسألها — إذ يلاحظ شحوبها — عما إذا كانت تحس وعكة ، فتقول : « لا » .. ويرد قائلا : « ولكن شكك غريب الليلة ! » .. فتجيب : « آه ، لا شيء ! .. لا شيء ! » .. بل كانت في بعض الأيام لا تكاد تلج الدار حتى تصعد إلى مخدعها .. وقد يكون « جوستان » هناك مصادفة ، فيروح ويغدو في هدوء ، مبادرا إلى خدمتها خيرا من أفضل وصيفة .. فيضع الثقاب والشمع وكتايا في متناول يدها ، ويسوى قميص نومها ، ويقلب أغطية السرير .. ولا تلبث أن تقول : « كفى ! .. تستطيع أن تنصرف ! » ، إذ كان يظل واقفا ، ويدها متديلتان إلى جانبيه ، وعيناه مفتوحتان على وسعتهما ، وكأنهما مشدودتان إلى خيوط لا عداد لها تنبعث من طيف باغته !

وكان اليوم التالي ينفذ فظيما ، والأيام التي تعقبه أشد منه وطأة ، بسبب الضيق الذي يستبد بابها لحربانها من السعادة .. وكان الشوق المتأجج ، الذي تذكى صور تجارب الماضي ، ينطلق من أساره في اليوم السابع ، في احضان « ليون » .. أما هو ، فكانت وقدة شبقه تتوارى خلف نورات العجب والشعور بالجميل .. وكانت « ايما » تتذوق غرامه في رزانة واستغراق واستيعاب ، وتستيقه بكل حيل هزائنها وفنون عواطفها ، وترتجف خشية أن تفقده فيها بعد .. وكثيرا ما كانت تقول له بصوتها المذبذب الشجي : « آه ! .. لسوف تهجرني يوما ! .. لسوف تتزوج ، وتفعل ما يفعله الآخرون ! »

.. يسألها : « اى آخرين ؟ » .. وتجيب : « عجباً ، ككل الرجال » .. ثم تردف وهى تصده بحركة واهنة : « انكم جميعاً اردال انجاس ! »

وفىما كانا يتحدثان يوماً متفلسفين عن ألوان الخيبة التى تصيب الأوهام فى الدنيا ، إذا بها تنبئه بأنها — فيما مضى — كانت موضع حب شخص آخر .. قبله .. وكأنها ارادت أن تختبر غيرته ، أو لعلها كانت منساقمة وراء قوة لا قبل لها بمقاومتها ، تدفعها إلى أن تفضى بدخيلة قلبها .. ثم اردفت بسرعة : « لم يكن على شاكلتك » .. وراحت تقسم برأس ابنتها على أنه لم يجر بينها شيء ! .. وصدقها الشاب ، ولكنه مع ذلك راح يسألها ليعرف شيئاً عنه .. فقالت : « لقد كان ريان سفينة يا عزيزى ! » .. أفلم يكن هذا رادعاً عن كل تساؤل ، محققاً لها فى الوقت ذاته مكانة رفيعة ، لكونها استطاعت أن تفرض سحرها على رجل كان ولا بد ذا فطرة محاربة ، وكان معتاداً ان يتلقى الاكرام والولاء ، لا ان يقدمها !

● إذ ذاك شعر الكاتب بضعة مركزه ، وتاق إلى الأشرطة التى تزين اكتاف الضباط ، وإلى الصليبان ، والانقاب .. كل هذا الابد ان يسرها .. فهكذا أدرك من عاداتها المبنية على الاسراف ! .. ومع ذلك ، فقد كانت تخفى كثيراً من نزواتها المبهرة ، كرهبتها فى ان تقتنى عربة خفيفة زرقاء ، تقلها إلى (روان) ، ويجرها جواد إنجليزى ، ويقودها حوذى يلبس حذاءين من النوع ذى العنق العالى .. وكان « جويستان » هو

الذى أوحى إليها بهذه النزوة ، إذ راح يتوسل إليها أن تلحقه بخدمتها كوصيف .. وإذا كان الحرمان من هذه الرغبة لم يقو على ان يقتل من سرورها بوصولها إلى موعد اللقاء فى كل مرة ، الا انه كان يضاعف من أساها فى العودة .. وكثيراً ما كانت تغتم حين يتحدثان عن باريس : « آه ! .. شدة ما نسعد إذا عشنا هناك ! » فيجيبها « ليون » متسائلاً فى رفق ، وهو يدس يديه فى شعرها : « أولسنا سعيدين ؟ » .. فتقول : « بلى ، حقاً .. أننى مجنونة .. الا قبلنى ! »

وازدادت تطلقاً إلى زوجها عن ذى قبل ، فهاصبحت تصنع له « الكريمة بالفسق » ، وتعزف له الحان « الغالس » بعد العشاء ، حتى خال نفسه أسعد الناس حظاً ، وظلت « أيما » تعيش دون ما شيء يثير قلقها ، حتى كان ذات مساء ، إذ سألها فجأة : « إن مدموازيل لامبرير هى التى تلفتك الدروس .. أليس هي ؟ » .. قالت : « بلى ! » .. فأردف قائلاً : « حسناً ! .. لقد قابلتها منذ هنيهة فى منزل مدام « الليجار » ، وحدثتها عنك ، فلم تعرفك ! » .. وكأنها انقضت عليها صاعقة ، ولكنها مع ذلك أجابت فى هدوء طبيعى : « آه .. لا شك أنها نسيت اسمى » .. قال الطبيب : « أو لعل هناك أكثر من مدموازيل لامبرير واحدة ، يدرسن الموسيقى فى روان ! » فبادرت قائلة : « ربما ! .. ولكنى احتفظ بالايصالات هنا .. انظر ! » .. وسارت إلى المكتب ، فنقبت فى كل ادراجة ، وبعثرت الأوراق ، ثم جن جنونها أخيراً حين لم يرجعها شارل — فى الحاح — أن لا تزج نفسها بأمر هذه الايصالات .. وقالت : « آه .. سابحت عنها »

وقد كان .. تبينها كان « شارل » يدس قدمه في أحد الأحذية التي كانت في الخزانة المظلمة التي اعتاد أن يحفظ فيها ثيابه ، إذا به يشعر بقصاصة ورق بين جوربه وجلد الحذاء ، فتناولها ، وقرا فيها : « تسلمت مبلغ ثلاثة وستين فرنكا عن دروس موسيقية لثلاثة أشهر ، وعدد من القطع الموسيقية - فيليبس لامبرير ، معلمة موسيقى » .

— كيف بحق الشيطان ، قدر لهذا أن يكون في حذائي ؟
فاجابت : « لا بد أنه وقع من الصندوق الورقي القديم الذي نحفظ فيه بأوراق الحساب ، والذي نضعه على حافة الرف » .

● منذ تلك اللحظة أصبح وجودها مجموعة متصلة من الأكاذيب ، التي كانت تلف فيها هواها ، كما لو كانت اقنعة تخفيه .. كان الكذب ضرورة ، بل هواية ، بل لذة يحلو المضي فيها إلى درجة أنها إذا قالت إنها سارت في اليوم السابق على الجانب الأيمن من الطريق ، وجب على المرء أن يدرك أنها سارت على الجانب الأيسر ! .. وذات يوم خميس ، بذات السماء تمطر جليدا على حين غرة ، بعد خروجها في ثياب خفيفة كعادتها ، وبينها كان « شارل » يرقب الجو خلال النافذة ، لمح الأب « بورنيسيان » في عربة السيد توفاش الخفيفة ، في الطريق إلى (روان) ، فهبط واعطى القس شالا سميكاً سأل أن يسلمه إلى زوجته بمجرد وصوله إلى فندق « الصليب الأحمر » .. فلما بلغ السيد « بورنيسيان » الفندق ، سأل عن زوجة طبيب (ايونفيل) ، ولكن ربة الفندق ذكرت له أنها نادرا ما تند على

نزلهما . ومن ثم فإن القس حين رأى مدام « بوفارى » في « العصفورة » — في ذلك المساء — أنبأها عن ورطته ، وإن لم يبد عليه أنه علق على الأمر أهمية كبيرة ، إذ لم يلبث أن تحول بطورى واعظا كان يفعل العجائب في الكاتدرائية ، واصبحت السيدات جميعا يحرصن على سماعه ! .. وإذا كان القس لم يطلب منها أى تفسير ، إلا أن غيره قد يكون أقل منه رزاة ، فيها بعد . ومن ثم اعتزمت أن تنزل في فندق « الصليب الأحمر » في كل مرة ، حتى لا يرتاب أحد من أهل قريتها إذا رآوها على سلمه !

غير أن السيد « لوريه » التقى بها يوما وهى تغادر فندق « بولونى » ، متكلة إلى ذراع « ليون » ، فجزعت إذ ظنت أنه لن يلبث أن يشى بها . ولكنه لم يكن حيوانا « مجردا من العقل » ! .. ومع ذلك فقد زارها في غرفتها بعد ثلاثة أيام ، وأغلق الباب ، ثم قال : « اننى في حاجة إلى نقود ! .. » فصارحته بأنها لا تملك أن تعطيه شيئا ، فانفجر يكيل لها اللوم ، ويذكرها بكل ما أبداه لها من مراعاة ومعروف .. إذ أن « إيما » لم تكن قد سددت — حتى ذلك الحين — سوى قيمة سند واحد من السندين اللذين وقعهما « شارل » .. أما السند الثانى ، فقد قبل التاجر — برجاء منها — أن يستبدل به آخر ، جدد بدوره إلى أجل بعيد . وما لبث أن أخرج من جيبه قائمة يسلم لم تدفع ثمنها ، هى السقائر ، والسجاد ، وقماش لكسوة المقاعد الوثيرة ، وعدة أثواب ، ومجموعة من أدوات التزيين .. وكانت اثمنها تبلغ ألفى فرنك ! .. ونكست « إيما » رأسها ، وهى تسمع حديثه ! « ولكن .. إذا لم تكن لديك نقود

حاضرة ، غانت تملكين عقارا » .. وذكرها بيت صغير متداع
تمس في (بارنفيل) — على مقربة من (اومال) — لم يكن ذا
قيمة تذكر ، وقد كان فيها مضى جزءا من مزرعة صغيرة ياعها
السيد « بوغاري » الأب ، لكنه استبقاه لنفسه من دونها ،
فورثه ابنه عنه .. وهكذا كان « لوريه » يعرف كل شيء ..
حتى مساحة الأرض بالهكتار ، واسماء الجيران !

وما لبث أن استطرد قائلا : « لو أننى في مكانك ،
لخلعت نفسي من الديون ، وحصلت فوق ذلك على مبلغ من
المال » .. فاشارت إلى صعوبة العثور على مشتر ، ولكنه
اوحى إليها بالأمل في أن يعثر على واحد ، فاستفسرت منه عما
تفعله لتتمكن من البيع .. وسألها : « اليس لديك تفويض ؟ »
.. وهبت عليها الكلمة الأخيرة كنسمة غيلة ، فقالت : « دع
لى قائمة الحساب » .. وأجاب لوريه : « آه ، أنها ليست
ذات بال » ! .. وما لبث أن عاد في الأسبوع التالي ، وراح
يزهى بأنه — بعد كثير عناء — قد وقع أخيرا على سيد من آل
« لانجوا » ، كان يرمى العقار منذ زمن طويل ، ولكنه لم
يعرض بعد ثمنها .. فصاحت : « لست أحفل بثمن معين ! » ..
على انها اضطرا — على العكس — إلى أن يتريثا ، ليتعرفا
بدى استعداد ذلك الرجل .. وكان الأمر يستلزم رحلة ، ولما
لم تكن تملك القيام بها ، فقصده عرض « لوريه » أن يذهب إلى
الموقع ليراه مع « لانجوا » .. وحين عاده ، ذكر أن المشتري
عرض أربعة آلاف فرنك ، فاشرق وجه « ايماء » لنبا ، وعقب
لوريه قائلا : « واعتقد صراحة أنه ثمن طيب ! » ..

وحصلت على نصف المبلغ فوراً ، فلما همت بأن تسدد

حسابها ، قال لها التاجر : « إنه ليحزننى — بشرق — أن أراك
تحرمين نفسك من مبلغ كبير كهذا في التو ! » .. ونظرت
إذ ذاك إلى الأوراق المسالية ، وراحت تحلم بالخلوات التي
لا حصر لها ، والتي يمكن أن تتيحها هذه الفرنكات الألفان ..
وقالت متلعثمة : « كيف ؟ .. كيف ؟ » ، فضحك متظاهرا
بالطيبة ، وقال : « آه ! .. إن المرء يستطيع أن يضيف إلى
قوائم الحساب كل ما يريد ! .. أولست أعرف كيف تدبر
البيوت ؟ » .. ورمتها بنظرة لا تحيد ، وهو يمسك بورقتين
طويلتين راح يعبث فيهما بأظفاره ، ثم فتح حافظته في النهاية ،
وبسط أربعة سندات « تحت الطلب » ، قيمة كل منهما ألف
فرنك ، وقال : « وقمى هذه ، واحتفظى بالمبلغ » .. فشقت
في استنكار .. فقال في وقاحة : « إذا أعطيتك كل ما يفيض
عن الدين ، أفلا أكون قد أديت خدمة ؟ » .. وتناول قلما ،
فكتب تحت قائمة الحساب : « تسلمت من مدام بوغاري أربعة
آلاف من الفرنكات » ..

— الآن ، من يملك أن يزعجك ، ما دمت ستتقاضين خلال
سنة أشهر ما تبقى من ثمن كوخك ، وما دمت سأرجى موعد
استحقاق السند الأخير حتى تتسلمى المبلغ ؟

وأزداد ارتباك « ايماء » بالمعاملات الحسابية ، وسمعت
طنينا في أذنيها كأنه رنين العملة الذهبية التي تنساب من
أكياسها متناثرة حولها على الأرض .. وأخيرا ، أنبأها « لوريه »
بأن له صديقا حميما يدعى « غانكار » — صرافا في (روان) —
على استعداد لأن يدفع قيمة السندات الأربعة مقدما ، وإذ ذاك
سبيلهما ما يزيد على قيمة الحساب ..

ولكنه بدلا من احضار الالفى فرنك ، لم يحضر سوى الف وثمانمائة ، لأن صديقه « فانكار » — وكأنها كان صادقا في زعمه — قد اقتطع مائتى فرنك كعمولة وفائدة عن الخصم . ثم طلب منها — في تظاهر بعدم الاكتراث — أن تكتب له ايصالا ، وهو يقول : « انك تدركين . . انه في المسائل التجارية . . أحيانا . . » ثم استدرك : « . . اكتبى التاريخ من فضلك . . التاريخ » .

● تفتح أمام « ايماء » أفق من الأهواء التى يمكن تحقيقها ! على أنها كانت من الحكمة بحيث استبقت — من قبيل الحيلة — الف دينار (١) ، استطاعت أن تدفع منها السندات الثلاثة الأولى . . على أن الرابع استحق الدفع في أحد أيام الخميس — بمصادفة — فراح « شارل » ينتظر بصبر ناقد ، واستياء بالغ ، عودة زوجته ليسألها أيضاها للأمر . . وقالت له — حين عادت — إنها إذا لم تك أنباته بأمر هذا السند ، فانيما لتجنبه الشواغل المنزلية . . وجلست على ركبتيه تعانقه ، وتداعبه ، وتعدد له — في قائمة طويلة — كافة الأشياء التى لا غنى عنها ، والننى اضطرت إلى أن تحصل عليها بالنسيئة . . وقالت :

(١) تذكر ذكر « الدينار » في الكتابين الاول والثاني من ترجمة الرواية ، بحيث غدا من حق القارئ أن يعرف شيئا عن أصل هذا التعبير . فالدينار ترجمة لكلمة Écu ، وكانت تطلق على عملة فرنسية قديمة تعادل ثلاثة فرنكات ، فالالف دينار تعني ٣٠٠٠ فرنك .

« خليك بك ان تعترف انها — بالنسبة للكمية — لم تكن جد باهظة ! » . . ولم يجد « شارل » حيلة ، سوى أن يسرع إلى الاستنجاد بلوربه الخالد ، الذى تعهد بأن يسوى الأمور ، إذا وقع « الدكتور » سندان لأمره ، أحدهما بسبعمائة فرنك تستحق الدفع بعد ثلاثة أشهر . ولكى يدبر قيمة هذا السند ، كتب « شارل » إلى أمه خطابا مؤثرا . . ولكنها بدلا من أن ترسل له ردا ، حضرت بنفسها . .

وعندما أرادت « ايماء » أن تعلم ما إذا كان قد حصل على شيء منها ، قال : « أجل ، ولكنها تريد أن ترى الحساب » . . وما إن طلع الصباح التالى ، حتى هرعت « ايماء » إلى « لوربه » تتوسل إليه أن يكتب قائمة أخرى للحساب ، لا تزيد قيمتها على ألف فرنك ، إذ كان لابد — إذا اطلعتها على القائمة ذات الأربعة آلاف فرنك — أن تذكر أنها سددت ثلثيها ، وأن تعترف — إذ ذاك — ببيع العقار ، وبأن المفاوضات في هذا الصدد قد تولاهما التاجر ببراعة . . ولم تظهر قيمة جهوده فيها الا أخيرا . . (حين خرج من الصفقة بنصيب الأسد !) .

وجاءت الساعة المحتومة التى تعين أن تناقش فيها الحياة زوجة ابنها الحساب !

وعلى الرغم من السعر الزهيد الذى كتب إمام كل سلعة ، فإن الحياة كانت خليقة بأن ترى إسرافا في الإنفاق : « أو لم يكن من الممكن أن تستغنى عن السجادة ؟ . . ولماذا أعددت كسوة المقاعد ؟ . . لقد كانوا يكتفون — في أيامى — بمقعد وثير واحد في البيت ، للمسنين . . أو هكذا كان الأمر في بيت

امى ، واؤكد انها كانت امرأة سالحة .. ليس فى وسع الناس جميعا ان يكونوا اغنياء ! .. فليس لثروة من بقاء ازاء التبديد ! .. اننى كنت خليفة بان اخجل ، لو اننى دللت نفسى كما تفعلين ، مع اننى مسنة ، وفى حاجة إلى عناية ! .. ثم ، ما هذا ؟ .. عجباً ! .. إصلاح اثواب ! تبذير ! عجباً ! .. حرير للبطانة ، فى حين ان بوسمك الاكتفاء بقماش من « الشيت » بعشرة سنتيمات ، بل بثمانية ! .. وكانت « ايبا » تجيب فى هدوء ، وهى مضطجعة على اريكة : « آه ! كفى يا سيدتى ! كفى ! » .. ولكن الأخرى مضت تلتقى عليها محاضرة ، متنبئة بأنها سينتهيان إلى ملجأ ! .. واستطردت قائلة ان الذنب — مع ذلك — كان ذنب « بوفارى » ، وأنه وعد لحسن الحظ بان يافى التوكيل الرسمى .. فهتفت ايبا : « كيف ؟ » .. وقالت الحباة : « آه ! لقد اقسام لى ان يفعل ! » .. ففتحت « ايبا » النافذة ، ونادت « شارل » .. واضطر الابن المسكين إلى ان يعترف بان امه انتزعت منه الوعد .. فغابت « ايبا » ، ثم عادت مسرعة ، وهى تقدم لها فى شمم صفحة من ورق سميك ، فقالت المجوز : « شكرا لك » .. والقت بعقد التوكيل الرسمى إلى النار !

وانطلقت « ايبا » تضحك .. ضحكة حادة ، منكرة ، متواصلة .. إذ تولتها نوبة انفعال عصبى .. وصاح شارل بأه : « اواه ، يا الهى ! .. آه ! انك لعمر الحق قد اخطأت ! .. افتاتين إلى هنا لكى تتشاجرى معها ؟ ! » .. فهزت امه كتفيتها قائلة ان هذا كله لم يكن سوى تمثيل ! .. ولكن شارل تهرد على امه — للمرة الاولى — وطلق يدافع عن « ايبا » حتى

اضطرت مدام « بوفارى » الام إلى ان تعلن عزمها على الرحيل . وبالفعل سافرت فى اليوم التالى مباشرة . وقالت عند الباب ، إذ حاول ان يثنىها : « لا ، لا ! .. انك تحبها أكثر مما تحبى .. ولك الحق ، فهذا طبيعى ! .. ايا غيها عدا هذا ، فانت وشائك ، وسوف ترى .. اتبنى لكما العافية ! .. اننى غير مستعد لان آتى فائير معها شقاقا ، كما قلت ! » .. وعلى الرغم من ذلك ، بقى « شارل » فى خجل شديد من « ايبا » ، التى لم تخف ما كانت تكنه له من ضعفة لضعف ثقته فيها . وكان لابد من توسلات طويلة ، قبل أن توافق على تولى الوكالة عنه مرة أخرى .. بل لقد صحبها إلى السيد « جيومان » لتوثيق عقد آخر ، يشبه الأول تماما !

وقال موثق العقود : « اننى ادرك ان رجل العلم لا يهلك ان يشغل نفسه بدقائق الحياة العادية ! » .. وشعر « شارل » بارتياح ازاء هذه الفكرة المريحة ، التى خلعت على ضعفه مظهر الانشغال بجلائل الأمور ، مما أثار غروره !

.. وبالفورة التى اشتعلت يوم الخميس التالى ، فى حجرتهما بالفندق ، حين اجتمعت « ايبا » بليون ! ضحكت ، وبكت ، وغنت ، ورقصت ، وطلبت شرابا ، ورغبت فى ان تدخن السجائر ، ولاحت له مسرفة ، ولكنها رائعة ، متألقة البهاء .. ولم يدر اية انفعالات — فى كل كيانها — كانت تدفعها لتتردى فى ملذات الحياة .. أصبحت محبومة ، نهمه ، داعرة ، ومضت تجوس الطرقات معه راقعة الرأس ، دون ما خوف من ان تعرض نفسها لأية فضيحة ، كما قالت .. على انها كانت فى بعض الاوقات ترتجف حين يخطر ببالها فجأة أنها قد تلتقى

برودولف ، إذ كانت ترى أنهما وإن افترقا إلى الأبد ، إلا أنها لم تتحرر تماما من خضوعها له !

● وفي إحدى ليالي الخميس ، لم تعد إلى (ايونفيل) ، فجاء « شارل » لغرط التلق ، وأبت « بيرت » الصغيرة أن تآوى إلى فراشها دون أن ترى أمها ، وبكت حتى كاد صدرها ينشق ، وانطلق « جوستان » في الطريق على غير هدى .. بل لقد ترك السيد « هومي » صيدليته .. وأخيرا ، لم يعد « شارل » يقوى على الاحتمال ، فشد — في الساعة الحادية عشرة — جواده إلى عربته الصغيرة ، وقفز إليها ، وساط الجواد ، فبلغ فندق « الصليب الأحمر » في نحو الساعة الثانية صباحا .. لكنه لم يجد لها أثرا ! .. وخطر له أن « ليسون » ربما رآها ، ولكن أين يقيم ؟ واعتبط إذ تذكر عنوان رئيسه ، فخرج إليه ليساله . وكان النهار قد انبثق ، فاستطاع أن يتبين اسمه على أحد الابواب .. وطرق الباب ، فصاح شخص من الداخل يجيبه إلى طلبه — دون أن يفتح — مضيفا بضغ اهانات لأولئك الذين يقضون مضاجع الناس في منتصف الليل !

ولم يكن للبيت الذي كان « ليسون » يقطنه جرس ، ولا مقرعة ، ولا بواب ، وراح « شارل » يدق مصاريع النوافذ بكلتا يديه ، إلى أن قدر لاحد رجال الشرطة أن يمر ، فخاف وانصرف ، محدثا نفسه : « إنني غبي ! لابد أنها تأخرت في العشاء لدى السيد لورمو » .. ثم تذكر أن لورمو لم يعد يقيم في (روان) ! فقال لنفسه : « لعلها مكنت لتعنى بمدمام دوبروي

.. ولكن ، كيف ؟ .. لقد ماتت مدمام دوبروي منذ عشرة شهور .. إذن ماين تكون ؟ .. وخطرت له فكرة ، فولوج مقهى وطلب الدليل ، واسرع يبحث عن اسم مدموازيل « لامبرير » ، فإذا بها تقيم في رقم ٧٤ شارع (دولارينيل ديه ماروكانيير) ، وإذا بلغ الشارع ، ظهرت « ايما » بنفسها في الطرف الآخر منه ، فالتقى بنفسه عليها في تهالك أكثر منه عناق ، وصاح : « ما الذي أخرك بالأمس ؟ »

— كنت مريضة — بماذا ؟ .. كيف ؟ .. أين ؟
فضغطت جبينها بيدها وقالت : « لدى مدموازيل لامبرير » .

— كنت متأكدا من ذلك ! .. كنت ذاهبا إليها ..
فقالت ايما : « آه ، لا داعي .. لقد خرجت منذ لحظات ، ولكن لا ينبغي في المستقبل أن تغلق ، فغن أحس بأنني حرة إذا علمت أن أقل تأخر يزعجك بهذا الشكل .. كما ترى ! » .. كانت هذه إحدى الحيل التي تتدرج بها لتحظى بحرية تامة في انطلاقاتها .. وكانت تستغل هذه العلل بكل بساطة ، وإلى أقصى مدى .. فإذا استبدت بها الرغبة في مقابلة « ليون » ، انتحلت أية حجة .. وإذا لم يكن « ليسون » يتوهمها في ذلك اليوم ، سمعت إليه في مكتبه .. وكان يفتبط بهذا في البداية ، ولكنه لم يعد — بعد قليل — يقوى على كتمان الحقيقة .. فلقد شكها رئيسه كثيرا من هذه الزيارات التي تصرفه عن عمله .. وكانت تقول له : « آه ، ياد ! هيا ! » .. ولكنه كان يتخلص .. ولقد طلبت إليه أن يكون كل ما يرتديه أسود ، وأن يطلق لحية مدبية ليبدو كصور الملك لويس الثالث عشر . ورغبت في

ان ترى مسكنه ، فلم يرقها ووصفته بالفقر .. وتخرج وجهه ، ولكنها لم تلاحظ ذلك .. ثم اشارت عليه بأن يبتاع ستائر حمراء ، كستائر مخدعها ، فلما اعترض بانها تبطله ، قالت ضاحكة : « آه ! آه .. انتشبت بدنائيرك ؟ » .. وكانت تضطربه في كل مرة إلى ان يروى لها كل شيء فعله منذ لقائهما الأخير . وسألته ان ينظم بعض الاشعار .. اشعارا عنها .. « قصيدة غرام » تكريما لها . ولكنه لم يفلح قط في الوصول إلى كلمة للبيت الثانى تنسجم مع القافية .. وانتهى به الأمر إلى ان نقل قصيدة من أحد الكتب ، لا ليرضى غروره ، وإنما رغبة في إرضائها .. ولم يكن يناقش آراءها ، كما كان يرضى بكل ادواقها .. حتى أنه أصبح « عشيقها » أكثر مما هى عشيقته ! .. كانت لها كلمات ناعمة وقبيلات تبهر روحه وتثير نفسه .. ترى .. اين تعلمت هذا الفساد الذى كان يصل في دنسه وفجوره إلى درجة غير عادية !

الفصل السادس

● وكان « ليون » — كلما حضر إلى (ايونفيل) خصيصا ليراها — يتناول العشاء في بيت الصيدلى في أكثر الأحيان ، فلم يلبث ان احس بانته مضطر إلى ان يدعو بدوره ، ردا لجيله .. وقد اجاب السيد هوميه : « بكل سرور ! إذ لا بد لي من ان اتعشى ذاكرتى ، التى اخذت تصددا هنا .. سنذهب إلى المسرح ، وإلى المطعم ، ونلهو ! » فغمغت مدام « هوميه » في رفق وقد خشيت عليه من الاخطار المبهمة التى قد يعرض لها نفسه : « آه ، يا صديقى الطيب ! » .

— آه ! ماذا ؟ او تظنين اننى لا اقضى على صحتى بالاقاية هنا وسط الروائح التى تتصاعد من الصيدلية باستمرار ! .. ولكن هكذا النساء دائما ! .. انهن يغرن علينا من العلم ، ويغرن علينا في الوقت نفسه من ابرا الوان اللهو ! لا يهيك الامر ، بل اطمئنى إلى ! .. لسوف اهبط في أحد الأيام على (روان) ، فننطلق معا على هوانا !

وكان الصيدلى يحرص — فيما مضى — على أن لا يستعمل مثل هذه التعبيرات ، ولكنه اصبح ينجح نهجا مرحا و « باريسيا » ، إذ خال أن هذا هو خير ذوق .. واخذ — كجارتها ، مدام بولسارى — يسأل الكاتب في فضول عن عادات العاصمة ، بل لقد اخذ يتكلم باللهجة العامية الباريسية ، ليبهز انفجار اهل القرية ! .. وهكذا دهشت « اينا » إذ قابلت — في أحد أيام الخميس — السيد « هوميه » في مطبخ « الاسد الذهبى » ، وقد ارتدى ثياب السفر — أو بالأحرى قد التفت في معطف قديم لم يدر أحد أنه كان يمتلكه — وحمل في احدى يديه حقيبة ، وفي اليد الأخرى صندوقا من حانوته ليدس فيه قدميه يدفئهما .. ولم يكن قد اقصح عن نوابه لاحد ، خشية أن يثير قلقا علما بغيابه !

وليس من شك في أن التفكير في رؤية المكان الذى قضى فيه صباه ، أثار انفعاله ، إذ لم يكف طيلة الرحلة عن الكلام . وما إن وصل حتى قفز من العربدة مسرعا ، وانطلق يسعى إلى « ليون » .. وعبنا حاول الكاتب أن يتخلص منه ، فقد جره السيد « هوميه » إلى مقهى « لانورماندى » الكبير ، فدخله في

تعظيم ، دون أن يرفع قبعته ، ظنا منه أن تعريشة الرأس في مكان عام ، عادة رفيعة !

وظلت ايما تنتظر ليون ثلاثة ارباع الساعة ، ثم اسرعت اخيرا إلى مكتبه .. وحين لم تجده تملكها الهواجس : انه لا يكثر بها ! ولابت نفسها على ضعفها .. وقضت ما بعد ظهر ذلك اليوم وهي ملصقة وجهها بزجاج النافذة (في غرفتهما بالفندق) .. اما هوميه وليون ، فكانا حتى الساعة الثانية جالسين إلى احدى الموائد .. وكانت القاعة الكبيرة قد بدأت تخلو .. كما كانت ثمة مدفاة على شكل نخلة ، تنتشر اوراقها — المصنوعة من المعدن البراق — بعرض السقف الابيض .. وخارج النافذة القريبة منهما قامت — تحت اشعة الشمس الساطعة — نافورة تنفث الماء في حوض ابيض ، حيث كانت ثلاث من جراد البحر (الجببرى) الكبير تنهط بين نباتات الرشاد والهليون ، محاولة أن تصل إلى بعض طيور السماء المتجمعة في احد الأركان .. وكان « هوميه » مغتبطا ، وإن كانت نشوته قد انبعثت عن القرف اكثر منها عن التفنات الباهظة .. ومع ذلك فان نبذ التفاح شحذ كل براعته وذكائه ، فلما ظهر البيض المطبو بالروم على المائدة ، شرع يعرض نظرياته غير الخلقية عن النساء .. كان الشيء الذي يستهويه اكثر مما عدها في المرأة هو : « الاناقة ! .. كان يعجب بالزينة المتقنة الانيقة ، في مسكن حسن الرياض .. اما من الناحية البدنية ، فلم يكن يكره الفتيات اللاتي في صدر الشباب ! .. وأخذ « ليون » يرقب الساعة في قنوط ، والصيدلى ماض في الشرب ، والاكل ، والحديث ..

وفجأة ، قال هوميه : « لابد انك تعاني وحدة قاسية في (روان) .. ولو أن عشيقتك لا تقيم على بعد كبير .. فتضرج وجه الآخر ..

— هيا ، كن صريحا .. هل تفكر أن في (ايونفيل) ..

وتتم الشاب مطلعتها .. بينما استطرد الصيدلى :

— في منزل مدام بوجارى .. كنت تفازل ..

— من ؟ — الخادم !

ولم يكن مازحا ، ولكن القروى يغلب كل حكمة ، لذلك راح « ليون » يحتج على الرغم منه ، زاعما أنه لم يكن يحب سوى السمراوات .. فقال الصيدلى : « إننى افترق على هذا ، فهن اشد شهوة ! » .. وهمس في أذن صديقه ، مشيرا إلى بعض الأعراض التي يستطيع بها المرء أن يعرف ما إذا كانت المرأة شهوانية ، بل إنه أوغل في الحديث عن بعض الصفات الشاذة لدى الأجناس .. فالإسبانية هوائية ، والفرنسية متطرفة في الخلاعة ، والإيطالية متقدة العاطفة .. وتسأل الكاتب : « والزنجية ؟ » فقال هوميه : « إنها مزاج الفنان ! .. ايها الساقى ، الينا بقدهى قهوة ! » .. فتسأل « ليون » اخيرا ، وهو نافذ الصبر : « هل تنصرف ؟ » .. فأجابه بالإنجليزية : « أجل ! »

على أنه رغب — قبل الانصراف — في أن يقابل صاحب المكان وأن يقدم إليه بعض التحيات .. وإذ ذاك زعم الشاب — كى يخلو إلى نفسه — أن لديه بعض أعمال .. فقال هوميه :

« آه ، سأصحبك » .. وظل طيلة سيرهما في الشوارع ، يتحدث إليه عن زوجته ، وأطفاله ، ومستقبلهم ، وأعماله .. وبين له كيف كانت تلك الاعمال في أسوأ حال في الماضي ، وإلى أية درجة من الكمال ارتقى بها .. وإذ بلغا فندق « بولونى » ، تركه « ليون » فجأة ، وركض طاويا درجات السلم ، غافى عشيقته في انفعال بالغ ، وما إن ذكر اسم الصيدلى ، حتى انفجر غضبها .. على أنه راح يسرد لها مبررات مقنعة .. فلم يكن الذنب ذنبه .. أو ليست تعرف « هوميه » ، فهل تصدق أنه يؤثر صحبتها ؟ .. بيد أنها أشاحت عنه ، فاجتذبتها إليه ، وركع على ركبتيه مطوقا خصرها بذراعيه ، في تهالك مغمم بالشبق والفراسة .

وكانت واقفة ، وعيناها الواسعتان المتوقدتان ترقبانه في عبوس ، بل في قسوة .. ثم غامت عليهما الدموع ، وهبط جفناها الورديان ، وأسلمته يديها . وفيما كان « ليون » يلصقهما بشفتيه ، أقبل خادم نبىء السيد بأن ثمة من يسأل عنه ، فسألت « أيا » صديقها وهو بهم بالخروج ، « أعائد أنت ؟ » .

— أجل — ولكن ، متى ؟ — في الحال !

● قال الصيدلى حين رأى ليون : « لقد أرسلت اليك الخادم لأقطع حبل الزيارة ، التى لاح لى أنها تضايقتك ..

لنذهب فنتناول زجاجة من « الجارو » (١) عند بريديو .. فأقسم « ليون » أن لابد له من العودة إلى مكتبه ، وإذ ذاك راح الصيدلى يمازحه معلقا على مذكرات المحامين التى تقلب الباطل حقا ، وعلى الدعاوى .. قائلا : « دع كوجا وبارتول (٢) وشأنها برهة .. يا للشيطان ! من الذى يمتك ؟ كن جريئا ! هيا إلى حانة بريديو ! .. سترى هناك كلبه .. إنه عجيب جدا » .. ولكن الكاتب ظل يصر على الانصراف ، فقال له : « سأذهب معك ، فأطالع الصحيفة في انتظارك ، أو اقلب صفحات مجموعة القوانين ! » .. واحترار ليون بين غضب أيا ، وثرثرة هوميه .. ولعل القداء اتخذه ، فلم يقو على أن يبيت ، لا سيما وقد راح الصيدلى يغيره قائلا : « لنذهب إلى بريديو .. إنه قريب من هنا .. في شارع مالبالو » .. وما لبث الشاب — تحت تأثير الجبن أو الغباء ، أو تأثير ذلك الشعور الذى يميز وصفه والذى يجرنا إلى ادعى التصرفات للاستهجان — ما لبث أن ترك نفسه يقاد إلى حانة « بريديو » ، الذى الفياه في المساحة الصغيرة يشرف عليه ثلاثة من العمال راحوا يلهثون ، وهم يديرون عجلة ضخمة في آلة من آلات تحضير ماء سلتز (كماء الصودا) .. وألقى اليهم « هوميه » ببعض الارشادات ، ثم احتضن « بريديو » ، وتناولوا بعض « الجارو » .. وحاول « ليون » عشرين مرة أن يغلت ، ولكن صاحبه كان يمسك بذراعيه قائلا : « سأنصرف حالا ! ..

(١) « الجارو » شراب هو مزيج من القرفة والزعفران وجوز الطيب .

(٢) اثنان من فقهاء القانون .

سندهب إلى صحيفة « فنال دو روان » لنرى الزملاء ..
سأعرفك بتوماسان ..

على أن ليون ما لبث أن وفق إلى التخلص منه ، فانطلق
مسرعاً إلى الفندق . ولم تكن « آيما » هناك .. كانت قد
انصرفت لتوها ساخطة .. لقد أصبحت تكرهه ، وبدا لها هذا
الاخفاق منه في الوفاء بوعدها الغرامى اهانة ، فراحت
تحاول أن تنقب عن أسباب أخرى لتنفصل عنه .. كان عاجزاً
عن الاتيان بأية بطولة ، كما كان ضعيفاً ، مبتذلاً ، يفوق المزاة
في الاستخذاء ! .. فضلاً عن أنه كان بخيلاً ، جباناً ! .. ثم
هدأت ثورتها ، فتبينت أنها ولا ريب قد افترت عليه في غيبته ..
بيد أن إقدامها على النيل من الحب ، لابد أن يباعد بينها وبينهم
بعض الشيء ، فينبغي أن لا نمس أصنامنا المعبودة ، لأن طلاءها
لابد أن يعلق بأصابعنا !

● وبهضى الأيام ، أخذ حديثهما يزداد اتجاها إلى
الموضوعات الخارجة عن نطاق غرامهما ، وأصبحت « آيما »
تتحدث — في الخطابات التي ترسلها إليه — عن الأزهار ،
والأشجار ، والقمر ، والنجوم .. موارد ساذجة لوجد منطفيء
يناضل للبقاء مشتغلاً ، مستعيناً بكافة الأسباب الخارجية !
.. وكانت لا تفتأ تمنى نفسها بهناء غامرة في رحلتها التالية ،
ثم لا تلبث أن تعترف لنفسها بعد الرحلة بأنها لم تشعر بشيء
غير عاды .. ولكن سرعان ما أدت خيبة الرجاء إلى أمل
جديد ! .. فعادت « آيما » إلى فتاها أشد وقدة ، وأعتى لهفة

مما كانت في اى يوم ! .. صارت تخلع ثيابها في عنف ، مزقة
أربطة مشدها (الكورسيه) الرقيقة ، التي كانت تحيط برديها
كعابين متسللة ! .. وكانت تسير على أطراف أصابع قدميها ،
حافية ، لتستوثق مرة أخرى من أن الباب مغلق ، ثم تنطرح
على صدره في رجة طويلة ، وهى شاحبة ، واجبة ، لا تتكلم ،
ولا تحير حراكاً .. مع ذلك ، فقد ظل « ليون » يرى في ذلك
الجبين المتفصد عرقاً بارداً ، وفي تلكها الشفتين المرتعشتين ،
وفي العينين الضاريتين ، وفي توتر هاتين الذراعين ، شيئاً
غريباً ، غامضاً ، رهيباً ، يقوم جامداً بينه وبينها ، وكأنه يفصل
كلاً من صاحبه !

ولم يجرؤ على أن يسألها ، ولكنه كان — إذ يرى فنونها
البارعة — لا يملك الا أن يشعر بأنها ولابد قد خاضت كل تجربة
من تجارب الألم واللذة .. وما كان يفتنه من قبل ، بات
يتخيفه الآن بعض الشيء ! .. فضلاً عن أنه بدأ يتهمد على
ما كان يزداد كل يوم ظهوراً ، من انطوائه في شخصيتها ..
أصبح ينقم على « آيما » بسبب هذه الغلبة المستمرة عليه ..
بل إنه راح يجاهد ليكف عن حبها ، ولكنه كان لا يلبث — إذا
سمع صريف حذاءيها — أن يتحول إلى جبان هباب ، كمدمنى
الخم إذا ما رآوا شراباً قوياً ! .. والحق أنها لم تهين في إضفاء
كافة الوان الاهتمام عليه ، من اطايب الغذاء ، إلى خلاعة
الرداء ، إلى النظرات المستضعفة المتذلة .. وكانت تدس
وروداً من (أيونيل) بين ثدييها ، لتلقيها في وجهه .. وكانت
ثلقة بصدد صحته ، تنصحه دائماً بما ينبغي أن يفعل ..

ثم عهدت - لكى تزداد أطمئنانا إلى احتفاظها بسلطانها عليه ، وأملا منها فى أن تنحاز السماء لصفها - عهدت إلى إحاطة عنقه بصورة للعذراء !! .. وكانت تسأله - كام تقية - عن أقرانه ، وتقول له : « لا تلقهم ! .. لا تخرج ! .. لا تفكر الا فى كليتنا نقط ! .. اجننى ! .. » وكم ودت لو أنها استطاعت أن تراقب حياته كلها .. بل لقد خطر لها أن ترسل وراءه من يتتبع خطاه فى الطرقات .. فقد كان بجوار الفندق دائما شريد متسكع يتمسك فى المسافرين ، وما كان ليرفض القيام بمثل هذه المهمة .. ولكن كبرياءها تهرمت ، فقالت لنفسها : « باه ! وما أهمية هذا الأمر ! فلينصرف عني ! .. ما الذى يهمنى ؟ .. كأنما أنا مبقية عليه ! »

● وفى ذات يوم ، افترقا فى ساعة مبكرة .. وفيما كانت تسير وحدها فى الطريق ، لمحت جذران الدبر الذى تعلبت فيه ، فسارعت تجلس على مقعد عام تحت إحدى شجرات الدردار . ما كان أهدأ الفترة التى قضتها فى الدبر ، وما كان أنعمها ! .. كم كانت تتوق إلى تلك العواطف الجياشة التى كانت تحاول أن تتصورها على ضوء الكتب ! ثم تذكرت أول عيدها بالزواج ، وتلك النزومات فى الغابة ، والفيكوئنت الذى راقصها على أنغام « الفاليس » ، و « لاجاردى » وهو يغنى .. كل هذه الرؤى تتابعت أمام ناظرها ، ثم رأت « ليون » فجأة بعيدا .. وهتفت لنفسها : « ومع ذلك غائنا أحبه ! .. لا بأس ! .. لم تكن سعيدة ، وما كانت أبدا سعيدة ! .. فمن أين هذا الإجداب

الذى يشيع فى حياتها ؟ .. هذا الانهيار العاجل لكل شيء تستند إليه ؟ !

ولكن ، إذا كان يوجد - فى مكان ما - ذلك الكائن القوى ، الجميل .. كائن ذو فطرة جسورة ، زاخرة بالسمو والطهر معا .. قلب شاعر فى جسد ملاك .. قيثارة ذات أوتار رنانة ترفع إلى السماء قصائد مشجية .. فلماذا لا يسوقها القدر إلى هذا الكائن ؟ .. أو اه ! .. ياله من مستحيل ! .. فضلا عن أن شيئا ما لا يستحق عناء البحث عنه .. فكل شيء ليس سوى زيف كاذب ! .. كل ابتسامة إنها تخفى تناؤيا ملولا .. وكل غبطة ليست سوى لعنة .. وكل لذة تنطوى على الشبع منها .. وأشمى القبلات لا تخلف على شفتيك سوى شوق إلى غبطة أعظم ، لا سبيل إليها !

وانبعثت فى الجو رنات ثقيلة .. وسمعت أربع دقات من ساعة الدير .. الساعة الرابعة ! ومع ذلك فقد خيل إليها أنها مكثت فى مكانها ، على هذا الوضع ، دهورا .. فان المشاعر الفياضة التى تبدو كأن لا نهاية لها ، وقد تضغط فى دقيقة .. كما يحشد جمع فى فضاء صغير !

● وعاشت « ايلما » بعد ذلك منطوية على نفسها ، وأصبحت - كالأرشيذوقات - لا تحفل بشئون المال مطلقا .. على أنه لم يلبث أن جاء إلى البيت - فى أحد الأيام - رجل زرى الهيئة ، محمر الوجه ، أصلع الرأس ، قال أنه مؤمن من لدن السيد « فانكار » من (روان) .. وانتزع الدبابيس التى كانت

تحكم الجيوب الداخلية في سقرته ، وبعد أن ثبتها في كفه ، قدم إليها ورقة ، فإذا بها سند بسبعمائة فرنك ، يحمل توقيعها ، وقد حوله « لوريه » إلى « فانكار » رغم عهده . وأوفدت خادمها إلى « لوريه » ، ولكنه لم يكن قادرا على المجيء . . وإذ ذاك ، قال الغريب — الذي ظل واقفا ، يوزع نظرات فضولية ذات اليمين وذات الشمال — من تحت حاجبيه الكثيفين : « أي رد أحمله إلى السيد فانكار ؟ » . . فاجابت « ايما » : « آه . . قل له إنني لا أملك المبلغ . . سأنفذه في الأسبوع القادم . . فلينتظر ! . . أجل ، إلى الأسبوع المقبل ! . . وانصرف الرجل دون أن ينبس بكلمة . . بيد أنها تلقت في الساعة الثانية عشرة من النهار التالي ، إنذارا . . وأزعجها منظر الورق الذي كان يحمل عدة اختام كتب عليها بحروف كبيرة : « الاستاذ هارنج ، محضر محكمة بوشى » . . فهرعت مندفعة إلى بائع الأقمشة ، فوجدته في متجره يعد طردا . .

قال : « خادمك ! . . أنا تحت أمرك ! » . . ومع ذلك فقد استأنف « لوريه » عمله ، تعاونه فتاة في نحو الثالثة عشرة من العمر ، محدودة الظهر قليلا ، كانت تساعد في عمله وفي تدبير منزله في آن واحد . . وأخيرا تقدم مدام « بوفاري » — وبقبابة يقرقعان على الأرض الخشبية — صاعدا إلى الطابق الأول ، وادخلها حجرة ضيقة ، حيث قام مكتب ضخم من خشب صلب ، يحمل بعض سجلات ، يحتجزها قضيب عريض من حديد ، امتد في وضع أفقي ، وثبت بقل . . وإلى جوار الحائط — تحت بعض « فضلات » من القماش الخشن — لمحت « ايما » خزانة حديدية ، ذات حجم يوحى بأنها تضم — إلى جانب المستندات



جاء إلى البيت — في أحد الأيام رجل زرى الهيئة ، محمر الوجه ، اصلع الرأس ، قال أنه موفد من لدن السيد « فانكار » من (روان) . .

والنقود — شيئا آخر .. فقد كان السيد « لوريه » يمارس
الاقراض مقابل رهون ، وفي هذه الخزانة اودع سلسلة مدام
« بومباري » الذهبية ، مع اقراط « تيلييه » ، الكهل المسكين ،
الذي اضطر في النهاية إلى بيعها له ، واشترى متجرا مزبلا
للبدالة في (ككابو) ، حيث كان يحتضر — تحت وطأة الربو —
بين الشموع التي كانت اقل صفرة من وجهه ! .. وجلس
« لوريه » في مقعد كبير من الخيزران وهو يقول : « هل من
جديد ؟ » .. فنهفت : « اليك » ! واطلمته على الورقة ، فقال :
« حسنا ، وكيف استطيع أن اساعدك ؟ » فاشتد غضبها ،
وراحت تذكره بالوعد الذي قطعه على نفسه بأن لا يحول
سنداتها .. واعترف بذلك قائلا : « ولكنني كنت مضطرا ..
كانت المسكين على عنقي » .. فقالت : « وما الذي سيجري
الآن ؟ » .

— آه ، أمر سهل جدا .. حكم من المحكمة ، ثم توقيع
الحجز ..

وقاومت « ايما » نفسها حتى لا تصفعه ، وتساءلت في
لطف عما إذا كانت ثمة وسيلة لاستيهال السيد « فانكار » ..

— آه ! .. بديع ! .. استيهال فانكار ! .. انك
لا تعرفيه ، فهو أكثر شراسة من أي وحش كاسر !

ومع ذلك ، كان لابد للوريه من أن يتدخل .. « إذن ،
اسمعي ! .. يبدو لي أنني كنت مغرط الطيبة معك ، حتى الآن »
.. وفتح احد هذه السجلات ، قائلا : « انظري ! .. » .. وأجرى
اصبعه في الصفحة قائلا : « لنر .. لنر .. الثالث من

اغسطس مائتا فرنك .. السابع عشر من يونيوه : مائة
وخمسون .. الثالث والعشرون من مارس : أربعة وستون
.. في أبريل .. » .. وأمسك ، وكأنه خشي أن يخطيء ، ثم
قال : « ولست اذكر السنتين اللذين وقعهما السيد « بومباري » ،
احدها ببسعمائة فرنك ، والآخر بثلاثمائة .. اما حساباتك
البسيطة ، مع الفوائد ، فلا نهاية لها .. إن الإنسان ليتوه
فيها .. ومن ثم لن اتورط أكثر من هذا » ! .. وبكت ايما ..
بل راحت تلقبه بفريزها السيد لوريه الطيب ! ولكنه كان دائبا
يلقى المسؤولية على « ذلك الوغد فانكار » ، فضلا عن انه لم
يكن يملك سنتيها واحدا ، فان احدا لم يعد يدفع له نقودا ، بل
كانوا « يأكلون الصوف على ظهره » ! .. وما كان لتاجر فقير
مثله أن يقرض الناس .. وصمت « ايما » .. ولا ريب أن
السيد لوريه — الذي كان يعرض زغب ريشة الكتابة — أحس
بقلق لصمتها ، إذ استأنف كلامه قائلا : « وما لم احصل في يوم
من هذه الأيام على إيراد ، فقد ... » .

وقاطعته ايما قائلة : « ثم أن بقية ثمن عقار (بارنفيل) .. »
نهفت : « ماذا ؟ » .. وما إن سمع أن « لانجلوا » لم يدفع
بعد ، حتى اشتدت دهشته ، ثم قال في لهجة معسولة :
« إذن ، اتفقنا .. اليس كذلك ؟ » .

— آه ! .. على أي شيء تريد أن تنفق ؟ !

فأغضب عينيه مستغرقا في التفكير ، وكتب بضعة ارقام ،
ثم أعلن أن المسألة ستكون جد عسيرة ، لأنها محفوفة بالشك ،
وهو قد منى بخسائر فادحة .. ثم كتب أربعة سندات ، قيمة

كل منها مائتان وخمسون فرنكا ، وتستحق في أربعة أشهر متوالية ، وقال : « هذه هى سبيل التسوية ، لو أن «نانكار» قبل وساطتى .. ومع ذلك ، فاعتبريها قد سويت ، فانا لا أراوغ .. أنثنى صريح للغاية ! » .. ثم عرض عليها - فى غير اكتراث - عددا من السلع الجديدة ، ولكن أيا منها لم تكن فى رايه يليق بالسيدة ..

— كلما فكرت فى أن قماشاً — كهذا — يباع المتر منه بسبعة سنتيمات ، والوانه ثابتة ! .. ومع ذلك فهم يقبلون على شرائه بنهم ! .. انك بالطبع تدرकिन أن المرء لا يصارحهم بحقيقته ..

وكان يرجو بهذا الاعتراف بعدم امانته مع الآخرين ، أن يقتنعها بوفائه لها .. ثم ناداها — إذ انصرفت — ليريها ثلاث يارردات من قماش التقطه فى « أوكازيون » منذ عهد قريب .. وقال : « أوليس جميلا ؟ .. إنه الآن رائع الاستعمال لصون ظهور المقاعد .. أنه النوع الثمائم ! » .. وبأسرع من « الحاوى » لف القماش فى ورق أزرق ، ودفعه إلى يدي أيا ، فقالت « ولكنى أريد أن اعرف على الأقل .. » فاجاب وهو يولى عنها : « آه ! .. فى وقت آخر » .

● فى ذلك المساء ، استحضت « أيا » زوجها على الكتابة لاه يسألها أن ترسل إليه بأسرع ما يمكن بتيمة ميرائه .. واجابت الصبا بأنه لم يعد لديها باقى ، وأن التصفية قد انتهت ،

ولم يبق له — بعد « بارنفيل » — سوى دخل قدره ستمائة فرنك ، سترسله إليه فى موعده .. فصارعت مدمام « بوفارى » إلى الكتابة لاثنتين أو ثلاثة من المرضى تذكرهم بصوابهم — قبل موعده — وتوسعت فى استغلال هذه الطريقة التى كانت دائما موفقة .. وكانت تحرص دائما على أن تردف المطالبة بهذه العبارة : « أرجو أن لا تذكر الأمر لزوجى ، فانت تعرف مدى اعتداده بكرامته . ولا تؤاخذنى . الطيبة .. » .. وتسلمت بعض احتجاجات متذمرة ، فاختفتها عن زوجها .. وشرعت — كى تحصل على نقود — فى بيع ققازاتها وقبعاتها القديمة ، وكثير من الأشياء المهمة . وكانت تسامو فى براعة ، وقد استعفا اصلها الريفى . وكانت — خلال رحلاتها إلى المدينة — تبتاع بازهد الاسعار ، الأشياء المستعملة التى كانت واثقة من أن السيد « لوريه » سيشتريها منها ليغش بها الغير .. وأخذت ابتاعت ريش نعام ، وخزفا صينيا ، وحقائب للسفر .. وأخذت تقترض من « فيليبسيته » ، ومن مدمام « لوفرانسوا » ، ومن صاحبة فندق « الصليب الاحمر » ، ومن كل شخص ، أينما كانت .. ودفعت — من النقود التى تسلمتها من « بارنفيل » — أخيرا — قيمة سندين .. ثم حل موعد الألف وخمسمائة فرنك الأخرى ، فجددت السندين .. وهكذا ظلت السندات مستمرة ..

وكانت تحاول — فى الحقي — أن تقوم بعمليات حسابية فى بعض الاحايين ، ولكنها كانت تتبين أن النتائج باهظة إلى حد لم تكن تصدق أنه ممكن ، فكانت تشرع فى الحساب من جديد ، فسرعان ما ترتبك ، ثم تنفض يديها من الأمر ، فلا تعود

تشغل بالها به ! .. وأصبح البيت كئيبا جدا .. فكان الباعة يشاهدون — وهم يبرحونه — وعلى وجوههم إمارات الغضب .. والمناديل ملقاة حول المدفأة ، و « بيرت » الصغيرة ترتدى جوارب مثقوبة ، الأمر الذى كانت مدام « هومييه » تستنكره .. وكانت « ايها » — إذا نهبها « شارل » فى تخرج وخجل — تجيب فى جفاء بأن الغضب ليس ذنبها .. فلم كانت هذه الثورات والفورات ؟ .. كان « شارل » يعزو كل شيء إلى مرضها العصبى القديم ، ويندم لاحتسابه مظاهرها كإخطاء .. ويتم نفسه بالأنانية ، ويتوق إلى أن يحتويها بين ذراعيه .. ولكنه كان يقول لنفسه : « آه ! لا ! .. إننى قد اضايقتها ! » .. ويهسك عن إيداء عاطفته .. وكان بعد الغداء يتمشى فى الحديقة وحيدا ، ثم يجلس « بيرت » على ركبتيه ، ويبسط صحيفته الطبية ، محاولا أن يعلمها القراءة .. ولكن الطفلة التى لم تتلق قط أى درس ، كانت لا تلبث أن ترفع إليه عينين واسعتين ، حزينتين ، ثم تنخرط فى البكاء .. وإذا كان يسرى عنها ، ويبادر فيحمل إليها ماء فى دلوها لتشرب به انهارا فى الدرب الرملى بالحديقة .. أو يقطع بعض فروع من النباتات النامية على السياج ، لتغرسها فى الأحواض .. وما كان هذا ليلحق كثير ضرر بالحديقة التى انتشرت فيها — إذ ذاك — الأعشاب الفطرية .. إذ كانا مدينين لليستيبودوا بأجر ايها كثيرة !

ولا تلبث الطفلة أن تشعر بالبرد ، فتطلب أمها .. وكان « شارل » يقول لها : « نادى مربيك يا صغبرتى ، فانت تعلمين أن أمك لا تحب إزعاجا ! » .

وكان الخريف قد أقبل ، وتساقطت أوراق الشجر .. ها قد انقضى عامان منذ مرضت « ايها » ! .. ترى متى سينتهى كل هذا ؟ .. وكان « شارل » يذرع الحديقة مفكرا ، ويداه معقودتان خلف ظهره .. والسيدة فى مخدعها ، الذى لم يكن يدخله أحد .. كانت تمكث فيه طيلة النهار ، فاترة الهمة ، تكاد تكون عارية ، تحرق من وقت لآخر بعض البخور المعطر ، الذى ابتاعته من متجر عربى باحدى جزائر (روان) . وكانت قد نجحت أخيرا — بحيل بارعة — فى إقصاء « شارل » إلى الطابق الثانى ، حتى لا ترى « هذا الرجل » مستلقيا إلى جوارها بالليل .. وأخذت تنصرف — حتى الصباح — إلى قراءة كتب إباحية ، مليئة بالرسوم الخليعة والمواقف المثيرة .. وكثيرا ما كان الخوف يستولى عليها ، فتصرخ .. ويهرع إليها « شارل » ، غتقول له : « آه ! .. انصرف .. أو يشتد اكواؤها بذلك اللهب الداخلى الذى كان الفسق يذكيه ، فتسرع إلى النافذة تفتحها وهى تلهث ، وترتجف ، وقد استبدت بها الشهوة ! .. وتروح تستنشق الهواء البارد ، وتطلق خصلات شعرها الغزير للريح ، وتأمل النجوم ، وهى تصبو إلى أن يعشقها أمير ! .. وكانت تفكر فى « ليون » ، فتسود إذ ذاك لو تنزل عن أى شيء فى سبيل لقاء من تلك اللقاءات التى كانت تروى ظمأها !

واقبلت أيام المهرجانات ، فشاءت أن تنعم بها على أروغ وجه . ولما كان « ليون » لا يملك أن يضطلع وحده بالنفقات ، فقد أخذت تسد النقص بسخاء ، فى كل مرة على وجه التقريب . وحاول أن يقنمها بأن فى وسعها أن ينعم بصحبتهما فى مكان آخر .. فى فندق أكثر تواضعا من فندقهما ، ولكنها كانت تجد

دائما حججا للمعارضة . وفى ذات يوم ، أخرجت من حقيبتها ست ملاعق فضية - كانت هدية «روو» الأب بمناسبة زفافها - وسألته أن يبادر برهنها بالنيابة عنها ، فأطاع «ليون» ، وإن ساءت هذه المهمة ، إذ كان يخشى أن يورط نفسه .. وما لبث أن هداه التفكير إلى أن تصرفات عشيقته كانت تزداد غرابة ، وأن من المحتمل أن أصدقائه لم يكونوا مخطئين حين أرادوا أن يفرقوا بينه وبينها .. إذ حدث أن أرسل بعضهم إلى أمه خطابا طويلا - لا يحمل توقعا - ينذر بها بأنه «يهدم حياته مع امرأة متزوجة !» .. فأسرعت السيدة الصالحة - إذ لاحت لغورها ذلك الشبح الذى يؤرق الأسرات .. ذلك الجنى .. الوحش الذى يسكن فى أعماق أغوار الحب ! وكتبت إلى الأستاذ «ديبوكاج» - رئيسه - الذى تصرف خير تصرف ، إذ استبقاه ثلاثة أرباع الساعة يحاول أن يبصره ، وأن يحذره من البوة التى يتردى فيها .. فان مثل هذه العلاقة غير المشروعة قد تلحق به ابلغ الضرر فيما بعد ، حين ينشئ لنفسه مكتبا .. وأخذ يرجوه أن يقطع صلاته بعشيقته ، وإذا لم يشأ أن يقدم على هذه التضحية لمصلحته الخاصة ، فليغفلها على الأقل من أجله هو .. من أجل «ديبوكاج» !

● انقسم «ليون» فى النهاية بأن لا يعود إلى لقاء «أيم» .. وكان لا يفتأ يلوم نفسه لأنه لم يف بوعده .. ويقدر مدى المتاعب والأثاويل التى تعرضه لها هذه المرأة ، فضلا عن الدعايات التى كان زملاؤه يتفككون بها حين يجتمعون حول المدفأة فى الصباح ! .. ثم إنه كان موشكا أن يغدو

على راس الكتبة عما قريب ، ومن ثم رأى أن الوقت قد حان ليستقر .. وأنه يتعين عليه أن ينبذ موسيقاه ، وعواطفه المشبوبة ، والخيال .. فكل رجل من أبناء الطبقة المتوسطة ، يؤمن فى غيرة صباه - ولو ليوم واحد أو دقيقة واحدة - بأنه قادر على العواطف العارمة ، وعلى جلائل الأعمال .. وأكثر العابئين اعتدالا ، يحلم بالسلطانات و (الحريم) .. وكل موثق للعتود يحمل فى أعماق شخصيته اطلال شاعر ! .. وأصبح «ليون» يضيق بابها ، حين تبكى فجأة - وهى منطرحة على صدره - وغدا قلبه شبيها بأولئك الذين لا يحتلون من الموسيقى الا قدرا معينا ، ثم يغالبهم النعاس .. غدا قلبه يغفو على صوت حب لم يعد يستمرىء لذاذاته ! .. فلقد أصبح كل منهما يعرف الآخر تماما ، ومن ثم لم يعد يهتز لتلك النشوة التى تترتب على المضاجعة فتضاعف بهجتها مائة مرة .. وكانت «أيم» من ناحيتها قد سئمته بقدر ما ملها .. فقد عادت تجد فى الفسق كل ما فى الزواج من استرسال رتيب ! .. ولكن ، ترى كيف تتخلص منه ؟ !

وكانت لا تلبث ، رغم شعورها بالخسرة لوضاعة هذه القبضة ، أن تتشبت بها ، نزولا على حكم العادة ، أو بدافع الفساد .. وأخذت ترداد استقزاما لها فى كل يوم ، مرهقة كل متعة فى الرغبة ، إلى أقصى الحدود .. وأخذت تلقى على «ليون» ذنب آمالها الخائبة - وكأنه كان يخونها - بل لقد راحت تتمنى كارثة تعجل بفراقهما ، مدام قد عز عليها أن تجد الجراءة للبت فى الأمر .. ومع ذلك ، فقد ظلت تكتب له رسائل الهوى ، وفقا للرأى الذى يوجب على المرأة أن تكتب لعشيقها

باستمرار .. ولكنها كانت — حين تكتب — تتمثل رجلاً آخر ..
طيفاً تصوغه من أكثر ذكرياتها استعاراً ، ومن أرق ما قرأت ،
ومن أقوى شهواتها .. وما لبث هذا الطيف أن أصبح يبدو لها
حقيقة اليفة سيلة المنال ، بدرجة كانت تجعلها ترتجف مبهورة ،
وإن لم تستطع أن تتصور هذا الطيف في صورة واضحة ، إذ
كان أشبه بإله يتوارى خلف صفاته الجليلة ! .. كان يعيش في
عالم لازوردى — تتدلى من شرفاته سلالم حريرية — بين أنفاس
الزهور ، وفي ضياء القمر .. كانت تحسه قريباً منها ، ولن
يلبث أن يوافيها ، فيحملها بعيداً في قبلة ! .. وكانت لا تلبث
أن تهالك منهوكة القوى ، فان هذه التوبات من الهوى المبهم
كانت أشد إرهاقاً لها من الفسق السافر !!

وأصبحت تشعر بالآلام دائمة تشعل كل جسمها .. وكثيراً
ما كانت تتسلم إنذارات ، وأوراقاً تحمل اختتاماً رسمية ، فلا
تكاد تنظر إليها .. وبانت تمنى أن لا تكون على قيد الحياة ،
أو أن تروح في سبات دائم ! .. وفي مساء اليوم الذى انتصف
فيه الصوم الكبير ، لم تعد إلى (ابوتفيل) ، بل ذهبت إلى حفلة
راقصة تنكرية ، وقد ارتدت سروالاً (بنطلونا) من المخمل ،
وجوربين أحمرين ، وشعرها مستعاراً ، وقبعة ثلاثية الجوانب ،
مائلة على إحدى أذنيها .. وظلت ترقص طيلة الليل ، على
أنغام الأبواق الصاخبة ، وقد التف حولها القوم .. وألفت
نفسها — في الساعات الأولى من الصباح — على درجات سلم
المسرح ، مع خمسة أو ستة من الراقصين المتكررين في ثياب
حبالي الميناء ، والملاحين .. كانوا زملاء «ليون» .. وأعربوا
عن رغبتهم في طعام .. وكانت المقاهى القريبة ممثلة بالرواد

.. ولكنهم عثروا في الميناء على مطعم متواضع ، قادهم صاحبه
إلى غرفة صغيرة في الطابق الرابع .. وأخذ الرجال يتهايمسون
في أحد الأركان .. وكانوا ولا ريب يتشاورون في أمر النيمات
.. وكانوا : كاتباً .. واثنين من طلبة الطب ، ومستخدماً في أحد
المتاجر .. يا له من وسط تأنس إليه ! .. أما النساء ، فان
«أيما» سرعان ما أدركت من لهجتهن أنهن ولا بد ينتمين إلى
أدنى طبقة في الغالب .. وإذ ذاك جزعت ، ودفعت بقمعدها
إلى الوراء ، وغضت بصرها ..

وشرع الآخرون يأكلون ، أما هي فلم تصب من الطعام
شيئاً .. كان جبينها متقدماً ، وجفناها ملتصقين ، وبشرتها في
برودة الثلج .. وخيل إليها أنها تحس بأرض المرقص تهتز تحت
الضجيج المنتظم الناشئ عن آلاف الأقدام الراقصة .. وما لبثت
الرائحة المنبعثة من الجماعة ، ودخان السجائر ، أن أصابها
بدوار ، ثم أغمى عليها ، فحملوها إلى النافذة .. وكان النهار
ينبثق ، وقد أخذت بقعة كبيرة من اللون الأرجوانى تنتشر منبعثة
من الأفق الشاحب فوق تلال «سانت كاترين» .. وكان النهر
يرتفع بفعل الريح ، وليس على الجسور عابر واحد ،
ومصاييح الشوارع تخبو .. واستردت «أيما» رشدها ،
فشرفت تفكر في «بيرت» النائمة بعيداً ، في غرفة الخادم ..
ثم مرت عربة محملة بقضبان من الحديد ، محدثة صوتاً معدنياً
يصم الأذان .. وتسللت «أيما» فجأة إلى الخارج ، فخلعت
ثياب التنكر ، وانبأت «ليون» بأنها يجب أن تنصرف ..

وخلت إلى نفسها أخيراً في فندق «بولونى» .. لقد
أصبح كل شيء — حتى نفسها — لا يطاق .. وتمنت لو كان لها

جناحان كالطيور ، فتطلق طائرة إلى مكان ما .. إلى اصقاع بعيدة ، طاهرة ، ترتد فيها إلى الشباب ثانية !

● وخرجت ، فاجتازت الطريق ، وميدان (كوشواز) ، والضاحية ، حتى بلغت أخيرا طريقا واسعة تفضى إلى بعض الحدائق .. وكانت تمتلئ بسرعة ، وقد سرى عنها الهواء المنعش ، وأخذت وجوه الحشود ، والافتحة ، والراقصون ، والأصواء ، والمائدة ، وتلك النسوة .. أخذت كل هذه تلتاشي رويدا كضباب يتشتت .. حتى إذا بلغت فندق « الصليب الأحمر » ، ألقت بنفسها على السرير في غرفتها بالطابق الثانى ، حيث كانت ثمة صور تمثل مناظر (تور دو نك) .

وايقظها « هيفير » — سائق العصفورة — فى الساعة الرابعة .. فلما بلغت دارها ، اطلعتها « فيليسيته » على ورقة سمراء ، كانت خلف الساعة . وقرأت فيها : « إنذار بالحجز تنفيذا لحكم قضائى » .. أى حكم ؟ .. الواقع أن ورقة أخرى حملت إليها فى الليلة السابقة ، فلم تكن قد اطلعت عليها بعد .. وبهتت لهذه الكلمات : « باسم الملك ، والقانون ، والعدالة .. إلى مدام بومارى » .. ثم اغفلت بضعة أسطر وقرأت : « فى خلال أربع وعشرين ساعة ، لا غير .. ماذا .. » أن تدفع ثمانية آلاف فرنك .. ثم فى النهاية : « .. وإلا اجبرت بكافة الطرق القانونية ، وأخصها توقيع الحجز على اثائها وممتلكاتها » .. ترى ما الذى يمكن عمله ؟ .. فى أربع وعشرين ساعة .. أى غدا ! .. وخطر لها أن « لوريه »

ربما أراد أن يرهبها ، فقد خبرت كل حيله ، وأدركت الغاية التى كان يسعى إليها بما كان يديه من إكرام ! .. وكان أكثر ما اكد لها ذلك ، ضخامة المبلغ .. على أنها بالاعتصار على الشراء دون الدفع ، وعلى الاقتراض ، وتوقيع السندات ، وتجديد هذه السندات التى كانت تزداد فى كل مرة ، قد انتهت إلى تكوين رأس المال الذى كان السيد « لوريه » يرتقبه بصبر نافذ لتحقيق مشروعه !

وولجت داره ، وقد كظمت غيظها ، وبادرت قائلة : « لعلك تعرف بما جرى لى ؟ .. أنها ولا شك حيلة ! » .

— لا .. — وكيف ذلك ؟

فأشاح عنها ببطء ، وبسط ذراعيه قائلا لها : « اظننت يا سيدتى الشابة أننى سأظل إلى الأبد اقرضك وأقوم بمهمة الصراف لك ، لوجه الله ؟ .. من حقى أن استرد الآن ما قدمت .. ألا كونى عادلة ، منصفه ! » .. فعارضت فى قيمة الدين ، ولكنه قال : « آه ! .. على رسلك ! .. لقد اقرته المحكمة ! .. هناك حكم قضائى ! وقد اخطرت به ! .. ثم أن هذا ليس ذنبى ، وإنما ذنب فانكار » .

— أوليس فى وسعك ...

— آه ! ... ليس بوسعى شئ على الإطلاق .

— ولكن هذا لا يمنع أن نتدبر ..

وشرعت تجس نبضه ، قائلة أنها لم تكن تعرف شيئا عن الأمر ، بل فوجئت به .. فقال « لوريه » منحنيا فى سخرية :

« وذنّب من هذا ؟ .. انك تستمتعين بأطيب الاوقات ، بينما اعمل انا كالعبد المسخر ! » .

— آه ! .. لا داعى للمواعظ ..

— انها لا تضر ابداً .

وأخذت تتفذل .. وتضرعت إليه .. بل إنها ربتت بيدها الجميلة ، الفضة ، البيضاء ، ركبة الناجر ..

— الا دعيتى ! .. إن من يرانا يقول انك تسعين إلى إغوائى !

فصاحت : « انك لتعس ! » .. فأجاب ضاحكا :

« آه ، آه ! .. هات ما عندك ! » .

— سأفصح امرك .. سأقول لزوجى ..

— لا بأس ! .. وسأريه من ناحيتى شيئا ما ..

ثم أخرج « لوريه » من خزانته ايضا بالالف وثمانمائة فرنك التى اعطاها اياها عندما خصم « فانكار » السندات ، وعقب قائلا : « او تظنين انه لن يفهم سرقتك البسيطة هذه ؟ .. يالهذا الرجل العزيز المسكين ! » .

وانهارت ، أكثر تداعيا مما لو كانت قد ضربت بفأس ! .. بينما راح هو يسير بين المكتب والنافذة ، مرددا طيلة الوقت : « آه ! ساريه ! » .. ثم اقترب منها قائلا فى صوت متلطف : « اعرف انه ليس بالأمر السار .. ولكن المعركة بغير قتلى ، على أية حال .. وبها ان هذه هى الطريقة الوحيدة التى بقيت لك كى تدفعى مالى .. » فصاحت وهى تشدد ذراعيها : « ولكن .. أين أجد لك مالا ؟ » .. قال : « آه !

باه ! .. عندما يكون لامرئ مثلك اصدقاء ! .. » وأخذ يتفكر فيها بنظرات حادة ، مزعجة ، أرسلت رجفة سرت إلى اعناقها .. وعادت تقول : « أعدك بان اوقع .. » .

— عندى ما يكتفى من توقيعاتك

— ولسوف أبيع ايضا ..

قال وهو يهز كتفيه : « دعك من هذا .. فليس لديك ما يباع » .

ثم صاح خلال الكوة المطلة على المتجر ! « آنيث .. لا تنسى الفضلات الثلاث المتبقية من القماش رقم ١٤ » .. وأقبلت الخادم ، فادركت « ايما » اشارته ، وسألته عن المبلغ الذى يطلبه لوقف الإجراءات .. فقال : « لقد فات الاوان ! » .

— ولكن ، إذا احضرت لك عدة آلاف من الفرنكات .. ربع المبلغ .. ثلثه .. ربما كله ؟

— آه ! .. لا .. لا جدوى ..

ودفعها برفق صوب السلم ، فقالت باكينة : « اتوسل إليك يا سيد « لوريه » .. أمهلنى بضعة أيام أخرى ! »

— آه ! .. جميل .. ذموع !

— انك تدفعنى إلى اليأس ..

فقال وهو يخلق الباب : « ليس هذا من شأنى ! » .

الفصل السابع

● تجلدت «ايما» فى اليوم التالى ، حين اقبل على دارها الاستاذ « هارنج » — المحضر — واثنان من الشهود ، لتوقيع الحز .. وبدأوا بحجرة عيادة « بوغارى » ، ولكنهم لم يثبتوا فى سجلاتهم الجمجمة التى اعتبرت من « أدوات المهنة » .. لها فى المطبخ فقد احصوا الصحاف واوعية الطهو ، والمقاعد ، والمشمعدانات .. كما احصوا فى غرفة النوم كل التحف التى كانت على الرف ، وعابثوا اثوابها ، والملابس الداخلية ، وحجرة الزينة — الملحقة بالمخدع — بل وكل ما كان على جسمها — إلى ادق الثياب الداخلية ! — وكأنها جثة تحت التشريح ، أمام عيون الرجال الثلاثة ! .. وكان الاستاذ « هارنج » — فى سكرته السوداء المحكمة حول جذعه ، ورباط عنقه الأبيض ، وحذاءيه بسيورهما المحكمة حول قدميه — يردد بين آن وآخر : « اتسمحين يا سيدتى ؟ اتسمحين ؟ » .. وكان يهتف أحيانا : « ما ابدع هذا ! .. ما أجمله ! » .. ثم يعاود الكتابة غامسا ريشته فى محبرة حملها فى يده اليسرى .. حتى إذا غرغوا من الحجرات ، صعدوا إلى غرفة المخزن (التى تحت السقف المحدودب) .. كانت «ايما» تحتفظ فيها بمكتب أودعته خطابات « رودولف » .. وكان لابد من فتحه .. وقال الاستاذ « هارنج » فى ابتسامة وقحة : « آه ! .. مراسلات ! .. ولكن ، اسمح لى ! .. إذ لابد أن اتأكد من أن الصندوق لا يحتوى على شيء آخر ! » وطرق الأوراق بخفة ، وكأنها كان يرجو أن تسقط من بينها دنائير نابليونية .. وإذ ذاك ، اشتد

غضبها إذ رأت تلك اليد الغليظة ، ذات الأصابع الحمراء ، الرخوة ، تمس تلك الصفحات التى خفق لها قلبها !

وانصرفوا أخيرا ، وعادت « فيليسييتيه » ، التى كانت « ايما » قد أرسلتها لتموق « بوغارى » عن المجيء .. وباندرا إلى حمل الرجل — الذى ترك للحراسة — على الصعود إلى المخزن العلوى ، حيث اقسم أن يبقى ..



● بدا « شارل » فى تلك الليلة لايمًا مهمومًا ، غراحت ترمقه بنظرة خائفة ، متوجسة ، وهى تخال فى كل خط من تجاعيد وجهه اتهامًا .. وكانت إذا طاف بصرها بالدخنة المزدانة بحاجز صينى منقوش ، وبالسائر العريضة ، والمقاعد الوثيرة ، وكل تلك الأشياء التى خففت من مرارة حياتها ، لا تلبث أن تشمر بالندم .. أو بالأحرى ، بأسف بالغ ، يهيج عواطفها ، بدلا من أن يسحقها ! .. وراح « شارل » يحرك النار فى فتور وبعلل شارد ، مسندا قدميه إلى حافى المدفأة ..

وحدث أن صدرت عن الرجل — المختبئ فى المخزن — حركة طفيفة ، إذ ضاق ولا شك بحبسه ، فقال « شارل » : « هل هناك من يسير فى الطابق العلوى ؟ » .. فأجابت : « لا .. انها نافذة تركت مفتوحة ، فأخذ الهواء يعبث بها ! » ..

وكان اليوم التالى من أيام الأحد ، فسعت إلى (روان) لتطوف ببعض الصيارف الذين كانت تعرف اسماءهم ، فإذا بهم فى نزاهات او رحلات خارج المدينة . ولم يثبط هذا من عزيمتها ،

فاستطاعت أن تقابل عددا منهم ، وتطلب منهم المبلغ ، قائلة :
إنها في حاجة إليه ، وأنها لن تلبث أن تسده .. وضحك بعضهم
منها دون حياة ، ورفضوا جميعا .. حتى إذا كانت الساعة
الثانية ، هرعت إلى منزل « ليون » وطرقت بابه ، فلم يفتح
لها .. وما لبث أن ظهر في النافذة !

— ماذا أتى بك ؟ — أفهذا أزعجك ؟

— لا ، ولكن ..

وصارحها بأن صاحب البيت لم يكن يحب استقبال
« نساء » في داره .. فقالت له : « لا بد لي من أن أتحدث إليك »
.. وإذ هم بأن يدلى بالفتاح إليها ، استوقفتها قائلة : « آه ،
لا .. هناك في حجرتنا .. ومن ثم ذهبنا إلى « حجرتيها »
في فندق « بولوني » .. وما إن وصلنا ، حتى شربت كوبا كبيرا
من الماء .. وكانت شديدة الشحوب .. وقالت له : « ليون ،
هل تسد لي خدمة ؟ » .. وأمسكت به في قوة ، وهزته
قائلة : « اسمع .. أنتى بحاجة إلى ثمانية آلاف فرنك » .

— ولكلك مجنونة ! — لا ، لم أجن بعد !

وروت له قصة الحجز ، مبينة له محتتها ، فقد كان
« شارل » يجهل كل شيء وحمايتها تكرهها ، والاب « روو »
لا يملك لها عونا ، ولكنه هو — ليون — يستطيع أن ينطلق بحثا
لها عن هذا المبلغ الذي لم يكن عنه غنى ..

— كيف تريدان .. ؟ فصاحت : « ما انذلك ! »

● وما لبث ليون أن قال مهونا : « انك تبالعين في تصوير
الشر ، فربما أمكن بألف دينار استئصال صاحبك » .. وكان
هذا ادعى لأن يحاول أن يفعل شيئا ، فمن المستحيل أن يعجزا
عن العثور على ثلاثة آلاف فرنك .. فضلا عن أن « ليون »
قد يستطيع إبرام الصفقة لأنه « ضمن » منها ..

— امض ! حاول ! يجب عليك ! .. اجر .. آه ..
الا اسرع ، اسرع ! لسوف ازداد لك حبا !

وانصرف ، ثم عاد بعد ساعة ، فقال بوجه مكتئب :
« ذهبت إلى ثلاثة أشخاص ، دون أن أوفق » .. وظلا بعد
ذلك جالسين متقابلين ، إلى جانبي المدفأة ، لا يحيران حراكا ،
ولا يتبسان بكلمة .. وما لبثت « إيما » أن هزت كتفيتها ،
ودقت الأرض بقدميها .. وسمعتها تقهق : « لو كنت في مكانك
لاستطعت أن أجد المبلغ سريعا ! » .

— ولكن من أين ؟ — من المكتب الذي تعمل فيه !

وحذجته بنظرة ، فإذا بجراة متهورة تطل من مقنيها
المقندين ، بينما استرخى جفناها في أغراء داعر ، وبشجيع ،
حتى أحس الشاب بنفسه يزداد عجزا أمام ارادة هذه المرأة
التي كانت تستعنه على ارتكاب جريمة .. على أنه خاف .
ولكى يتفادي أى حوار في هذا الصدد ، ضرب جبينه برأسته
صائحا : « من المقرر أن يعود موريل الليلة ! .. وهولن يرفض
لنى طلبا على ما أرجو ! » (وكان هذا من أصدقائه ، ابنا لتاجر
عظيم الثراء) واستطرد قائلا : « وسأحضر لك المبلغ هناك
غدا » .

ولم يبد على « ايما » اى استعداد لان ترحب بهذا الاىل الذى صورته لها .. افتراها تحدى انه يكذب ؟ .. وعاد يقول متضرع الوجه : « وفي الوقت ذاته ، إذا لم ترينى خلال ساعات ، فلا تمكثى فى انتظارى يا حبيبتى .. إذ لا بد لى من الانصراف ، فاسمحي لى .. وداعا ! » .

وضغط يدها ، فأحس بها غاترة .. إذ لم تبق لايما قدرة على اية عاطفة او احساس .. وظلت حتى دقت الساعة مؤذنة بالرابعة ، فنهضت لتعود إلى (ايونفيل) فى انصياع كجهاز آلى يعمل بدائع المادة ..

● كان الجو بديعا ، إذ كان اليوم من أيام مارس الصافية الصحوه ، التى تتألق فيها الشمس فى سماء بيضاء .. وكان فريق من اهالى (روان) ينتزهون مقتبطين .. وبلغت « ايما » ميدان « بارفى » ، فاذا الناس منصرفون بعد صلاة الغروب ، وقد تدفقت جموعهم خلال أبواب الكاتدرائية الثلاثة ، كفيض ينساب تحت ثلاثة عيون لأحد الجسور .. ووقف الحارس السويسرى فى الوسط لا يريم حراكا ، كأنه الجندل ! .. إذ ذاك ، تذكرت اليوم الذى أقبلت فيه مضطربة ، وأمل يملا نفسها ، فولجت هذا الفناء الفسيح الذى بدا أمامها اقل اتساعا من حبيها ..

وواصلت سيرها وهى تبكى تحت قناعها ، مترنحة ، تحس بالأرض تמיד تحت قدميها ، وتوشك أن تقع مثنيا عليها .. وصاح صوت أنبعث من بوابة قصر فتحت لتتطلق خلالها

عربة : « انتباه ! » .. فوقفت لتخلى الطريق لجواد أسود ، راح يصك الأرض ، بين ذراعى عربة خفيفة يقودها رجل فى غراء أسمر .. ترى من هو ؟ .. إنها تعرفه .. ومرقت العربة كالسهم ، واختفت .. ولكن ، إنه يعينه .. الفيكونت ! .. وانحرفت إلى شارع مقفر .. واشتدت بها الحيرة اليائسة ، والحزن ، حتى اضطرت إلى أن تستند إلى جدار ، لتتلافى السقوط على الأرض ! .. وخيل إليها أنها ضلت طريقها .. وإلا ، فهى لم تكن تعرف شيئا ! .. كل ما فيها ، وكل من حولها ، كان يهجرها .. وأحست بأنها مضية ، تائهة ، تتخبط على غير هدى ، فى مفاوز لا نهاية لها .. ودخلها الفرح إذ لمحت — عند وصولها إلى « الصليب الأحمر » — هذا الرجل الطيب « هوميه » ، يرتقب رفع صندوق مليء بالمواد الكيماوية والأدوية إلى « المصفورة » ، وقد أمسك فى يده منديلا أودعه ستة أرغفة من النوع المستدير كالعجلة ، ابتاعها لزوجته — فقد كانت مدام « هوميه » جد مشغوفة بهذه الأرغفة الصغيرة ، الثقيلة ، الشبيهة بالعمامة ، التى تؤكل فى الصوم الكبير مع الزبد الملح .. آخر شكل لنوع من الوجبات القوطية التى قد يرجع العهد بها إلى عصر الصليبيين ، والتى كان المتعصبون من أهل نورمانديا يستفيدون بها الماضى ، ويوهمون أنفسهم بأنهم يرون على المائدة — تحت ضوء الشموع الصفراء ، وبين دنان « الهيبوكرا » (١) وكتل اللحم الكبيرة الحجم — رؤوس الصرب معدة ليلتهموها .. وكانت

(١) « الهيبوكرا » صنف من الشراب يتألف من العسل المخمر والماء .

زوجة الصيدلى تقضم هذا الخبز الجاف، كما اعتاد القدامى أن يفعلوا ، رغم أسنانها المتداعية .. ولهذا لم يكن « هوميه » لينسى قط — كلما ذهب إلى المدينة — أن يحضر لها عددا من هذه الارغفة يبتاعها من المخبز الكبير في شارع « ماساكر » .

وقال الصيدلى : « يسعدنى أن أراك ! » ، ومد لايما يدا يساعدها على الصعود إلى « العصفورة » ، ثم علق أرغفته في حبال الشبكة ، واستقر عارى الرأس ، معقود الذراعين ، في وضع يوحى بالتفكير والعظمة ! .. ولكنه هتف ، حين ظهر الرجل الأعمى عند بداية التل كالمعتاد : « لست أدري لماذا تتساهل السلطات إزاء هذه الشعوذة الإجرامية ؟ .. يجب حبس المنكودين الذين على هذه الشاكلة ، واجبارهم على العمل .. لمعمرى ، أن التقدم ليحبو بخطى سلحفائية ! .. أننا نخوض حماة من البربرية والتأخر ! » .. فبسط الرجل الأعمى قبضته التى راحت تهتر على حافة باب العربة ، كأنها جيب فى كسوة الباب الداخلية سقطت المسامير التى تثبته إليه .. وقال الصيدلى : « هذه عاطفة خنزيرية ! » .

ومع أنه كان يعرف الشريد المسكين ، إلا أنه تظاهر بأنه كان يراه للمرة الأولى ، وراح يتمتم ذاكرا شيئا عن « قرنية العين » ، و « القرنية المعتمة » ، و « تيبس العين » .. ثم سألته فى لهجة أبوية : « هل أصبت بهذا المرض الفظيع من زمن طويل يا صاحبي ؟ .. خليك بك أن تعنى بتغذية نفسك بدلا من أن تسكر فى الحانة ! » .. وراح ينصحه بأن يتناول التبيذ الطيب ، والجمعة الجيدة ، واللحم المشوى ، والأعمى سادر فى أغنيته .. وكان فوق هذا يبدو معتوها .. وأخيرا ، فتح



ومرقت العربة كالسهم ، واختفت ..
ولكن ، إنه بعينه .. الفيكونت ! ..

السيد « هوميه » كيس نقوده قائلا : « هاك (سو) (١) خذ نصفه ، واعد لى النصف .. ولا تنس نصائحى ، فلن تلبث ان تشعر بتحسن » .. فجهر السائق ببعض الشك فى جدواها ، ولكن الصيدلى قال إنه على استعداد لأن يعالجه بنفسه ، بيلم مسكن للالتهابات من تركيبه .. وأعطى الرجل عنوانه قائلا : « السيد هوميه ، بالقرب من السوق .. ستجده معروفا » .. فقال « هيفير » : « الآن ، اربنا بعض العاكب جزاء كل هذا » .. فهبط الأعمى على ردفه ، ملقيا رأسه إلى الخلف ، وهو يحرك عينيه الضاربتين للخضرة ، ويهز لسانه خارج فمه ، ويفرك بطنه بيديه ، مرسلًا نوعا من الصراخ الأجوف كمواء كلب جائع .. وفاض بابها التقزز ، فالتفت إليه من فوق كتفها بقطعة من العملة ذات الخمسة الفرنكات .. وكانت كل ثروتها ، فعن لها أن من المستحسن أن ترميها هى الأخرى ..

● كانت العربية قد استأنفت سيرها ، حين أطل السيد « هوميه » فجأة من النافذة وصاح : « لا تتناول أغذية تصنع من الدقيق أو الألبان .. والبس صوفًا على الجلد مباشرة ، وعرض الأجزاء المريضة لدخان حبوب العرعر ! » ..

وما لبثت مناظر الأشياء المألوفة التى تتابعت أمام عيني « ايما » أن شغلتها رويدا عن همومها الراهنة . واستبد بها

(١) السو جزء على عشرين من الفرنكات ، أى اقل من مليون بئر العملة فى ذلك الوقت !!

تعيب لا قبل لها به .. وبلغت دارها مشقة ، خائفة ، تكاد أن تكون نائمة .. فمالت لنفسها : « ليحدث ما لابد من حدوثه ! » .. ثم ، من يدرى ؟ .. لم لا تتوقع أن يحدث بين لحظة وأخرى حدث غير عادى ؟ .. بل ربما مات « لوريه » !

واستيقظت فى الساعة التاسعة من الصباح التالى ، على ضجيج أصوات فى الميدان .. كان شمة حشد تجمع أمام السوق لقراءة إعلان كبير ملصق على أحد الأعمدة ، وراى « جوستان » يتسلى على حجر ، ويجذب هذا الإعلان فيمزقه ولكن الحارس الريفى أمسك بتلابيبه فى تلك اللحظة . وخرج السيد « هوميه » من الصيدلية .. وبدأت الأم « لوفرانسوا » وسط الزحام وكنائها تخطب فى القوم ..

واقبلت « فيليسييتيه » صائحة : « سيدتى ! سيدتى ! هذا شنيع ! » .. وأسلمتها الفتاة المسكينة — وهى فى ابلغ حالات التأثر — ورقة صفراء انزعقتها لقوها من على باب الدار . وقرأت « ايما » بنظرة واحدة إن كل متاعها سيباع .. ثم رمقت كل منهما الأخرى فى صمت .. لم يعد بين الخادم والسيدة سر تكتبه إحداهما عن الآخر .. وقالت « فيليسييتيه » أخيرا ، وهى تنهد : « لو كنت مكانك يا سيدتى ، لذهبت إلى السيد جيومان » ، فقالت : « هل تخطين ... ؟ » ..

وددت بهذا السؤال أن تقول : « انك لتعرفين أسرار بيته عن طريق خادمه ، فهل تكلم السيد عنى أحيانا ؟ » ..

— أجل ، اذهبى إليه .. لسوف تحسنين صنعا !
فتهايت للخروج ، مرتدية ثوبها الأسود ، وقلنسوتها

المرزكشة بالخرز . ولكنى لا يراها أحد — إذ كان الميدان يعج بالناس دائها — سلكت الطريق المحاذية للنهر ، خارج القرية . . . وبلغت باب دار مئبق العقود ، وقد تقطعت أنفاسها . وكانت السماء مكفهرة ، والجليد يتساقط رذاذا . وظهر « تيودور » — على رنين الجرس — عند السلم فى « صدىرى » احمر ، ثم أقبل وفتح الباب فى غير ما دهشة او كلفة ، وكأنه يفتحه لزاخرة ملونة . . وقادها إلى قاعة المائدة . . وكانت ثمة مدفأة من القيشانى تنطلق النار فيها ، تحت غروع الصبار التى ملأت فجوة فى الحائط كالمحراب . . وفى إطارين أسودين على الجدار المكسو بورق مموه بلون شجر البلوط ، كانت لوحنا ستيويان : « ازمير الدا » ، « وشويان » : « بوتيفار » . . وكانت المائدة المعدة ، وصفحتان مضيئتان للمصطفى ، ومقابض الأبواب البلورية ، والأرضية الخشبية المسقولة ، وقطع الأثاث . . كانت كلها تلمع فى نظافة إنجليزية انيقة . وكان زجاج النافذة مزدانا بقطع من الزجاج الملون فى الأركان ، فقالت « ايمى » لنفسها : « ها هى ذى قاعة طعام من النوع الذى يليق بى ! » .

● دخل المئبق الحجرة ، يضم « ثوب الغرفة » — الروب دو شامبر — الموشى برسوم النخيل ، إلى صدره بذراعه اليسرى ، بينما أخذ بيده اليمنى يرفع — ثم يخفض بسرعة — قلنسوة بنية من المخيل ، كان يميلها ، من قبيل الأناقة ، إلى الجانب الأيمن من رأسه ، حيث كانت تنسدل ثلاث خصلات من الشعر شددت من مؤخر رأسه ، لتكسو حافة جبجمته الصلعاء . وبعد أن قدم لها مقعدا ، جلس يتناول مظهره ،

معتذرا عما فى هذا من مجافاة للذوق . . فقالت : « إننى أناشدك يا سيد جيو مان . . » . . وبادر مجيبا . « ماذا يا سيدتى ؟ » . « إننى مصغ ! » . . فراحت تصارحه بالموقف . . وكان السيد « جيو مان » على علم به ، إذ كان يستتر وراء تاجر الأقمشة الذى كان يجد عنده المال للقروض التى كان يطلب إليه عقدها بضمان مرهونات . . ومن ثم كان يعرف — بل كان أكثر منها معرفة — قصة السندات التى بدأت صغيرة ، تحول اسماء مختلفة لأشخاص كانت تحول إليهم ، وتوارىخ طويلة الأجل ، ثم كانت تجدد باستمرار حتى جمعها التاجر كلها يوما ، وسأل صديقه « فانكار » أن يتخذ عنه الاجراءات اللازمة ، رغبة منه فى أن لا يبدو كوحش ينهش لحوم بنى بلدته . .

وكانت « ايمى » تخطط قصتها بالشتائم تهيلها على « لوريه » . شتائم كان المئبق يجيب عنها — بين وقت وآخر — بكلمات لا معنى لها ، وهو يضيغ قطعة من لحم الضأن « الكوستيتية » ، ويحتسى الشاى . . مخفضا ذقنه حتى تستقر على ربطة عنقه ذات الزرقة السماوية ، التى كان يرصعها دبوسان ماسيان تصل بينهما سلسلة ذهبية صغيرة . . وكانت شفتاه تتفرجان عن ابتسامة غريبة . . ابتسامة معسولة ، ومبهمة . . وإذ لمح أن قدميها كانتا مبتلئين ، هف : « الا اقتربى من المدفأة . . ارفعى قدميك إلى حافة القيشانى » . . ولكنها خشيت أن تلتطخه ، فصاح المئبق فى لباقة : « إن الأشياء الجيلة لا تلتف شيئا . . » . . وإذ ذاك ، حاولت أن تؤثر على أوتار قلبه ، وقد جاشت أشجانها ، فشرعت تحدثه عن فقر دارها ، وعن هومها ، وحاجاتها . . وقال أنه يدرك ذلك ، ورثى لها ! . . وبدون أن

يكف عن الأكل، استدر نحوها تهما، حتى مست ركبته هذاعياها
للذين تقلص نعلها فأنشيا بفعل حرارة الموقد .. ولكنه زم
شفتيه حين سألته أن يقرضها ألف دينار، وما لبث أن صارحها
بأنه جد آسف لأنه لم يتول أمر ثروتها من قبل، وقد كانت هناك
مئات الطرق الملائمة - حتى للسيدات - لاستثمار الأموال ..
وكان في الوسع المساهمة بها في مناجم (جروسل)، أو في
أراضي (الهافر)، دون ما مجازفة، بل ربما كانا قد استطاعا
أن يقدمنا على بعض المضاريات الرائعة .. وتركها تتحرق أسفا
وحسرة على المبالغ الخيالية التي كان يوسعها أن تحصل عليها
.. واستطرد قائلا: «كيف حدث أنك لم تأتى إلى؟» ..
فقلت: «لم أكن أعرف» ..

— لماذا بالله؟ .. أفكنت أخيفك إلى هذا الحد؟ ..
على النقيض، أنا الذى كان ينبغي أن يشكو .. إننا لا نكاد
نكون متعارفين .. ومع ذلك فانا شديد الوفاء لك .. أمل أن
لا ترتابى في هذا؟

ومد يده فتناول راحتها، وغمرها بقبولات منهومة، ثم
استبقاها على ركبته، وراح يعبث بأصابعها في رفق، وهو
يغمغم بالف نجوى ناعمة .. وكان صوته الخافت ينساب
كحرير جدول، وقد راحت عيناه تومضان خلال عدستى
نظارتى اللامعيتين، وزحفت يده على كم «أيم» لتضغط ثراعا
.. وشعرت بانفاسه المتهدجة تلفح خدها .. كان هذا الرجل
يثقل عليها بدرجة نظيفة! .. فقفزت عن مقعدها وقالت له:

«سيدى، إننى انتظر!»، فقال الموثق الذى اشتد شحوبه
نجاة: «وماذا تنتظرين؟» ..

— هذا المبلغ — ولكن ..

ثم انصاع لجيشان شهوة عارمة، فقال: «حسنا ..
أجل!» وجر نفسه نحوها على ركبته غير عابىء بثوبه،
واستطرد: «ألا امكثى بحق الرحمة .. اننى أحبك!» ..
وأمسك بخصرها، فاحتقن وجه مدام «بوفارى» وتراجع
وهى ترمقه بنظرة قاسية، وصاحت: «أنك تنتهز فرصة
ضائقتى فتستغلها أشنع استغلال .. سيدى .. اننى جديرة
بأن يريئ لى .. لا بأن أباغ!» .. وانصرفت! .. وظل الموثق
مشدوها، وقد علق بصره بخفيه البديمين الموشيين بأشغال
الإبرة .. كانا هدية غرام، وقد وجد في رؤيتها عزاء .. فضلا
عن أنه فطن إلى أن المغامرة التي كان مقدما عليها، كانت
خليقة بأن تورطه إلى حد بعيد ..

وراحت تقول لنفسها وهى تطوى درجات السلم في خطى
منغفلة وتنتقل في الطريق تحت أشجار الحور: «ياله من
نذل!» .. وأدى الاستياء المترتب على إخفاقها، إلى مضاعفة
اعتزازها بعفتها المهانة .. وخيل إليها أن العناية الإلهية كانت
تلاحقها بما يثيرها، فالتصمت من كرامتها وكبريائها تقوية ..
ابدا لم تشعر من قبل بهتل هذا التقدير لنفسها، ولا بهتل هذا
السخط على الغير .. وأحست بروح الصراع تملكها، فودت
لو أنها صغعت جميع الرجال، وبصقت في وجوههم،
وسحقتهم جميعا .. ومضت في طريقها مسرعة لا تلوى

على شيء ، شاحبة ، مرتجفة ، ثائرة ، تتطلع إلى الأفق بعينين مغرورتين بالدموع .. وكأنها وجدت في ذلك الحقد الذى كان يخفيها ، نوعا من الترسية .. وما إن لحقت بيبتها حتى غشيها خور ، فاحست بأن ليس في وسعها أن تمضى إليه .. ومع ذلك كان من المحتوم أن تمضى .. فإلى أين المفر ؟

● بادرتها « فيليسيته » التى كانت في انتظارها لدى الباب : « حسنا ؟ » فأجابت « ايها » : « لا » .. وظلت كلتاها ربع ساعة تستعرضان أسماء مختلف الأشخاص الذين قد يستطيعون ان يمدوا يد العون ، من أهل (ايونفيل) . ولكن « ايها » كانت تعقب على كل اسم تذكره « فيليسيته » : « من الممكن ؟ لن يقبل ! » .

— والسيد الذى لن يلبث ان يعود !

— اعرف هذا جيدا .. فدعيني اخلو إلى نفسي !

وكانت قد بذلت كل محاولة ، فلم يبق ما تفعله .. وإذا ما عاد « شارل » فعليها ان تقول له : « عد ! .. إن البساط الذى تطاه لم يعد لنا .. انك لا تملك في بيتك قطعة اثاث .. ولا إبرة .. ولا قشة ! .. وأنا السبب في خرابك ايها الرجل البائس ! » .. وتعقب ذلك دمعمة كبيرة ، فيبكي في غزارة ، ثم .. تنفثع المفاجأة ، ويفغر لها ! .. وتمتعت وهى تصر على أسنانها : « أجل ، سيصفح عني ، وهو الذى لو قدم لى مليوناً لأغفر له كونه عرفنى ، لما غفرت ! .. أبدا ! أبدا ! .. » .. وغاظلتها هذه الفكرة الموحية بسمو « بوفارى » عليها .. انه

لن يلبث أن يعرف بالنكبة ، عما قريب ، او في الحال ، او غدا ، وسواء اعترفت له او لم تعترف .. ومن ثم فعليها ان تنتظر هذا الموقف الرهيب ، وان تتحمل وطأة مروءته ونخوته (حين يدرك ما فعلت به ثم يصفح عنها) .. وتملكتها الرغبة في ان تعود إلى « لوريه » .. ولكن ما الجدوى ؟ .. هل تكتب لأبيها ؟ .. لقد تأخر الوقت كثيرا .. ولعلها كانت قد بدأت تندم على انها لم تستسلم لذلك الرجل — « جيومان » — حين سمعت وقع سنابل جواد في الحارة التى تقع خلف دارها .. كان هو : « شارل » .. كان يفتح البوابة .. وجهه أشد بياضا من الجبس .. واندفعت تهبط السلم ، وهرعت إلى الميدان .. ولحقتها زوجة العمدة — التى كانت تتحدث إلى « ليستيودا » أمام الكنيسة — وهى تدخل عند محصل الضرائب ، فأسرعت لتقبى مدام « كارون » ، وصعدت السيدتان إلى المخزن الذى يقع تحت سقف المبنى ، فكنتا وراء قماش نشر على « المنور » ، وتعبتا لتطلا على غرفة « بينيه » فى وضع يريانهما فيه بأسرها ..

● كان « بينيه » وحيدا ، وقد انهك في صنع تحفة من تلك التحف الخشبية التى لا وصف لها ، والمؤلفة من اهلة (جمع هلال) ذات محيطات مجوفة يتداخل كل منها في الآخر ، بحيث تستقيم القطع في مجموعها كالمسلة ، وإن لم يكن لها أى نفع ! .. وكان قد شرع في آخر قطعة .. أوشك أن ينتهى إلى هذه . وفى الضوء الخافت الذى كان في الورشة ، كان الغبار الأبيض يتطاير من الآلات كذاذ من الشرر ينبعث من تحت سنابل جواد يضرب في جريه .. وكانت عجلتا المخرطة تدوران ،

وتبعن زئيرا .. و «بنييه» يتسم ، وقد نكس ذقنه ، وفتحت طاقنا أنفه ، وبدا — بإيجاز — مستغرقا في إحدى تلك المتع الكاملة التي لا تتأتى إلا من الأعمال العادية ، والتي تجعل العقل يستعذب المصاعب البسيطة ! وتشبع سعادة أخرى ، فوق كل ما يمكن للعقول أن تحلم به !

وهتفت مدام توفاش : « آه .. ها هي ذى ! » .. ولكن ، كان من المتعذر أن تسمعا ما كانت تقوله « ايما » ، وسط ضجيج المخرطة . وحديث السيدتان في النهاية انهما سمعتا كلمة « فرنكات » ، فهبت مدام « توفاش » بصوت خفيض : « انها ترجوه أن يهلهما في دفع ضرائبها » ، فأجابت الأخرى : « هكذا يبدو ! » .. وأبصرتهاها تروح وتغدو ، متفحصة بشاغب المنشغات ، والشمعدانات ، والأسيجة (الرابزينات) الخشبية التي كانت مسندة إلى الجدران ، بينما كان « بنييه » يتحسس لحينه في رضى .. وقالت مدام توفاش : « أترينها تريد أن تكلفه بصنع شيء لها ؟ » ، فقالت الأخرى : « كيف ؟ .. انه لا يبيع شيئا » .

ولاح أن محصل الضرائب كان يستمع وقد فتح عينيه ، كمن لا يفقه ، و « ايما » ماضية في ضراعة ناعمة .. واقتربت منه وصدرها يتهدج .. ولم يعودا يتكلمان .. وقالت مدام توفاش : « أترينها تعرض عليه بعض الأجر مقدما ؟ » .. وكان الدم قد تصاعد في وجه « بنييه » حتى أذنيه ، فأمسكت بيده .. — آه .. هذا كثير جدا !

ولابد انها كانت تعرض عليه أمرا بشعا منكرا ، فان

محصل الضرائب كان رغم كل شيء ، عفيفا .. لقد حارب في (بوزان) و (لوتزان) ، وخاض الحملة الفرنسية بأسرها ، ورشح للفوز بوسام « اللجيون دونير » .. ومن ثم ، فإنه لم يلبث فجأة أن تراجع إلى أبعد ما استطاع ، وكأنه رأى أمامه حية ، وصاح : « سيدتى ، ماذا تعنين ؟ » .. وهبت مدام « توفاش » لصاحبها : « إن أمثال هذه المرأة يجب أن يضربن بالسياط » .. فقالت مدام « كارون » : « ولكن أين هي ؟ » .. إذ كانت « ايما » قد اختفت أثناء هذه الهمسات ثم لمحاتها نهضى في الشوارع الرئيسية ، وتخرج إلى اليمين وكأنها متجهة إلى المقبرة .. وشغلنا عنها بالحدس والتخمين !

وقالت « ايما » إذ بلغت دار المربية : « دادة روليه .. اننى أختق .. افتح صدر ثوبى » .. وارتبت على السرير منتحبة .. وغطتها المربية « روليه » بـ « جولة » وظلت واقفة إلى جوارها .. ثم انسحبت المرأة الطيبة إذ لم تتلق من الأخرى جوابا ، وتناولت مفزلها وراحت تفزل كتانا .. وغغمت « ايما » إذ خالت انها تسمع صوت مخرطة « بنييه » : « آه ! .. هلا انتهيت ! » .. فقالت المربية لنفسها : « ترى ما الذى يزعمها ؟ .. لمساذا جاءت هنا ؟ » .. كانت « ايما » قد اندفعت إلى هناك ، مسوقة بنوع من الخوف كان يدفعها بعيدا عن دارها .. وفيها كانت مستلقية على ظهرها ، بلا حراك ، وقد جهدت مقلتها ، أخذت ترى الأشياء في غير وضوح ، وإن حاولت أن تستبينها في إصرار أبله ! .. وحدقت في طلاء الحائط المتساقط ، وفي قطعتى الخشب اللتين كان طرغاهما التقاربان يبعثان دخانا في المدفأة ، وفي عنكبوت يزحف

فوق رأسها، فى شق خلال الخشب .. وأخيرا ، شرعت تجمع شتات افكارها .. تذكرت يوما كانت فيه مع « ليون » .. اواد ، ما أبعد ذاك اليوم ! .. وكانت الشمس تسطع متألقة على صفحة النهر ، ونبات « الداليا » يؤرج الهواء .. وما لبثت أن شرعت تتذكر اليوم السابق - الأمس - وكأنها جرفها سيل طاع .. فتساءلت : « كم الساعة ؟ » .. وخرجت الأم « روليه » ، فرفعت اصابع يدها اليمنى فى وضع عمودى على ذلك الجانب من السماء الذى كان أكثر ضياء من سواه ، ثم عادت فى تودة ، قائلة : « حوالى الثالثة » .

— آه ! .. شكرا ! شكرا !

.. أن « ليون » ولا بد قد اتى .. إنه لا بد آت طبعاً .. ولا بد أنه وفق إلى بعض المسال .. بل لعله هناك الآن فعلاً ، فما كان ليحدث أنها هنا .. ومن ثم أمرت المريية بأن تسرع إلى دارها وتحضره .. وأهابت بها : « أسرعى ! » .. فقالت : « ها أنذى ذاهبة يا سيدتى العزيزة .. ذاهبة ! » .

* * *

● وعجبت « ايمّا » من نفسها ، كيف لم يخطر ببالها ان تفكر فيه من البداية ؟ ! لقد وعدها بالأمس ، وما كان ليحدث بوعده .. وراحت تتمثل نفسها وقد ذهبت إلى « لوريه » ، فبسطت ثلاث ورقات مالية على مكتبه .. ثم تعمل على ابتكار قصة تشرح بها الأمور لبوفارى .. ترى أية قصة ؟ .. وطال غياب المريية .. ولما لم تكن فى الكوخ ساعة ، فقد خشيت « ايمّا » ان تكون قد بالغت فى تقدير طول الزمن الذى انقضى

.. واخذت تجوس خلال الحديقة فى تودة .. وبهمت شطر الدرب المجاور للسباج ، ثم عادت مسرعة ، أملا منها فى أن تكون المريية قد عادت من طريق أخرى . وأخيرا ، أثقلها الانتظار ، وأخذت تراودهها المخاوف — التى جهدت فى أن تصدها عن نفسها — ولم تعد تدرى ما إذا كانت قد مكثت فى المكان قرناً أو لحظة ، فجلست فى أحد الأركان ، واغمضت عينيهما ، وسدت أذنيهما . وما لبث أن اتبعت من الباب صرير ، فقفزت واقفة .. وقيل ان تتكلم ، قالت لها الأم « روليه » : « ليس فى دارك احد ! » فتهافت : « كيف ؟ » .

— آه ! لا أحد ! .. والسيد بيكى .. ويناديك .. انهيم يبحثون عنك !

ولم تجب « ايمّا » ، بل شهقت وهى تجيل بصرها حولها ، بينما ارتدت الفلاحة إلى الخلف بحركة غريزية ، وهى خائفة ، إذ توهمت انها جنت .. ونجاة ، دقت « ايمّا » جبينها ، وصرخت .. فقد أومضت فى اعماقها ذكرى « رودولف » ، كلبح البرق فى ليلة مظلمة .. لقد كان مغرط الطيبة ، والرقعة ، والكرم ! .. وبجانب ذلك ، فانها خليفة بأن تعرف — إذا تردد فى اداء هذه الخدمة — كيف توقظ فى لحظة واحدة غراميهما الضائع ! .. ومن ثم انطلقت صوب مزرعة (لاهوشيت) ، غير مدركة انها كانت تسرع لتقدم نفسها إلى ذلك الذى خيب آمالها من قبل .. وغير مرتابة انه ربيبة فى تائثر خلاعتها !

وما إن رآها حتى نهض في عجلة قائلاً : « عجباً ! .. اهذه انت ؟ » .

— أجل ، هذه أنا يا رودولف .. أحببت أن استعين برايك .

وعلى الرغم من كل جهودها ، فقد استحال عليها أن تفتح فيها .. وقال : « انك لم تتغيري .. ما زلت فائنة كالعهد بك ! » فاجابت ببرارة : « آه .. انها مفاتن حزينه يا صديقي ، مذ تبتها ! » .. وعندئذ لا شرع في شرح طويل لمسلكه ، مبرراً تصرفه بعبارات مبهمه ، إذ عجز عن أن يبتكر مبررات أفضل .. وتقبلت كلماته ، متأثرة بصوته وشكله ، فتظاهرت بأنها صدقته ، أو لعلها فعلاً صدقت الحجة التي قالها معللاً قطيعتهما ، إذ زعم في الأمر سرا يتوقف عليه شرف — بل حياة — شخص ثالث !

وقالت متطلعة إليه في أسى : « لا بأس ! .. لكم تأملت ! » .. فاجاب متفلسفاً : « هكذا هي الحياة ! » .. فعمقت قائلة : « افترأها كانت مواتية لك — انت على الأقل — منذ فراقنا ؟ » .

— لم تكن بالطيبة .. ولا بالدرئنة

— لعله كان من الأفضل لو أننا لم نفترق !

— أجل ، ربما

— أو تظن ذلك ؟

وازدادت منه اقتراباً ، وزغرت قائلة : « أواه يا رودولف ! .. لينك كنت تعرف .. كم أحببتك ! » .. وإذ ذاك ، تناولت يده .. ومكثا برهة وقد اشتبكت أصابعهما ، كما كانت في أول يوم ، حين زارا المعرض .. وأخذ يتساولم في كبرياء جيشان

الفصل الثامن

● وسألت نفسها وهي منطلقة : « ماذا تراني قائلة ؟ » .. من أين ابدا ؟ » وأخذت في طريقها تتفكر الأحراش ، والأشجار ، وأعواد الخيزران البحري النامية على السفح .. ثم القصر .. وألفت نفسها تعود إلى أحاسيس حبها الأول ، فتفتح قلبها المسكين ، النابض بالآلم ، لهذا الحب .. ولفحتها نسمة دافئة .. وبدا الجليد يذوب ويتساقط قطرة قطرة من البراعم إلى الأعشاب .. ودخلت ، كما اعتادت في الماضي ، خلال باب البستان الصغير ، وسعت إلى الطريق المحفونة بصفين من أشجار الزيزفون الوارفة ، التي كانت تهز أغصانها الطويلة في حفيف .. ونجت الكلاب في حظيرتها نباحاً متواصلاً ، فترددت ضوضاء نباحها ، دون أن يظهر أحد .. وصعدت « أيما » السلم الأمين ، ذا « الدرابزين » الخشبي ، المنضى إلى ردهة مرصوفة ببلاط مغبر ، يمتد فيها صف من الأبواب المفتوحة ، وكأنها تقوم في دير ، أو في فندق .. وكانت غرفته في النهاية ، في الطرف الأقصى ، إلى اليسار ..

وإذ وضعت أصابعها على مقبض الباب ، زابتها قواها نجاة ، وغشيتها خوف أوشكت معه أن تمنى لو أنها لم تكن هناك .. رغم أن هذا كان إلهها الأوحده .. فرصتها الأخيرة للنجاة ! .. واستجمعت ثنات فكرها لحظة ، وتفرعت بالشعور بحاجتها الملحة ، ثم ولجت الغرفة .. فإذا به أمام المدفأة ، وقد رفع قدميه إلى حافتها ، وأخذ يدخن غليونه ..

عواطفه ، ولكنها تهالكت على صدره قائلة : « كيف اردتني على ان احيا بدونك ؟ .. إن المرء لا يستطيع ان يسلم السعادة التى تعودها ! .. لقد كنت يائسة .. بل ظننت اننى لا بد ميتة ! .. لسوف ارى لك كل شيء ، ولسوف ترى بنفسك ، اما انت .. أنت .. فقد هربت منى ! » ..

كان قد تفادها طيلة السنوات الثلاث فى حرص ، بسبب ذلك الخور الغريزى الذى يمتاز به الجنس الأسوى .. واستطردت « ايما » فى حركات مقرية من رأسها ، وفى معاينة تفوق معاينات القطعة العاشقة : « انك ولابد تحب أخريات .. اعترف ! .. واوه ! اننى لأدرك ذلك حقاً ! ولكننى اعزهن ، فانت ولابد اغويتهن كما اغويتنى ! .. انك رجل .. فيك كل ما يجعل الأنثى تجبك ! .. ولكننا سنبدأ من جديد ، اليس كذلك ؟ .. سيحب كل منا الآخر .. الا انظر ! .. اننى اضحك .. اننى سعيدة ! .. كلمنى ! » ..

وكانت متعة للرأى ، بمعينها اللتين كانت الدموع ترتفعن فيهما ، كماء مزن يسقط فى كأس زرقاء ! .. واجلسها على ركبتيه ، وراح يمسح بظهر يده ، فى تدليل ، شعرها الناعم الذى انعكس عليه — فى العنمة الخفيفة التى شملت الغرفة — شعاع من فلور أشعة الشمس الغاربة ، فبدأ كما لو كان سهماً ذهبياً واهنت رأسها .. وما لبث أخيراً أن قبل فى لطف جفنيها بأطراف شفتيه .. وتساءل ! « ولكنك كنت تبكين .. لماذا ؟ » .. وانثى دمعها مدراراً ، فخيل لرودولف انها فورة من فورات الحب ، فلما لم تبس ببنت شفة ، فسر هذا الصمت بأنه آخر مظاهر التمتع والدلال ، فهتف : « واوه ! .. الا

اغفرى لى ! .. أنت الوحيدة التى تروق لى .. لقد كنت غيباً وقاسياً .. اننى احبك .. وسأظل احبك على الدوام .. فماذا بك ؟ .. الا قولى لى ! » .. وركع فى تلك الأثناء إلى جوارها . — آه .. لقد قضى على بالخراب يا رودولف ! .. هلا اقرضتنى ثلاثة آلاف فرنك ؟

قال وهو ينهض فى تودة ، وقد استولى على اساريه وجوم : « ولكن .. ولكن .. » فبادرت قائلة بسرعة : « انك تعلم أن زوجى عهد إلى موثق للعتود بكل ثروته ليستثمرها .. فهرب .. ومن ثم اضطررنا للاقتراض .. والمرضى لا يدفعون .. كما أن تصفيه الميراث لم تتم بعد ، ولن نلبث أن نحصل على نصيبنا .. على أننا اليوم محجوز على متاعنا لمجزأ عن دفع ثلاثة آلاف فرنك .. لا بد من دفعها فوراً ، فى هذه اللحظة .. فجنبت لائذة بصدافتك ! » ..

قال « رودولف » لنفسه وقد شحبت وجهه : « آه ! إذن لهذا جاءت ! » .. وقال أخيراً فى هدوء : « لست املكها ياسيدتى العزيزة ! » .. ومضى يقول إنه لم يكن يكذب .. لو انه أوتى المبلغ لما تردد فى أن يعطيه لها ، وإن كان من غير المستحب — عادة — التورط فى مثل هذه الأمور الدقيقة ، فان المطالبة بالمال هى ابرد الرياح التى تهب على الحب واشدها قسواء عليه ! .. وظلت « ايما » تتطلع إليه لحظات ، وهى تردد : « الست تملكها ؟ ! .. الست تملكها ؟ .. كان خليقاً بى أن اجنب نفسى هذا الخزى الأخير .. انك ما احببتنى ابداً .. انك لست بأفضل من الآخرين » .. كانت تفضض عن نفسها ، وقد فقدت أترانها .. وقاطعها « رودولف » قائلاً إنه هو الآخر

في « ضائعة » ، فقلت « ايها » : « آه ! .. اننى ارثى لك .. اجل .. ارثى لك جدا ! » .. وراحت ترمق طينجة موشاة بالفضة ، وقد أخذت مؤخرتها تلعب خارج قرابها .. واستطردت : « ولكن المرء إذا كان فقيرا إلى هذا الحد ، لا يبذل نقوده في كسوة كعب طينجته بالفضة .. ولا يشتري ساعة مرصعة بالصدف .. وأشارت إلى ساعة مطعمة بالنقوش الصدفية ، واستطردت : « ولا مقابض مطلية بالفضة لاسواطه » وبست هذه المقابض .. « ولا تحفا يعلقها إلى سلسلة ساعته .. أواه ! .. أنه لا يحرم نفسه شيئا ! .. ولا رف الخمر في حجرته ! .. أنك تحب نفسك ، ولذا تعيش منعما .. لك قصر ، ومزارع ، وغابات .. وتخرج للصيد .. وتسافر إلى باريس .. عجبنا .. أى شيء من هذه .. » وصاحت وهي تتناول زرين من أزرار الأقنعة الذهبية المرصعة من فوق رف المدفأة : « إن اتفه هذه الصغائر تكبد المرء مالا .. أواه ! .. لست أريدهما .. احتفظ بهما ! » .. وألقت بالزرين بعيدا ، فنفكتك السلسلة الذهبية التى تتوسطهما ، إذ ارتطما بالجدار .. ثم أردفت « ايها » تقول :

— أما أنا .. فقد كنت قهينة بأن اعطيك كل شيء .. ما كنت اتردد في ان ابيع كل ما املك ، وان اعمل بيدي من أجلك .. كنت استجدي على قارعات الطرق ابتسامة ، نظرة .. كى اسمحك تقول : « اشكرك ! » .. أما أنت فتجلس هنا ناعما في مقعدك الوثير ، كأنك لم تسبب لى ما يكفينى من العذاب ! .. لولاك — وإنك لتعلم هذا جيدا — لعشت سعيدة .. ما الذى حبلك على أن تدخل حياتي ؟ .. أكان رهانا ؟ .. ومع ذلك فقد

احببتنى ، ولقد اعترفت بذلك .. بل قلتها منذ لحظة .. آه ! .. كان من الخير لو أنك طردتني .. أن يدى لا تزالان ساختين من قبلاطك .. ولا يزال على البساط آثار ركبتك وأنت تقسم على خلود حبك ! .. جعلتني اصدقك .. استبقيتني عامين في ابهى واحلى الأحلام ! .. آه ! .. أتذكر الخطط التى رسمناها لرحلتنا ؟ .. أواه ! .. وخطابك ! خطابك ! لقد مزق قلبى ! .. وبعد ذلك ، عندها أعود إليه — إليه ، وهو الغنى ، السعيد ، الطليق — أناشده معونة لا يحجم أى غريب عن تقديمها .. الآن إذ أضرع إليه ، وأعيد إليه كل حبي وحنانى ، يطردنى .. لأن كل هذا لا يساوى عنده ثلاثة آلاف فرنك ! ..

قال « رودولف » ، بتلك الرزانة التامة التى يتوارى خلفها الغضب المخطوم ، كما لو كانت درعا : « لست أملك المبلغ ! » .. مخرجت « ايها » .. كأنها كانت الجدران تترنج ، والسقف ينقض عليها .. ورجعت ادراجها سالكة الدرب الطويل ، متعثرة في اكوام ورق الشجر الجاف الذى كانت الريح تذروه .. وبلغت أخيرا السياج النباتى الذى يقوم قبل الباب الخارجى .. وانلفت أظافرها وهي تعالج قفل الباب ملهوفة على غصه ، ثم وقفت بعد مائة خطوة ، وقد تعثرت أنفاسها ، واوشكت أن تنهار .. وما لبثت أن تلفتت خلفها ، وتطلعت مرة أخرى ، إلى القصر المنيع ، مع البستان ، والحدائق ، والأغنية الثلاثة ، ونوافذ الواجهة ..

ومكثت حائرة ، مذهولة ، لا تشعر بنفسها إلا خلال نبض عروقتها الذى خالته منبععا في قسوة ، كموسيقى تضم الأذان ، وتنتشر في الحقول جميعا .. وكانت الأرض تحت قدميها أكثر

تداعيا من البحر ، وشقوق الحرت تلوح لها كأمواج تتكسر مزبدة .. وانطلق كل شيء في رأسها — من ذكريات ، وآراء — كصواريخ نارية تنفتحت في الفضاء إلى ألف قطعة : تمثلت أباه .. وحجرة المكتب الضيقة بدار « لوريه » .. وحجرة نومها وزوجها في البيت .. ومناظر أخرى .. كان الجنون يطبق عليها .. واشتد بها الخوف .. وجاهدت لتتمالك نفسها ، ولكنها في الواقع كانت مرتبكة ! .. فما كانت لتذكر شيئا عن السبب الحقيقي في حالها الرهيبة هذه .. وهو طلب المال ! .. إذ لم تعد تتعذب إذ ذاك إلا من غرامها ، وأحسنت بأن روحها تفرقها في هذه الذكرى ، كالجرحي إذ يشعرون — وهم يحتضرون — بحياتهم تتسلل خلال جراحهم .. وكان الليل يرخى سدوله ، والغربان تحوم .. وفجأة خيل إليها أن ثمة كرات ملونة من لهب تنفجر في الهواء — كالصواريخ حين تنطلق — ثم تلف ، وتلف ، ولذوب في النهاية في الصقيع ، بين أفنان الشجر .. وفي وسط كل كرة ، كان وجه « رودولف » يلوح .. وتكاثر الكرات وأخذت تقترب منها .. وتنفذ خلالها .. ثم تلاشت كلها ، إذ تبينت أنها إنما كانت تحلق في أضواء البيوت المتألقة خلال الضباب !

إذ ذاك ، عاد موقفها يتجلى لها كهوة سحيقة .. وكانت تلهث وكأنها قلبها يوشك أن ينفجر .. ثم ، وفي نوبة من نوبات البطولة — جعلتها في شبه غبطة — اندفعت تهبط السفح ، وتجتاز معبرة البقر فوق النهر ، وتنطلق مجتازة الشوارع ، والحارة ، والميدان ، حتى وصلت إلى الصيدلية ، وكانت خالية .. وهمت بالدخول ، ثم خشيت أن يرن الجرس فيخف إلى

الخانوت أحد .. وتسللت خلال الباب الجانبى للحديقة ، وهي تمسك أنفاسها ، ثم تلمست سبيلها بجوار الجدار إلى باب المطبخ ، حيث كانت ثمة شبعة مشتعلة فوق الموقد .. وكان « جوستان » هناك بدون سترته ، وقد حمل إحدى الصحاف ، فقالت : « آه ! .. انهم يتناولون عشاءهم .. لننتظر ! » .

● ورائه يعود إلى المطبخ ، فطرقت النسافة في رفق ، وخرج إليها ، فهمست له : « المفتاح .. مفتاح الحجرة العليا .. حيث توجد .. » ، فتساءل : « ماذا ؟ » .. ورمقها بشدوها لقرط شحوب وجهها ، الذى بدا بياضه جليا وسط ظلمة الليل ، وبدت له في جمال وبهاء غير عاديين ، وكأنها طيف .. وأحس بنذير مرعب ، وإن لم يفهم ما كانت تبغى .. ولكنها عادت تقول بسرعة ، في صوت خافت ، عذب ، يذيب القلوب : « اننى أريده .. اعطنيه ! » .. وإذ كان الجدار الذى يفصل المطبخ عن بقية البيت رفيعا ، فقد كانت جلبة الشوكات على صحاف الطعام — في غرفة المائدة — مسموعة .. وزعيت « ايمما » أنها بحاجة إلى قتل بعض الجرذان التى تحرّمها النوم .. — يجب أن استأذن السيد .. — لا ! .. انتظر !

ثم اردفت في غير اكتراث : « آه ! .. الأمر لا يستحق .. لن البث إن أقول له ! .. هيا ! أنرلى السلم ! » .. ودلفت في الردهة المفضية إلى باب المعمل .. وكان ثمة مفتاح معلقا على الجدار ، يحمل بطاقة كتب عليها « كفر ناحوم » .. وفي تلك اللحظة صاح الصيدلى بصبر ناغد : « جوستان ! » .. فهتفت « ايمما » : « لنصعد ! » .. وتبعها .. ودار المفتاح في القفل

.. وسارت فوراً نحو الريف الثالث، مهتدية بذاكرتها، فتناولت القنينة الزرقاء، وانتزعت سدadtها عنها، ودست فيها يدها، ثم أخرجتها ممتلئة بمسحوق أبيض، شرعت تلتهمه ! .. وصاح الفتى وهو ينقض عليها : « توقفي ! » .

— صه ! .. وإلا جاء أحد ..

وتولاه الياس، فود لو يصرخ، ولكنها قالت له : « لا تقل شيئاً، والا وقعت المسؤولية على مخدومك ! » .. ثم عادت إلى دارها وقد غشيها سكينه مفاجئة، ودخلتها طمانينة من أدى واجبه .

● عندما عاد « شارل » إلى بيته مهموماً لأنباء الحجز وإعلان البيع، كانت « إيما » قد خرجت، فطفق يبكي مجهشاً، وأغمى عليه . ولكنها لم تعد ! ترى أين يحتفل أن تكون ؟ .. أوفد « فيليبسيه » إلى دار آل « هوميه »، وإلى دار السيد « توفاش »، ودار « لوريه »، و « الفندق الذهبي »، وكل مكان .. وفي فترات الهدوء التي تخللت أحزانه، كان يتمثل سمعته المضيعة، وثروتها المبددة، ومستقبل « بيرت » المضعف .. بأي سبب ؟ .. لم تكن ثمة كلمة واحدة تهديه ! .. وظل ينتظر حتى الساعة السادسة مساءً، وأخيراً لم يعد يطيق صبراً .. خيل إليه أنها ذهبت إلى (روان)، فانطلق في الطريق المفضية إليها، وقطع ميلاً، دون أن يلتقي بأحد .. ومرة أخرى، أخذ ينتظر .. ثم عاد إلى البيت .. وكانت قد عادت .

— ماذا جرى ؟ .. لماذا ؟ .. أخبريني ..

جوستاف فلوبر

٢٣٣

وجلبت إلى مكتبها فكتبت رسالة، ثم أحكمت إغلاقها في بطن، وأثبتت عليها التاريخ والساعة .. ثم قالت في صوت ينذر بالجلل : « لك أن تقرأ هذه غداً .. حتى ذاك الوقت، أرجو أن لا تسألني .. ولا سؤال واحد ! » .

— ولكن .. — أواه .. دعني !

واستطلقت « إيما » على فراشها .. وانتابتها غفوة استيقظت منها على طعم مرير في فمها .. ورأت « شارل »، فعادت تغمض عينيها .. وأخذت تدرس نفسها في فضول، لتستبين ما إذا كانت بمنجى من الألم .. ولكن لا ! .. لم يكن ثمة ألم بعد .. وسمعت دقات بندول الساعة، وأزيز النار في المدفأة، وأنفاس « شارل » وهو واقف إلى جوار السرير معتدل القامة، وقالت لنفسها : « آه ! .. ما أهون الموت ! .. لن البت أن استغرق في النعاس، ثم ينتهي كل شيء ! » .. وتناولت جرعة من الماء ثم ادارت وجهها نحو الحائط .. وعاودها الطعم البغيض .. كأنه طعم المداد ! .. وتنهدت قائلة : « إنني ظالمة .. آه ! لشد ما أنا عطشانة ! » .. فقال « شارل » وهو يتأولها كوباً من الماء : « ماذا بك ؟ » .. فقالت : « لا شيء ! .. افتح النافذة .. إنني اختنق ! » .. ودعها غثيان مفاجيء حتى أنها لم تكد تجد وقتاً لتسحب المنديل من تحت الوسادة .. وقالت في عجلة : « خذه بعيداً .. القه بعيداً » .. وراح يحدثها، ولكنها لم تجب، وظلت راكدة بلا حراك، تخشى أن تؤدي اتفه حركة إلى التقيؤ من جديد .. ولكنها بما لبثت أن احسبت ببرودة جليدية تزحف من قدميها نحو قلبها وغمفت : « آه ! .. هذه هي البداية ! » .. فقال : « ماذا

قلت ؟ .. فأخذت تحرك رأسها من جانب إلى آخر في حركة خفيفة مفعمة بالآلم ، وهي لا تنى تفتح فمها ، وكأن شيئا ثقيلا يجثم على لسانها .. وفي الساعة الثالثة ، عاودها القيء .. ولاحظ « شارل » في قاع الحوض قطعا من مادة بيضاء ، لاصقة بجوانب القيشاني ، فأخذ يردد : « هذا غريب .. جد غريب ! » .. ولكنها قالت في صوت حازم : « لا .. انك تخطيء » .. وما لبث أن مد يده في رفق ، بل وفي تطفل ، متحسسا بطنها ، فأرسلت صرخة حادة .. وتراجع مذعورا !

وما لبثت أن أخذت في الأتئين ، بصوت خافت في البداية .. وتولتها رجفة شديدة كانت كتفاهما تهتران لها .. وأخذت تزداد شحوبا حتى فاقت في البياض تلك الأغطية التي كانت أصابعها تنشيث بها وتغوص فيها .. ومالبت نبضها غير المنتظم أن ومن حتى أوشك أن لا يكون محسوسا .. وتقصدت قطرات العرق من وجهها الذي غدا أزرق اللون ، والذي بدا كما لو كان جامدا تحف به غلالة من ابخرة معدنية .. وأخذت أسنانها تصطك ، وعيناها الواسعتان تجولان فيها حولها بنظرات مبهمه .. ولم تكن تجيب عن أي سؤال إلا بهزة من رأسها .. بل إنها ابتسمت مرة أو اثنتين .. وأخذ انينها يشتد ارتفاعا شيئا فشيئا ، ثم انبعثت منها صرخة جوفاء .. وتظاهرت بأنها أحسن حالا ، وأنها لن تلبث أن تنهض .. بيد أنها ما لبثت أن أخذت تختلج في تشنج وصرخت : « آه ! يا الهى ! هذا فظيع ! » .

وهبط راکما إلى جوار سريرها قائلا : « نبئيني ! ماذا أكلت ؟ .. أجيبني بحق السماء ! » .. وأخذ يتألمها وعيناه



وهبط راکما إلى جوار سريرها قائلا : « نبئيني ! ماذا أكلت ؟ .. أجيبني بحق السماء ! » ..

تفيضان بحنان لم تر مثله قط ، فقالت بصوت واهن :
« حسنا ! .. هناك ! .. » وانقض على المكتب ، ونض
الرسالة ، وقرا بصوت مرتفع : « لاتتهموا احدا » .. وامسك ،
وفرك عينيه ، ثم عاد يقرأ من جديد ، وما لبث أن صاح :
« ماذا ؟ .. النجدة ! النجدة ! » .. ولم يتمالك أن راح يردد
كلمة « مسمومة ! مسمومة ! » .. وهرعت « غيليسيتيه » إلى
« هوميه » الذى أعلن النبا بصياحه فى الميدان ، حتى سمعته
مدام « لوفرائسوا » فى « الفندق الذهبى » .. وقام البعض من
اماكنهم ليحملوه إلى جيرانهم ، وظلت القرية مستيقظة طيلة
الليل ..

وكان « شارل » يطوف بالحجرة مخبولا ، مضطربا ، مترنحا
.. يتخبط فى قطع الاثاث ، ويشد شعره .. وما كان الصيدلى
ليصدق قط أن سيقدر له أن يرى مثل هذا المنظر الرهيب ..
فعاد إلى داره ليكتب إلى السيد « كانيفيه » وإلى الدكتور
« لاريفير » .. وكان مشئت الفكر ، حتى انه كتب أكثر من
خمس عشرة مسودة .. وذهب « هيبوليت » إلى (نيوشاتل) ،
وراح « جوستان » يلكر جواد « بوفارى » ، حتى تركه متقطع
الأنفاس ، بل شبه ميت ، بجوار غابة (جيوم) .. وحاول
« شارل » أن يستشير قاموسه الطبى ، ولكنه لم ير شيئا ،
إذ كانت السطور تتراصص .. وقسال الصيدلى : « اهدأ ..
ليس أمانا سوى أن تعطى جرعة قوية مضادة للسم .. اى
سم كان ؟ » .. فأراه « شارل » الخطاب .. كان زرنخا ..
وقال هوميه : « حسنا .. لابد من أن نجرى تحليلا » .. فقد كان
يعلم أن لابد من اجراء تحليل فى حالات التسمم .. وأجاب الآخر

وهو لا يفقه شيئا : « آه .. فليكن ! ليكن ! انقذها ! .. »
ثم عاد إليها فتهالك على البساط ، وظل مستلقيا هناك
مسندا رأسه إلى حافة السرير ، وهو يبكي .. فقالت له :
« لا تبك ! .. لن أعود ازعجك عما قريب ! »
— لماذا ؟ .. من الذى دفعك إلى هذا ؟
فأجابت : « كان لابد منه يا عزيزى » ..
— أفلم تكونى سعيدة ؟ .. أكان هذا ذنبى ؟ .. لقد
بذلت كل ما فى وسعى !
— أجل ، هذا صحيح .. انك طيب !

ومسحت بيدها على شعره ببطء .. وضاعفت عذوبة
هذا الشعور من حزنه .. أحس بكل كيانه يذوب فى القنوط إذ
خطر له أنه سيفقددها ولابد ، فى الوقت الذى كشفت فيه عن حب
له يفوق كل ما أبدت من قبل .. ولم يجد فى رأسه فكرة ..
كانها لم يكن يعرف شيئا ، أو يملك شيئا .. كانت الحاجة
الماسة إلى قرار عاجل ، ضربة قاضية أكلت اضطراب
فكره ..

وفكرت « ايمما » فى نفسها : إذن فقد قضت على كل
الخيانة ، والخسة ، والشهوات التى لا حصر لها ، والتى
كانت تعذبها .. لم تعد تكره احدا .. وبدأت تخيم على أفكارها
عتمة مضطربة .. ولم تعد « ايمما » تميز من كل ضجيج الحياة
شيئا سوى النحيب المتقطع المنبث من ذلك المسكين الطيب ،
والذى بدا لها كأصداء لحن يموت فى الفضاء .. فقالت وهى
ترفع جسمها مستندة إلى مرفقها : « أحضر لى ببرت : » ..

فسالها «شارل» : « انك لم تعودى مريضة .. اليس كذلك ؟ »
فقلت : « لا ، لا ! » .

وجاءت الطفلة على ذراع الخادم ، وقدمها العاريتان
تبرزان من تحت ذيل ثوب النوم الطويل .. واجبة المحيا ،
ولا تزال شبه نائمة ! .. وتابلت الحجرة المرتبكة فى دهشة ،
وطرفت اهدابها إذ بهرها ضوء الشموع التى كانت مشتعلة
على المنضدة .. ولا بد أن هذا ذكرها بأيام رأس السنة ، أو
منتصف الصيام الكبير عندما كانت تستقيظ من نومها مبكرة على
ضوء الشمعة .. وقد اعتادت إذ ذاك أن تسمى إلى سرير أمها
لتلقى هداياها .. ومن ثم هتفت فجأة ! « أين ما إذن ؟ »
.. وإذ وجم الجميع ، قالت : « ولكنى لا أرى جوربى
الصغير ! » .. وحملتها « فيليسيته » إلى السرير ، وهى
لا تزال تنظر إلى رف المدفأة ، وتساءلت : « هل أخذته
المرضة ؟ » .

وكانما أثار ذكر «المرضة» فى نفس مدام « بوفارى »
ذكرى فسقا ومصائبها ، فأشاحت وكانما غثيت نفسها
بمفعول سم أقوى من ذاك الذى أخذته .. وكانت « بيرت »
فى تلك الأثناء قد جلست على السرير ، فهتفت : « آه ! ..
ما أكبر عينيك يا ماما ! .. وما أشد اصفرارك ! ..
يا لحرارتك ! » ونظرت إليها أمها ، فإذا بها تنكش قائلة :
« اننى خائفة ! » .. وتناولت « ايمما » يد الصغيرة لتقبلها ،
فتملصت .. وعندئذ صاح « شارل » الذى كان يبكى عند رأس
السرير : « كفى ! انصرفوا بها ! » .

وما لبثت الأعراض أن توقفت قليلا ، وبدت « ايمما » اقل

تملأ من ذى قبل .. وأخذت تبدو أهذا حالا عند كل كلمة غير
ذات قيمة ، أو كل نفس يتهدج به صدرها ، فعاود الأمل
« شارل » .. وما إن وصل « كانيفيه » أخيرا ، حتى ارتقى على
صدره باكيا ، وهو يقول : « آه ! أهذا انت ! شكرا !
ما أطيبك ! على أن كل شيء يسير نحو التحسن .. الا انظر
إليها .. » على أن الزميل لم ير راييه ، ولم يشأ — كما عبر
بنفسه — أن « يسير على غير هدى » ، بل وصف دواء مقيئا ،
ليفرغ المعدة تماما .. وما عتبت أن أخذت تنقيا دما .. واشتد
التصاق شفتيها ، وراحت أطرافها تتلوى متشنجة ، وامتلا
جسمها كله ببقع سماء ، وتوتر وريدها تحت أصابعها كخيوط
مشدود ، أو كوتر قيثاره يوشك أن ينقطع .. ثم شرعت فى
صراخ منكر .. وراحت تلعن السم وتسبه ، ثم تتوسل إليه أن
يعجل بقضائه ، وتدفع عنها بذراعين متصلبتين كل ما كان
« شارل » يحاول أن يحملها على تناوله ، وهو أكثر منها توجعا
وعذابا .. وكان يقف ، ضاغطا منديله إلى شفتيه ، باكيا ،
ينشج فى بكائه بدرجة تهز كل جسمه ، وقد تحشرج صوت
أجش فى حلقه .. وكانت « فيليسيته » تجرى فى الغرفة ، هنا
وهناك .. و « هومييه » لا يحير حراكا ، ويرسل زغرات ثقيلة
.. وظل السيد « كانيفيه » متبالكا جائشه ، ثم بدا يشعر
بقلق ..

— يا للشيطان ! .. لقد تقيأت كل ما فى بطنها .. ومن
اللحظة التى يكف فيها السبب ..

فاكل « هومييه » : « يجب أن يكف المفعول .. هذا جلى » .
وهتف بوفارى : « الا انقذوها ! » .

وهم «كانيفيه» بأن يعطيها ترياقا ، غير منصت للصيدلى الذى كان لا يزال يقترح افتراضات : «لعل الأزمة تشتد لتزول» . وإذا بهم يسمعون مرتعة سوط ، واهتزت كل النوافذ . وأقبلت من خلف السوق عربة خفيفة تجرها ثلاثة جياذ لطلخت بالوجل حتى آذانها . . ووصل الدكتور «لاريفير» . . ولو أن إلها تجلى ، لما أحدث مثل الأثر الذى حدث إذ ذاك . . رفع «بوفارى» يديه ، وأمسك «كانيفيه» عما كان يهم به ، وخلع «هوميه» قلنسوته الاغريقية قبل أن يصل الطبيب بفترة طويلة . .

كان «لاريفير» ينتهى إلى المدرسة العظيمة للجراحة ، التى أخذت عن «بيشا» . . إلى ذلك الجيل الذى لم يعد له وجود . . جيل الأطباء المتفلسفين ، الذين أحبوا فهم فى شغل متهوس ، ومارسوه فى تحصى وحكمة . . كان كل شخص فى مستشفىهم يرتجف فرقا إذا غضب ، وكان تلاميذه يكبرونه إلى درجة أنهم كانوا — بمجرد أن يشرعوا فى ممارسة مهنتهم — يحاولون أن يقلدوه ما وسعهم . . حتى أنهم كانوا يشاهدون — فى كل المدن — مرتدين ، على شاكلته ، معاطف طويلة من صوف «المارينوس» الخفيف ، مبطنة ، وسترات «فراك» سوداء ، تستطيل اكمامها ذات الأزرار حتى تمس الأكف . . وكانت يداؤ بديتين ، لم تعرفنا التفازات قط ، وكأنها كانت بمثابة دائسا لتفصوص فى الآلام . . وكان يزدري الأوسمة ، والألقاب ، والدرجات العلمية ، كواحد من أولئك الفرسان الأطباء الذين كانوا يقفون حياتهم فى الماضى على تخفيف آلام الجرحى . . كما كان كريما ، يعطف كالأب على الفقراء ، ويفعل

الخير دون ما رجاء . . حتى لقد كان من الممكن أن يعتبر قديسا لو لم يكن إرهاف روحه قد جعله مهييا وكأنه طاغية! . . وكانت نظراته أكثر نفاذا من مبضعه ، فهى تنفذ فى نفسك مباشرة إلى الأعماق ، وتشرح كل اكذوبة تتوارى وراء المزاعم والأسرار التى يكتتمها الحياء . . وهكذا مضى فى حياته ، مغفيا بتلك الهناءة الجليلة التى تنبعث من الشعور بعظمة مواهبه ، وبمكنته ، وبحياة دامت أربعين عاما حافلة بالداب والجد ، خالية من كل شائبة .

وعبس بمجرد أن اجتاز الباب ، إذ رأى وجه «أيم» فى شحوب الموتى ، وهى مستلقية على ظهرها ، فاغرة الفم ، وبينما كان ينصت إلى «كانيفيه» فى أصفاء ، وراح يمر بسبائنه تحت طائقتى أنفه ، مرددا : «هذا حسن . . حسن !» على أنه هز كتفيه فى حركة بطيئة ، لحما «بوفارى» . . ونظر كل منهما إلى الآخر ، فآذا هذا الرجل — الذى ألف رؤية الألم — لا يملك أن يحبس دمة سقطت على ياقة قميصه . . وحاول أن يصحب كانيفيه إلى الغرفة المجاورة ، ولكن «شارل» تبعه قائلا : أنها جد مريضة ، أليست كذلك ؟ لو وضعت «لزقة خردل» ؟ . . أى شيء ! . . ألا فكر لها فى شيء ، فكم انتفعت من نفوس ! » .

وطوقه «شارل» بذراعيه ، وراح يحمل فيه فى حيرة وتوسل ، حتى ليكاد يرتدى على صدره معنى عظيمه ، فقال له الدكتور «لاريفير» : «تجلد يا زميلى المسكين . . تشجع ! . . لم يعد هناك شيء غوى الذى عمل من قبل» . . وتحول ، فتهف شارل : «امنصرف انت ؟» قال : «ساعود» . . وأخرج ليلقى

امرا إلى حوزيه ، وبمع السيد « كانيفيه » الذى لم يعد يحفل إذا ما ماتت « ايها » تحت يديه ! .. ولحق بهما الصيدلى فى الميدان ، فما كان بطبعه ليقوى على أن يكون بينسأى عن العظماء ! ومن ثم رجا السيد « لاريفير » أن يوليه الشرف فيقبل تناول الفطور على مائدة . ويادر فارسل إلى « الفندق الذهبى » فى طلب بعض الحمام ، وإلى القصاب فى طلب كل ما كان عنده من لحم افخاذ الضان ، وإلى « توفاش » يطلب قشدة ، وإلى « ليستيبودوا » يطلب بيضا ، وتولى بنفسه المساهمة فى اعداد المائدة ، بينما كانت مدام « هوميه » تقول وهى تشد رباط سترتها : « الا اعزنا يا سيدى ، غنى بلدتنا القمصة ، إذا لم يخطر المرء فى الليلة السابقة .. » .

وهمس « هوميه » : « اقتداح النيبذ ! » .

— لو اننا كنا فى المدينة ، لوجدنا على الأتل موردا لدى الباعة المتجولين .

— اسكتى ! .. إلى المائدة يا دكتور !

ورأى — بعد اللقمة الاولى — أن من المناسب أن يدلى ببعض تفصيلات الفاجعة .. فقال : « لقد ظفنا فى البداية أنه تصلب فى الحلق .. ثم آلام لا تطاق فى أعلى المعدة ، ثم قىء وإسهال .. ثم غيبوبة .. » .

— ولكن ، كيف سمحت لنفسها ؟

— لست أدري يا دكتور .. بل إننى لا اعرف كيف استطاعت أن تحصل على حامض الأرسنيك (الزرنيخ) .

• وكان « جوستان » قد اقبل إذ ذاك يحمل صفا من الأطباق ، فانتابته رعشة ، وقال له الصيدلى : « ماذا بك ؟ » .. وترك الفتى — عند هذا السؤال — الأطباق تهوى إلى الأرض ، متهشمة فى ضجيج ، فصاح « هوميه » : « غبى ! .. شرير ! .. مغفل ! .. حمار ! .. » .. ولكنه تمالك نفسه توا ، واستأنف حديثه الاول : « لقد اردت يا دكتور ان اجرى تحليلا ، فبدات بإيلاج انبوبة .. » فقال الجراح : « كان من الأفضل أن تدك اصابعك فى الحلق .. » وكان زميله مخلدا إلى الصمت ، إذ تلقى قبل ذلك — على حدة — درسا قاسيا عن دوائه المضاد للسم .. وبقدر ما كان « كانيفيه » مهتاجا ، لاذع النقد يوم جراحة قدم الأعرج ، بدا اليوم متواضعا للغاية ، وراح يبتسم دون انقطاع ، معلنا موافقته على طول الخط ..

واستغرق « هوميه » فى نشوة الشعور بأنه صاحب الوليمة .. كما ساعدت صورة « بوفارى » المحزون على سروره ، بطريقة مبهمه .. بتأثير انانى ! .. ومالبت وجود « الدكتور » أن رده إلى الواقع ، وراح يعرض مدى عليه ، متحدئا — فى غير ما تناسق — عن الذباب الهندى ، والأشجار السامة ، والأفاعى . ثم استطرد قائلا : « بل إننى قرأت أن أشخاصا عديدين وجدوا أنفسهم يعانون من أعراض التسمم ، وظهر للدهشة البالغة ، أن ذلك نشأ عن خبز تعرض لدخان شديد .. لقد ورد هذا على الأقل فى تقرير جديد بديع ، وضعه واحد من أقطابنا فى الصيدلة ، واحد من اساتذتنا : « كاديه دو جاسيكور » المبرز .. » .

وظهرت مدام « هوميه » مرة أخرى ، تحمل موقدا يشعل

بالكحول الأحمر ، إذ كان « هوميه » يحب أن يعدد قهوته على المائدة ، فيحصد اللبن ، ويصفحه ، ويهزجه بنفسه . وقال مقديا السكر : « سكر يا دكتور ! » .. وتعمد أن ينطق اسم السكر باللاتينية ! .. ثم دعا كل ابنائه إلى الهبوط ، تواتا إلى أن يعرف رأى الطبيب في تكوينهم البدنى .. وإذا هم السيد « لاريفير » بالتصراف - أخرا - طلبت مدام « هوميه » رايه في حال زوجها ، إذ كان يحرص في كل مساء على أن ينام بعد العشاء ، مما يجعل دمه كثيفا .. فقال الطبيب : « آه ! .. ليس الكثيف هو دمه ! » .. وفتح الباب وهو يتسم ابتسامة خفيفة للكنتة التي لم ينتبه إليها أحد . على أن حاثوث الصيدلى كان قد ازدحم بالناس .. وعانى كثيرا حتى تخلص من السيد « توفاش » الذى كان يخشى أن تصاب زوجته بالتهاب الرئتين ، إذ اعتادت أن تقعد على رماد نيران المدفأة .. ثم من السيد « بيتيه » الذى يشعر أحيانا بنوبات جوع شديد .. ومن مدام « كارون » التى شكت من التهاب فى الجلد ، و « لوريه » المصاب بالدوار ، و « ليستيبودوا » الذى يعانى من روماتيزم ، و مدام « لوفرانسوا » التى شكت من حموضة فى المعدة .. وأخرا ، انطلقت الجياد الثلاثة تجر « لاريفير » ، واجمع القوم بعد رحيله على أنه لم يكن لطيفا !

واستمرى انتباه الجمع ظهور الأب « بورنيسيان » الذى كان يجتاز الميدان حاملا الزيت المقدس .. وشبه « هوميه » التساوسة - وفقا لمبادئه - بالصقور التى تجذبها رائحة الموت .. كان منظر أى واحد من رجال الدين من الأمور التى لا تروقه ، إذ كان المسوح يذكره بالكفن ، وكان يكره الواحد

منهما خشية أن يجلب له الآخر ! .. ومع ذلك ، فانه لم يحجم عما أسماه « رسالته » ، فعاد إلى دار « بوفارى » بصحبة « كانيفيه » الذى عنى السيد « لاريفير » - قبل رحيله - بحثه على أداء هذه الزيارة .. ولولا معارضة زوجته ، لاصطحب « هوميه » ولديه الصغيرين ، ليألفا المناسبات الكبيرة ، وحتى يكون هذا لهما درسا .. مثلا .. صورة لحدث يبقى فى ذهنهما طويلا !

وكانت الغرفة - حين ولجأها - مفعمة بوجوم حزين . وعلى نضد التطريز - الذى غطى بهفرش أبيض - كانت نية خمس أو ست كرات صغيرة من القطن ، فى طبق فضى ، على مقربة من صليب كبير بين شمعتين موقعتين .. وكانت ذقن « ايمى » ملصقة بصدرها ، وعيناها مفتوحتين فى اتساع غير عادى ، ويدها الكليلتان تتحركان على الأغشية تلك الحركات الرهيبة ، الخفيفة التى تصدر عن المحتضرين ، وكأنهم يودون أن يعجلوا بسحب الأكفان على أجسادهم .. وكانت فى شحوب التئال ، وعيناها فى حمرة اللهب .. ووقف « شارل » عند مؤخرة السرير ، فى مواجهتها ، وقد كف عن البكاء ، بينما ركع القس على ركبة واحدة ، وأخذ يهتم بكلمات خالفت ..

• وادارت وجهها فى بطء ، وبدأ أن فرحا تولاهما حين رأت فجأة الجباب الكهنوتى (البطرشيل) بنفسجى ، إذ وجدت من جديد ولا شك - فى غمرة السكينة غير العادية التى غشيتها - البهجة التى افتقدتها ، والنثى تولدت من نزواتها التصوفية الروحية الاولى .. مع رؤى التطويب الإبدى الذى

ابتدا .. فقد نهض القس ليتناول الصليب ، وإذ ذاك ، اشربت بعنقها كشخص برج به العطش .. والصقت شفتيها بتمثال المسيح — على الصليب — وبكل قواها المضحكة ، طبعت أعظم قبلة غرامية صدرت عنها في حياتها . ثم أخذ القس يتلو مزمور الرحمة ، وغمس إبهام يده اليمنى في الزيت ، وشرع يقوم بعمليات الدهان .. فبدأ بالمسح على العينين اللتين غرب عنهما كل زهو دنيوى .. ثم على طاقتى الأنف ، اللتين كانتا تنشقان في نهم النسائم الحارة ، وأريج الهوى .. ثم على الفم الذى كان ينطق بالكاذب ، والذى كان يقلب شفتيه في غرور ، ويصرخ في شبق .. ثم على اليدين اللتين كانتا تستمتعان باللمسات الشهوانية .. ثم — أخيرا — على باطنى القدمين اللتين كانتا نياما مضى سريعتين إذا ما هرعا لأرضاء شهواتها ، واللتين لم تعودا تسيران ..

ومسح القس أصابعه — ثملقى بقطعة القطن المبللة بالزيت إلى النار ، وتحول جلس إلى جوار المرأة المحتضرة ، ليوصيها بأن تخلط ألماها بالأم يسوع المسيح ، وأن تسلم نفسها إلى رحمة الرب .. وإذ فرغ من وصاياه ، ومواعظه ، حاول أن يضع في يدها شمعة مباركة ، رمزا إلى المجد السماوى الذى لن تلبث أن تحاط به .. ولكن « اينا » فى ضمفها البالغ ، لم تستطع أن تطبق أصابعها ، فكادت الشمعة أن تقع على الأرض لولا أن تدراكها الأب « بورنيسيان » .. على أنها لم تعد شديدة الشحوب ، واكتسب وجهها بسكينة مطمئنة ، وكان المسح بالزيت قد شفاها .. ولم يغفل القس أن يشير إلى ذلك ، بل انه راح يذكر لبوفارى أن الرب أحيانا يطيل

أعمار الأشخاص إذا رأى ذلك ملائمة لخلصهم .. وتذكر « شارل » اليوم الذى تناولت فيه القربان المقدس حين كانت قد أوشكت على الموت ، فعلى نفسه قائلا : « لاداعى للباس » ..

والواقع أن « اينا » أخذت تجول ببصرها فيما حولها ببطء ، كمن يستقيظ من حلم ، ثم طليت بصوت واضح مراثيها ، فظلت برهة منحنية عليها ، إلى أن تساقطت من عينها دموع غزيرة ، فتحولت عنها ، متنهدة ، وتهالكت على الوسائد . وسرعان ما أخذ صدرها يتهدج بسرعة ، وبرز لسانها بأكمله من فمها ، وراحت عينها تزدادان شحوبا ، وهما تجولان في محجريهما ، ككلب مصباح يحتضر ، حتى لقد كان يخيل للمرء انها ماتت ، لولا الحركة العنيفة التى انتابت ضلوعها بتأثير تنفسها الشاق المتعسر .. كأنها كانت الروح تناضل كي تتحرر ..

وركعت « فيليسييتيه » أمام الصليب ، وتطلع السيد « كانيغيه » بنظرات شاردة إلى الميدان ، وشرع « بورنيسيان » فى الصلاة من جديد ، وقد انحنى وجهه على السرير ، وانتشر مسوحيه الأسود خلفه فى الحجرة .. وكان « شارل » جاثيا فى الجانب الآخر من السرير ، باسفا ذراعيه نحو « اينا » ، وقد تناول يديها وأخذ يضغطهما ، مرتجفا لكل خفقة من قلبها ، وكأنه يرتعش لخراب منقض .. وإذ اشتدت حشجة الموت ، ازداد إسراع القس فى صلاته .. وأخذت دعواته تمتزج بشهقات « بوفارى » المكتومة . وكان كل شيء يفيب أحيانا فى النجمة المختنقة بالمقاطع اللاتينية التى بدت كأصداء متلاشية لجرس

افعل شيئا .. الا اتركاني ! .. اريد ان اراها ! .. انها زوجتى ! » .. واخذ بيكى ، فقال الصيدلى : « ابك .. دع نفسك على مطرتها ، فان هذا يسرى عنك ! » .. وتركهما يقودانه إلى قاعة الجلوس وقد غدا اضعف من طفل . وما لبث السيد « هوميه » أن انصرف . والتقى في الميدان بالأعمى الذى تلبس طريقته إلى (ايونفيل) أملا فى الحصول على البلمس الذى يقضى على الالتهاب ، وراح يسأل كل مار عن مسكن الصيدلى ، فقال هذا له : « الا اغرب الآن ! .. كائننى لا اجد مشاغل سواك ! .. الا دعنى الآن ، وعد فيما بعد ! » .. ثم ولج الصيغلية على عجل . كان عليه أن يكتب رسالتين ، وأن يمد جرعة مهدئة لبوفارى ، وأن ينسج الكذوبة للنسתר على التسمم ، ويصوغ النبأ فى مقال لصحيفة « الفانسال » ، غير حافل بالأشخاص الذين كانوا فى انتظاره ليلتقوا منه النبأ . وعندما استوثق من أن أهل (ايونفيل) جميعا سمعوا قصته عن الزرنينخ الذى ظنفته « ايبا » سكرًا ، وهى تصنع « كريمة بالفانيليا » عاد مرة أخرى إلى « بوفارى » .. فالتقاه وحيدا — إذ كان السيد كانيفيه قد انصرف — جالسا فى مقعد مريح إلى جوار النافذة ، محملا بذهول فى بسلامات الحجره .. فقال الصيدلى : « يجب ان تحدد الآن ، وبففسك ، موعد الطقوس » .. فتساءل : « ماذا ؟ .. أبة طقوس ؟ » ، ثم استدرك فى لهجة متلعثمة ، جزعة : « اواه ! لا ! لا ! ليس هذا .. لا ! .. اننى أحب ان اراها هنا » ..

ولكن يتمالك « هوميه » نفسه ، تناول إيريقا من الرف ليروى زهور « الجيرانيوم » فقال « شارل » : آه ! شكرا ..

.. وفجأة ، سمعت على رصيف الشارع جلبة نعلين خشبيين ، ودقات عصا . وانبعث صوت .. صوت مبسوح يقنى : « العذارى فى قبط أيام الصيف يحلمن بالحب .. والحب دائما » .. ورفعت « ايبا » جسمها وكأنها جئة سرت فيها نسمة عابرة من الحياة ، وقد تهدل شعرها ، وجهدت عيناها محيلقتين .. بينما واصل صوت المغنى الذى يتسكع فى الشارع غناؤه المبسوح : « لكى تجمع سريعا .. السنايل التى حصدها المنجل .. سارت حببتي نانيت ، منحنية نحو الأرض التى منحنتنا اياها » .. وصاحت « ايبا » : « الأعمى ! .. ثم انطلقت فى ضحكات نابية ، متهوسة ، قانطة .. وهى تتمثل الوجه البشع الذى أوتيه ذلك الشمس المسكين ، وقد انتصب فى الظلمات الأبدية كنذير بالشؤم .. بينما كان الرجل ماضيا فى أغنيته : « كانت الريح تهب قوية فى ذلك اليوم .. فطارت « الجؤولة » القصيرة ! » .. وتهالكت « ايبا » على الفراش .. واختلج جسمها .. واقتربوا جميعا منها .. ولكنها كانت قد فارقت الحياة !

الفصل التاسع

• يعقب وفاة أى أمرىء — عادة — نوع من الذهول ، يتعذر معه ادراك هذا العدم الوافد ، وحمل النفس على تصديقه .. على أن « شارل » لم يكذبيتين أن « ايبا » لم تعد تتحرك ، حتى ألقي بنفسه عليها صائحا : « وداعا ! استودعك الله ! .. وجره « هوميه » و « كانيفيه » إلى خارج القرعة قبائلين : « تجلد ! » .. فقال : « نعم ، سأكون هادئا ، ولن

ما اطيبك ! » .. ولكنه لم يقو على اتهام عبارته ، إذ اخفق صوته تحت فيض الذكريات التى احياءها فى ذهنه تصرف الصيدلى .. وإذ ذاك رأى « هوميه » — ليشغله عن هذه الذكريات — أن يتحدث قليلا عن فلاحه البساتين ، فأنشأ النبات تحتاج إلى بعض الرطوبة .. ونكس « شارل » رأسه فى موافقة صامتة .. وما لبث الصيدلى أن قال : « إن الأيام البديعة لن تلبث أن تاتى ! » .. فقال « بومارى » : « آه ! » .. إذ نصب معين الصيدلى ، عهد إلى ازاحة السناثر الصغيرة فى لطف عن ألواح الزجاج ، ثم قال : « ها هو ذا السيد توفاشى فى الطريق » ، فردد « شارل » كالألة : « السيد توفاشى فى الطريق » ..

ولم يجرؤ « هوميه » على أن يحدثه ثانية عن اجراءات الجنائز .. وكان رجل الدين هو الذى هياه لتقبلها ، فاحتبس نفسه فى غرفة العيادة ، وتناول ريشة الكتابة ، وبعد أن بكى فترة ، كتب : « أرغب فى أن تدفن فى ثوب عرسها ، وحذاءين ابيضين ، وطاقاة ورد .. وأن ينشر شعرها على كتفيها .. وفى ثلاثة توابع : احدها من خشب البلوط ، والثانى من المهوجنى ، والثالث من القصدير .. ولا يقول أحد لى شيئا ، فلن البث أن استرد قواى .. ولتوضع — قبل كل شئ — على قطعة كبيرة من المخمل الأخضر .. هذه رغبتي ، فلتنفذ ! » ..

وذهل السيدان للأفكار الشاعرية التى ابداهما « بومارى » ، فبادر الصيدلى إليه قائلا : « يبدو لى أن المخمل زيادة لا داعى لها .. ثم إن النفقات .. » فصاح « شارل » : « وهل يعنيك هذا ؟ .. دمنى ! .. انك لم تكن تحبها .. اخرج ! » .. وتابط

القس ذراع شارل وخرج به إلى الحديقة يتمشيان . وراح يحدثه عما فى المظاهر الدنيوية من لغو باطل ، وعن أن الله كبير ، ورحيم ، فخلق بالإنسان أن يتقبل قضاءه دون ما تذمر ، لا بل بالشكر والحمد .. فانفجر « شارل » مجذبا : « اننى اكره إلهك ! » .. وتنهى رجل الدين قائلا : « لا تزال روح التمرد مسيطرة عليك ! » .. وكان « بومارى » قد ابتعد ، وراح يسير بخطى واسعة ، فى محاذاة الجدار ، على مقربة من الخميلة ، وهو يصر على أسنانه ، ويرفع بصره إلى السماء بنظرات ساخطة ، ولكنها لم تحرك ورقة واحدة فى شجرة ! .. وتساقط المطر رذاذا ، فلم يلبث « شارل » — الذى كان ماري الصدر — أن اخذ يرتجف ، ودخل الدار ، فجلس فى المطبخ .. حتى إذا كانت الساعة السادسة ، سمعت ضوضاء ، كقطع من حديد تصطك .. كانت « العصفورة » عائدة .. وظل واقفا أمام زجاج النافذة ، يشهد نزول الركاب واحدا بعد آخر ، ثم غرشت له « فيليسيته » حشية فى قامة الجلوس ، فارتوى عليها ، ونام ..

● كان « هوميه » يحترم الموتى ، رغم فلسفته ، ومن ثم لم يحقد على « شارل » ، بل عاد ثانية فى المساء ، ليسهر إلى جوار الجثة ، حاملا معه ثلاثة كتب ، ومفكرة ليدون فيها ما يعن له . وكان الأب « بورنيسيان » هناك ، وقد أقام عند رأس السرير شمعتين كبيرتين موقدتين ، استجلبتا من مخزن الدار . ولم يلبث الصيدلى — الذى لم يكن ليحتل الصمت — أن شرع بصوغ بعض عبارات الرثاء لتلك « الشابة المنكودة » ، فاجاب

القس بأنه لم يبق ما يفعل من أجلها سوى الصلاة ! .. فقال « هوميه » : « أحد امرين : إما انها ماتت وهى مستمتعة بالعنفو الربانى — كما تقول الكنيسة — وفى هذه الحال لا حاجة بها إلى صلواتنا .. وإما انها رحلت حاملة خطاياها — وأظن أن هذا ايضا هو التعبير الدينى — وفى هذه الحال .. » فقاطعه « بورنيسيان » قائلا فى جفاء إن هذا لا يحول البتة دون الصلاة .. ومضى الصيدلى فى معارضته ! « ولكن ، مادام الله يعلم كل حاجتنا ، فما جدوى الصلاة والدعاء ؟ » فصاح رجل الدين : « كيف ! .. الصلاة ! .. او لست إذن مسيحيا ؟ »

قال هوميه : « عفوا ! .. اننى اكبر المسيحية ، فهى أولا قد حررت الرقيق ، وادخلت على الدنيا قانونا خلقيا .. »
— ليس هذا موضوع النقاش .. كل الكتب الدينية ..
— آه ! .. آه ! .. أما من كتب الدين ، فارجع إلى التاريخ .. من المعروف انها زينت على ابدى الجزويت ..

ودخل « شارل » ، ف تقدم صوب البرير ، وازاح الستائر فى ببطء .. كان رأس « ايبا » مائلا صوب كتفها اليمنى ، وقد بدا ركن فيها — الذى كان مفتوحا — ككفيرة سوداء فى القسم السفلى من وجهها .. وكانت اصبعها السبابة مطويتين فى راحتها ، وقد تنافرت على اهدابها شيء من غبار ابيض ، وبدأت عينها تغيبان فى تلك الطبقة الشاحبة اللزجة المائعة التى رانت عليهما ، وكأنها نسيج العنكبوت .. وكان القطاء ينخسف فيما بين صدرها وركبتيها ، ثم يعلو فوق اصابع قدميها .. وخيل لشارل ان كتلا لا نهاية لها .. ان حملا ثقيلا كان يجثم عليها ..

ودقت ساعة الكنيسة معلنة الثانية .. وكان بوسمهم ان يسموا خريز النهر المنساب فى الظلام ، عند أقصى الحديقة .. واخذ الأب « بورنيسيان » بخط بين آن وآخر ، بصوت مسموع .. وصريز قلم « هوميه » على الورق ينهمث .. وقال أخيرا : « هيا يا صديقى الطيب ! انصرف فان هذا المنظر يفتت كبك ! » .. وما إن انصرف « شارل » ، حتى استأنف الصيدلى والقس نقاشهما .. قال أحدهما : « اقرا فولتير .. اقرا دولباش .. اقرا دائرة المعارف ! » ، فقال الآخر : « بل اقرا رسائل بعض اليهود البرتغاليين » .. اقرا « معانى المسيحية » بقلم نيكولا .. المأمور القضائى السابق .. واشتد الجدل حرارة واحتدما ، واخذا يتكلمان معا ، دون أن ينصت أحدهما للآخر .. وكان « بورنيسيان » يستنكر هذه الجراة .. و « هوميه » فى دهشة من هذا الفباء .. واوشكا أن يسب كل منهما الآخر ، وإذا بشارل يظهر فجأة ، كأنها كان ثمة سحر يجتذبه .. فكان كلما غادر المخدع لا يلبث أن يعود إليه ..

● وقف « شارل » فى الطرف المقابل لها ، ليراها بجلاء .. واستغرق فى افكار نسي فى عمقها الالم .. تذكر قصص داء التصلب ، ومعجزات الاستواء المغناطيسى ، فخيّل إليه أنه ربما وفق إلى إحيائها من جديد ، لو أنه ركز كل قواه فى هذه الرغبة .. بل لقد انهنى مرة نحوها ، وناداهها بصوت خافت : « ايبا ! ايبا ! » .. وكانت انفاسه القوية تدفع لهب الشمعتين نحو الحائط ..

ووصلت مدام « بوفارى » الام مع مطلع النهار ، وما إن

احتضنها « شارل » حتى انفجر بسيل جديد من الدموع ..
وحاولت — كما حاول الصيدلى من قبل — أن تعلق على نفقات
الجنائز ، فاذا به يغضب إلى درجة جعلتها تصمت .. بل انه
اوفدها إلى المدينة فوراً لتبتاع ما كان لازماً .. وبقي وحيداً
طيلة عصر ذلك اليوم ، إذ كانت « بيرت » قد حصلت إلى دار
« هوميه » ، بينما لأنت « فيليسييتيه » — مع الأم « لوفرانسوا »
— بالحجرة في الطابق العلوى .. وفي المساء ، وغد إليه بعض
الزوار ، فنهض وصافحهم وهو عاجز عن الكلام . ثم جلسوا
مقاربين مؤلفين نصف دائرة أمام المدفأة ، بوجوه منكسة ،
وقد راح كل منهم يؤرجح إحدى ساقيه على ركة الساق
الأخرى ، وهو يرسل الزفرات الحرى على فترات .. كان كل
منهم يشعر بسأم غير معهود ، ومع ذلك فلم يشأ أى منهم أن
يكون الأول في الانصراف ..

وعندما عاد « هوميه » في الساعة التاسعة — ولم يكن
يشاهد سواه في المبدان منذ يومين — كان مثقلاً بكميات من
الكافور ، والبنزين ، والأعشاب العطرية .. كما كان يحمل
جرة مليئة بهاء الكلهر ، للتخلص من أية رائحة عفنة .. وكانت
الخادم ، ومدمام « لوفرانسوا » ، والأم « بونسارى » يتحركن
حول « ايمما » وهن يلبسها آخر ثيابها .. ثم نشرن عليها خماراً
من قماش متبيس ، غطاها من رأسها حتى آخر خذايعها
الحريريين .. وكانت « فيليسييتيه » تردد منهنه : « واو ،
يا سيدتى المسكينة ! يا سيدتى المسكينة ! » .. فتنهدت ربة
الفندق قائلة : « الا انظرا إليها .. انها لا تزال جميلة ! ..
من ذا الذى لا يقسم على انها لن تلبث أن تهب ناهضة بعد

دقيقة ! » .. ثم انحنين عليها ليضعن أكليل الزهور ..
واضطربن إلى أن يرفعن رأسها قليلاً ، وإذا بسائل أسود
ينساب من فمها ، وكانها تتقيأ .. وصاحت مدمام « لوفرانسوا » :
« آه ! يا الهى ! .. حذار أن يتسخ الثوب ! » .. وقالت
للصيدلى : « تعال لتساعدنا ! لم تترك خالفاً ؟ » .. فهز كتفيه
قائلاً : « أنا أخاف ؟ .. آه ! .. صحيح ! ؟ » .. لقد شهدت
الكثير في المستشفى حين كنت أدرس الصيدلة ! .. لقد كنا
نصنع شراباً مسكراً في قاعة التشريح .. إن الصدم لا يخيف
فيلسوفاً .. بل اننى — كما اعتدت أن أقول — اعتزم أن أوصى
بجثتى للمستشفيات ، لتكون — فيما بعد — في خدمة العلم ! ..

وإذ وصل القس سأل عن صحة السيد ، وما إن أجابه
الصيدلى حتى قال : « لعلك تدرك أن الصدمة لا تزال قريبة
المهدد » .. إذ ذلك غبطه الصيدلى على انه ليس معرضاً
كسواه لفقد شريكة الحياة الحبيبة ، وتبع ذلك نقاش حول
عزوبة القساوسة .. فقال الصيدلى : « الواقع أن من المجافاة
للطبيعة أن يعيش القس بدون امرأة ! كم من جرائم .. »
فصاح رجل الدين : « ولكن ، كيف بالله تتوقع من قس متزوج
أن يصون أسرار الاعتراف مثلاً ؟ » .. فهاجم « هوميه »
الاعتراف ، وانبرى « بورنيسيان » للدفاع عنه ، متوسعاً في
سرد آثار الإصلاح والأرشاد التى تترتب على الاعتراف ..
وذكر قصصاً مختلفة عن لصوص انقلبوا فجأة رجالاً أمناء ..
وعن رجال عسكريين انقلبوا القيم والمقاييس في نظرهم منذ
مثلوا أمام محكمة التوبة .. « غنى (غريبور) مثلاً ، كان ثمة
وزير » .. وتبين القس فجأة أن زميله قد نام .. ثم لم يلبث أن

أحس أنه يوشك أن يختنق في جو الحجرة المراكب ، مفتح النافذة ، وإذ ذاك استيقظ الصيدلى فقال له : « اليك قبضة من السموط .. خذها فانها تنعشك » ! .. وسمع نباح يتواصل عن بعد ، فقال الصيدلى : « أسمع كلبا يعض ؟ » .. فقال القس : « يقال إن الكلاب تشم رائحة الموتى .. انها كالنحل تترك خلاياها عند وفاة الأشخاص » ..



● لم يعلق « هوميه » على هذه الترهات ، إذ كان قد عاد للنعاس .. أما السيد « بورنيسيان » فكان أقوى منه احتمالا ، ومن ثم ظل بعض الوقت يحرك شفطيه في تمته خفيفة ، وما لبث — دون ما شعور منه — أن خفض رقبته ، وأفلت كتابه الأسود الضخم ، وشرع يقط .. وكانا يجلسان متقابلين ، وقد برز بطناهما ، وانتفخ وجهاهما ، وعبست أساريرهما ، وقد وحد بينهما — بعد كل هذه الخلافات — نوع واحد من أنواع الضعف البشرى ، ولم يعودا يتحركان ، تماما كالجثة التي كانت إلى جوارهما ، والتي لاحت هي الأخرى نائمة .. ولم يوقظهما دخول « شارل » .. وكانت هذه آخر مرة ، فاقبل يودعها .. وكانت الأعشاب العطرية لا تزال تحترق ، ودخانها المائل إلى الزرقة ، والمتساعد في خيوط حلزونية ، يمزج عند حافة النافذة بالضباب الوافد .. وكانت ثمة نجوم قتائل .. والليل لطيف الجو .. والشمع الذائب يسيل من الشمعتين متساقطا على أغطية الفراش في قطرات كبيرة .. وتألمها « شارل » وهما تحترقان ، حتى غشى بصره لطول تحديقته في لهبهما الأصفر ..

وكانت تموجات الثوب الحريري تلمع بيضاء كضوء القمر ، وقد اختفت « أيا » تحت وميضها ، فلاح له انها إذ تحررت من كيائها ، قد امتزجت بكل شيء حولها .. بالسكون ، وبالليل ، وبالهواء العابر ، وبعبير الرطوبة المتصاعدة من الأرض .. ثم راح يتمثلها بفتة في حديقة دارهما في (توست) ، على مقعد خلف السياج الشوكى .. أو في (روان) ، في الطرقات أو على عتبة دارهما في الفناء في (برتو) .. وخيل إليه أنه يسمع ضحكات الأولاد السعداء يرتقصون تحت أشجار التفاح فرحين ، وقد امتلأت الغرفة بأريج شعرها ، واحتك ثوبها بذراعيه في خفيف بعث في كيانه مساهيريا (كما حدث ليلة الزفاف) .. إنه عين الثوب الذي ترتديه الآن ! .. وهكذا ظل فترة طويلة يستعرض أفراده الضائعة ، وتصرفاتها ، وحركاتها ، وجرس صوتها .. وكل أسى يعقبه آخر ، متتابعة ، لا تكف ولا تن ، كأنها أمواج بحر مزبد .. وتولته رغبة قاسية ، فرفع الوشاح في ببطء ، باطراف أصابعه ، وهو يلهث .. ولكنه سرعان ما أطلق صرخة ابتظت الآخرين .. وجرى إلى قاعة الجلوس .. وسرعان ما جاءت « فيليسيته » تقول أنه يريد بعضا من شعرها .. فقال لها الصيدلى : « قصي بعضه ! » ..

ولما لم تجرؤ ، تقدم بنفسه والمقص في يده .. وكان يرتجف حتى أنه شق جلد الجبهة في عدة أماكن .. وأخيرا ، قاوم « هوميه » مشاعره ، واقتطع خصلتين أو ثلاثا على غير هدى ، فتركت رقعا بيضاء خلال هذا الشعر الفاحم الجميل ..



● وعاد الصيدلى والقس يستغرقان فى حوارهما ، وأن لم يحل هذا دون أن ينعسا بين آن وأخر ، وكل منهما يتهم بالآخر بالنعاس كلها استيقظ هو ، على التوالى ! .. ثم نثر السيد « بورنيسيان » الماء المقدس فى الحجرة ، فنثر « هوميه » بعض من ماء الكلور على الأرض ! .. وكانت « فيليسيثيه » قد عنيت بأن تضع كل منهما على صوان الملابس الداخلية زجاجة « براندى » ، وبعض الجبن ، ورغيفا كبيرا ، فتهدد الصيدلى — الذى لم يعد يحتل الجوع — فى حوالى الساعة الرابعة من الصباح ، وقال : « لعمري ! اننى لأسر بتناول (تصبيرة) » .. ولم يحتج القس إلى الحاح ، ولكنه خرج لصلاة الصباح ، ثم عاد ، وإذ ذاك اكلا ، وشربا ، وهما بضحكان قليلا ، دون أن يدريا لفلك سببا ، وإنما حملتهما على الضحك تلك الغبطة البهيمية التى تتولانا بعد فترات الحزن .. وعند الكأس الأخيرة ، قال القس للصيدلى وهو يضربه على كتفه : « لسوف ننهى إلى تفاهم ! » .

وفى ردهة الطابق السفلى ، التقيا بأعوان ناقل الموتى ، الذين وصلوا إذ ذاك . وما لبث شارل أن قضى ساعتين يعانى العذاب وهو يسمع المطرقة تدق الخشب . وفى النهار الذى تلا ذلك ، وضعوا الجثة فى التابوت البلوطى ، الذى هبىء ليوضع فى التابوتين الآخرين . وإذ كان التابوت الخارجى واسعا ، فقد اضطروا إلى أن يبلأوا الفراغ بصوف من حشو إحدى الحشيات .. وإذ سحجت الأغطية الثلاث بالمسحاج (الفارة) ، ووضعت فوق التوابيت ، وثبتت بالمسامير ، ولحبت بالقصدير ، حملت التوابيت إلى خارج الغرفة .. ثم فتح البيت ، نبدا أهل (ابونفيل) يتدققون ..

وما لبث الأب « روى » — والد « ايما » — أن وصل .. فاعفى عليه فى الميدان حين رأى إشارة الحداد السوداء .

الفصل الماشر

● لم يكن قد تسلم رسالة الصيدلى الا بعد انقضاء ست وثلاثين ساعة على الوفاة .. وكان السيد « هوميه » — ترغفا بشاعره — قد صاغها بحيث يتعذر عليه أن يدرك حقيقة الأمر .. ومع ذلك ، فإن الشيخ المسن وقع فى بداية الأمر . وكأنها أصيب بالسكتة القلبية .. وعندما قرأ الرسالة ثانية ، فهم أن ابنته لم تمت ، ولكنها ربما كانت موشكة .. وأخيرا ، استطاع أن يرتدى قميصه ، وأن يتناول قبعته ، ووثبت المهمازين إلى حذائيه ، ثم انطلق على جواده فى أقصى سرعة . وكان الأب « روى » طيلة الطريق نهبه للهواجس ، يلهث ، بل لقد اضطر مرة إلى أن يترجل إذ غشيه دوار ، وخيل إليه أنه سميع أصواتا حوله ، فخشى أن يكون موشكا على الاختبال .

وإذ طلع النهار ، رأى ثلاث دجاجات سوداء نائمة فوق إحدى الأشجار ، فارتجف منزعجا من هذا النذير المشؤم . ثم نذر للعرزاء المباركة ثلاث حلل من ثياب الكهنة للكنيسة ، وأن يسير حافيا من مقبرة (برتو) إلى كنيسة (فاسونفيل) .. وإذ دخل قرية (ماروم) راح يصيح فى أهل فندقيها ، ودفع الباب بكفه فانفتح ، ثم انتفض على كيس من الشوفان لجواده ، وانرغ له زجاجة من شراب التفاح الحلو فى الذود . وما لبث أن عاد يمتطى الحصان الذى أخذ الشرر يتطاير تحت سنايكه .

وراح يعلل نفسه بانهم ولا بد سينقذون ابنته ، وان الأطباء سيهتدون إلى دائها بالتاكيد .. وتذكر كل المعجزات العلاجية التي كانت تحكى له .. ثم تمثلها امامه ميتة .. كانت موجودة ، تحت عينيه ، مستيقية على ظهرها في عرض الطريق ، فشد عثمان جواده .. وإذا الطيف يختفى !

واحتسى في « كينكامبو » ثلاثة اقداح من القهوة تباعا ، كى يشدد عزمه .. وصور له الوهم انهم اخطاوا في الاسم الذى كتبوه ، فبحث عن الرسالة في جيبه ، وتحسسها ، ولكنه لم يجرؤ على فتحها .. واخذ يفكر - اخيرا - في ان الامر كله مزاح .. وسيلة من شخص ما للانتقام .. او دعابة من سمج .. ولو انها كانت قد ماتت ، لعرف .. ولكن ، لا ! .. لم يكن في الريف شيء غير عادى .. فالسماء زرقاء ، والأشجار تتبايل .. ومر بقطع من الغنم .. ثم لمح البلدة .. وشوهد مقبلا وقد انحنى على جواده ، يكيل له الضربات بعصاه ، والدم يقطر من سيور ركابه ..



● وإذا عاد إلى وعيه ، سقط بين ذراعى « بونارى » باكيا ، وهو يردد : « يا ابنتى .. ايما ! .. يا طفلى ! .. ارولى ما حدث .. » فاجابه الآخر منهنها بالبكاء : « لست ادري ! لست ادري ! .. انها نقة ! » .. وفرق بينهما الصيدلى قائلا : « هذه التفصيلات المؤلة لا تجدى .. ساطلع السيد على كل شيء .. اما الآن ، فما هم اولاء القوم مقبلون .. شيئا من الوقار ! .. هيا ! .. شيئا من الفلسفة ! » .. فحاول « شارل » المسكين ان يتجلد ، وراح يكرر مرارا :

« أجل ! .. الجلد ! .. الشجاعة ! » .. اما الشيخ فصاح : « آه ! .. سأتجلد ! .. سارافتها حتى النهاية ! » ..

وبدا جرس الكنيسة يدوى .. وتأهب الجميع ، إذ آن لهم ان يشيعوها .. وفي الكنيسة ، جلسوا جنبا إلى جنب في إحدى المقصورات .. وراوا المرتلين الثلاثة - الذين أخذوا يرددون المزامير - يهرون امامهم جيئة وذهابا باستمرار ، وراح الأرغن يرسل أنغامه باقضى قوته .. وكان الأب « بورنيسيان » في كامل زيه يرتل بصوت حاد ، ويحيى بيت القربان المقدس ، ويرفع يديه ، ويبسط ذراعيه - وراح « ليستيبودوا » يطوف بالكنيسة حاملا عصاه المصنوعة من عظام الحوت .. وكان التابوت قد وضع على مقربة من منبر قراءة الكتاب المقدس ، بين أربعة صفوف من الشموع .. وأحس « شارل » برغبة تحفره على ان ينهض فيطفتها .. وحاول أن يشغل نفسه في تلك الاثناء ، بإذكاء الشعور بالتقوى في نفسه ، وأن يستغرق في الأمل في حياة مقبلة يجتمع فيها بابا ثانية .. واخذ يصور لنفسه انها سافرت في رحلة طويلة ، بعيدة ، لأمد طويل .. ولكنه كان إذا ما تذكر انها موجودة هناك ، وأن كل شيء قد انقضى ، وإن يلبثوا ان يغيبوها في الأرض ، تولاه سحق مهتاج ، حزين ، يائس .. وكان أحيانا يخال أنه لا يشعر بشيء على الإطلاق ، فيستريح فتور ضناه هذا ، ويروح - في الوقت ذاته - يلوم نفسه !

وسمع على البلاط وقع عصا ذات نهاية حديدية ، تدق الأرض في فترات متساوية ، منسابة من الطرف الأقصى للكنيسة ، وما لبثت ان توقفت عند نهاية مقاعد المصلين ..

وركح في عناء ، رجل في سترة بنية خشنة .. كان « هيبوليت »
سانس « الفندق الذهبى » .. وقد استخدم ساقه الجديدة .

ودار أحد الشماسة يجمع التبرعات ، ناخذت قطع
العملة النحاسية يرتطم بعضها ببعض على الصفحة الفضية .
وصاح « يوفارى » مغضبا وهو يلقى إليه بقطعة من فئة
الفرنكات الخيسة : « الا اسرع ، فأننى اتعذب ! » .. ف شكره
رجل الكنيسة بأحناء طويلة .. وانشدوا ، وركعوا ، ثم
وقفوا .. كأنها هذه الطقوس لا تنتهى ! .. وتذكر أنه و « ايما »
حضرا الصلاة في هذه الكنيسة مرة - في باكورة استقرارهما في
القرية - وانهما جلسا في الجانب الآخر ، إلى اليمين ، بجوار
الحائط .. وشرع الجرس يدوى من جديد ، وانبعثت جلبة من
المقاعد .. ودفع حاملو التابوت عصيهم الثلاث تحته .. وغادر
كل امرئ الكنيسة .

وظهر « جويستان » إذا ذاك لدى باب الحائوت ، ثم دخل
ثانية ، فجأة ، وهو يترنح ، وقد شحب وجهه .. وكان الناس
في النوافذ يشهدون الجنائز ، وقد سار « شارل » في المقدمة
بمنتصب القامة ، متظاهرا بالجلد ، محييا بهزة من رأسه أولئك
الذين كانوا يخرجون من الحواري ، ويقفون وسط الجمع ..
وإلى جانبي التابوت ، سار ستة رجال - ثلاثة إلى كل جانب -
في خطى وثيدة ، لاهئين قليلا .. وكان القساوسة ، والمرتلون ،
واثنان من الشماسة يرددون الكلمات الأولى من مزمور الرحمة
(المزمور ١٣٠) ، فتردد أصواتهم فوق الحقول ، مرتفعة
ومنخفضة في تماوج .. وكانوا أحيانا يتوارون في منحرجات

الطريق ، ولكن الصليب الغضى الكبير كان يظهر دائبا بين
الأشجار .

وكانت النساء يمرن بعد هؤلاء ، في معاطف سوداء ،
ذات قلنسوات مقلوبة ، وقد حملت كل منهن في يديها شمعة
كبيرة موقدة .. وأحس « شارل » بقواه تزداد وهنا لاستمراره
في ترديد الصلوات ، وبسبب اللهب ، ورائحة الشمع الطاغية ،
ومسوح الرهبان . واخذت نسمة عليلية في الهبوب .. وكانت
نباتات الجويدار واللفت مخضوضرة ، وعلى الأسبجة الشوكية
- على حافة الطريق - كانت قطرات الندى المحمرة ترتجف
.. وكانت كافة الأصوات المرححة تملأ الهواء .. قعقة عربية
تجرى بعيدا ، في الأخاديد ، وصياح ديك أخذ يتردد مرارا ،
وصهيل فرس صغيرة ترتج تحت أشجار التفاح .. وكانت
السماء الصافية موشاة بسحب وردية ، وعلى الأكواخ المغطاة
بالسوسن ، ران ضباب ضارب للزرقة .. وكان « شارل »
وهو مار بافنية الدور يتعرف على كل منها .. وتذكر أياها كان
يعود فيها من زيارة أحد مرضاه في صباح كهذا ، فيمر بهذه
الدور في طريقه .. إليها !

وكان القطاء الأسود ، الموشى بالخرز الأبيض ، يطير من
مكانه - بين وقت وآخر - فيكشف التابوت .. وتباطأ حاملو
التابوت وقد تعبوا ، فكان التابوت يتقدم في هزات مستمرة ،
كسفينة ترتج على كل موجة .. ووصلوا إلى المقبرة ، فيهم
الرجسالم مباشرة إلى مكان بين الحشائش حفر فيه قبر .
واصطفوا حوله ، وبينما كان القس يتكلم ، كانت القرية الحمراء
المكومة على جوانب القبر تنهار عند الأركان .. حتى إذا أعدت

الحيال الأربعة ، وضع التابوت عليها .. وراقبه وهو يهبط ، وخيل إليه انه سيقظ يهبط إلى الأبد ، ثم سمع صوت ارتطام ، وأزيز أنبعث عن احتكاك الحبال وهى تشد إلى أعلى .. ومالبث «بورنيسيان» أن تناول المعول الذى أسلمه له «ليستبيودوا» ، وبينما كانت يده اليسرى لا تكف عن نثر الماء ، أهالت اليد اليمنى كومة كبيرة من التراب بقوة ، فلما ارتطم الحمى بخرشب التابوت ، سمع ذلك الصوت الرهيب الذى بلوح لنا كثيرات الأبدية !

وناول القس نائرة الماء المقدس إلى جاره ، وكان السيد هوميه ، فبها فى وجوم ، ثم ناولها إلى «شارل» الذى جثا على ركبتيه فى التراب ، وملا يده بالماء يلقيه صائحا : «استودعك الله !» .. وبعث إليها بقبلاط ، ثم جر نفسه إلى القبر ، ليدفن نفسه معها .. ولكنه حمل بعيدا ، ولم يطل به الوقت حتى هدا ، ولعله شعر كالأخرين ، بارتياح مبهم إذ انتهى كل شئ .. أما الأب «روو» فقد مضى — فى عودته — بدخن غليونه فى هدوء ، الأمر الذى جعل «هوميه» يحس — فى أعماق نفسه — بأنه لا يناسب المقام .. كما لاحظ أن السيد «بنييه» لم يكن حاضرا ، وأن «توفناش» قد تسلسل بعد القداس ، وأن «تيودور» — خادما موثق المعشود — كان يرتدى سترة زرقاء .. «كانها ليس بوسع المرء أن يحصل على سترة سوداء ، ما دامت هذه هى التقاليد .. يا للشيطان !» .. ولكى يشرك الآخرين فى ملاحظاته ، راح يتنقل من جماعة إلى أخرى .. كانوا آسفين على موت «ايبا» ، لا سيما «لوريه» الذى لم يفته حضور الجنازة ، والذى راح يقول : «يا للشابة

المسكينة ! .. ما أشد ألم زوجها !» .. فقال الصيدلى : «هل تعلم انه لولاي لأقدم على محاولة خطيرة لنفسه ؟» .. — ما كان أطيبها من امرأة ! .. من يصدق أننى رأيتها يوم السبت الماضى ، فقط ، فى متجرى ؟
قال الصيدلى : «لم أجد وقتا لأنظّم كلمة القيا على قبرها» .

● ما أن ولج «شارل» داره حتى بادر إلى خلع ثيابه .. أما الأب «روو» ، فقد عاد إلى ارتداء قميصه الأزرق ، وكان جديدا . ولما كان قد جفف دموعه به مرات كثيرات أثناء الرحلة ، فقد تركت المصيفة أثرا على وجهه ، كما تركت الدموع خطوطا بين طبقات التراب التى تراكمت عليه ..

وكانت مدام «بوفارى» الأم معها . وساد الصمت ثلاثتهم . وأخيرا ، تنهد الشيخ قائلا : «أتذكر يا صديقى أننى زرتك مرة فى (توست) عقب فقدك زوجتك الأولى ؟ .. لقد واستيتك إذ ذاك .. وجدت ما أقوله ! .. أما الآن .. وفى أئين عال هز صدره ، قائلا : «آه ! .. هذه نهايتى .. أترى ؟ .. لقد شهدت رحيل زوجتى .. وابنى بعدها .. وهى ذى ابنتى اليوم !» .. ورغب فى أن يعود توا إلى (برتو) قائلا أنه لا يقوى على المبيت فى هذا البيت .. كما رفض أن يرى حفيده ، قائلا : «لا ، لا ! .. أن هذا يسبب لى حزنا بالغا ! .. سأكتفى بأن تقبلها كثيرا عني ! .. وداعا ! .. أنك ولد طيب ! .. ثم أننى لن أنسى قط هذا .. وربت فخذ» ، وقال : «لا تبتئس ! .. ستلقى دائما الديك الرومى !» .

ولكن ما أن بلغ قمة التل ، حتى التفت وراءه ، كما التفت

مرة من قبل ، فى طريق (سان فيكتور) حين ودعها وهى ترحل مع زوجها .. وكانت نواخذ القرية تعكس اشعة الشمس الغاربة وراء الحقول ، فتلوح وكان النار شبت فيها .. ووضع يديه على عينيّه ، فرأى عند الانق سدا من الجدران ، وقد قامت الأشجار هنا وهناك ، كأنها عقايد سوداء بين الأحجار البيضاء .. وما لبث أن واصل سيره فى خطوة معتدلة ، إذ كانت دابته قد أصيبت بعرج ..

● ظل «شارل» وأمه ساهرين طويلا يتكلمان ، فى تلك الليلة ، رغم تعبهما .. تحدثا عن أيام الماضى ، وعن المستقبل .. لقد عولت على أن تأتى فتقيم فى (ايونفيل) ، تعنى بيته ، ولا يضرب بينهما فراق قط .. كانت ليقة ، لطيفة ، وقد انتهجت فى قرارة نفسها إذ استردت ثانية ذلك الحب الذى ضل عنها سنوات عديدة .. ودقت الساعة معلنة انتصاف الليل ، والقرية ساكنة كالعهد بها .. أما «شارل» فكان مستيقظا ، لا يكف عن التفكير فيها .. فى «ايا» ..

وكان «رودولف» نائما بسلام فى قصره ، بعد أن قضى اليوم كله يضرب فى الغابة ليشفل باله عنها .. أما «ليون» ، فكان كماداته .. نائما .. فى المدينة ! .. على أن ثمة شخصا آخر ، لم يكن نائما فى تلك الساعة . فعلى القبر ، بين شجرتى الصنوبر ، كان ثمة فتى جاثيا يبكى ، وقلبه الذى أضناه البكاء ، يخفق فى الظلام تحت عبء حزن هائل ، ولكنه أعذب من القمر ، ومن الليل الذى لا قرار له ! .. وفجأة ، سمع صرير باب المقبرة .. كان «ليستيبودوا» قادما ليبحث عن

بموله الذى نسيه .. فلمح «جوستان» يتسلى السسباج منصرفا .. وعرف أخيرا من هو الشرير الذى كان يسرق بطاطسه !

الفصل الحادى عشر

● استرد «شارل» فى اليوم التالى طفله . وراحت تسال عن أمها ، فكال يقال لها أنها سافرت ، وأنها ستجلب لها فى عودتها بعض اللعب .. وعادت «بيرت» تتكلم عنها عدة مرات ، ثم لم تعد — فى النهاية — تفكر فيها .. وكان مرح هذه الصغيرة فتفت قلب «بوفارى» . وكان عليه بجانب ذلك ، أن يتحمل مواساة الصيدلى الملحاحة التى لم تكن تطاق ..

وسرعان ما عادت المتاعب المالية تثار ، إذ عاد السيد «لوريه» يحرض صديقه «فانكار» .. وتورط «شارل» فى سندات بهبالغ متزايدة ، إذ ما كان ليرضى أبدا بأن يباع اتفه متاع كان لا يما يوما .. وانتقدت أمه حاله ، فغضب كما لم يغضب من قبل — إذ كان قد تغير تغيرا تاما — ولم تلبث أمه أن هجرت البيت .

وإذ ذاك ، بدأ كل امرئ يستغله . فطالبته مدموازيل «لامبرير» بحساب دروس لمدة ستة شهور ، مع أن «ايا» لم تطلق عليها درسا واحدا .. (رغم ذلك الايصال الزائف الذى اطلعتة «ايا» عليه) .. كان ثمة اتفاق بين المرأتين ! وطالب صاحب المكتبة — الذى اعتاد أن يعير الناس كتبه — باشتراكات السنوات الثلاث الأخيرة .. وطالبته الأم «روليه» بأجور البريد عن عشرين خطابا ، فلما استفسرها «شارل» ،

الهمتها لباقتها أن تجيب « آه ! .. لست أدري ! .. كان ذلك من أجل شنونها ! » .

وكان «شارل» كلما دفع ديناً ، ظن أنه الأخير ، ثم لا يلبث أن يفاجأ بديون أخرى لا تنقطع .. وارسل لمرضاه يسألهم اتعابه ، فعرضت عليه الخطابات التي كانت زوجته قد كتبتها لهم .. فكان يضطر إلى أن يعتذر ! .. وأصبحت «فيليسيتيه» ترتدى ثياب السيدة .. أكثرها على الأقل ، فقد احتفظ هو بالبقية ، كان يذهب ليلتاها في مخدعها ، بعد أن يغلّق الباب خلفه .. وكانت الخادم في مثل طولها ، فكثيراً ما كان «شارل» — حين يراها مدبرة — يتولاه الوهم بأنها هي ، فيصيح : « اواه ! .. الا امكثي .. امكثي » .. ولكنها في عيد العنصرة هربت من (ايونفيل) مع « تيودور » بعد أن سرقت من صوان الملابس كل ما كان قد تبقى .. وفي حوالى ذلك الوقت ، تلقى من الأرملة « ديبوى » رسالة تتشرف فيها باخطاره : « بزواج ابنها السيد «ليون» — موثق العقود في (ايفيتو) — إلى الأنسة ليوكاديه ليبوف من بونديفل » .. وقد جاء فيها كنبه « شارل » ليهنئه : « ما كان أخرى زوجتى المسكينة بأن تسعد بهذا ! » .

● وإذ كان بهيم يوماً في البيت على غير هدى ، صعد إلى غرفة المخزن ، فأحس تحت نعله بكرة من ورق رقيق ، بسطها فإذا فيها : « تشجى يا «ايما» تشجى ! .. ما كنت لأحبل حياتك إلى شقاء » .. كانت رسالة « رودولف » وقد وقعت على الأرض بين الصناديق ، حيث بقيت .. حتى طوح بها

الهواء الوافد من الكوة نحو الباب .. ووقف «شارل» جامداً ، محملاً ، في نفس المكان الذي وقفت فيه «ايما» من أمد طويل ، يائسة — أشد شحوباً مما هو الآن — وقد أخذت فكرة الموت تراودها .. واكتشف أخيراً حرف «ر» صغير في نهاية الصفحة الثانية .. ما هذا ! .. وتذكر ما كان يبديه « رودولف » من اهتمام بزوجه ، ثم اختفاؤه المفاجئ ، وما كان يلوح عليه من ضيق وحرص حين التقيا مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك .. ولكن اللهجة الوقور التي سادت الخطاب خدعته ، فقال لنفسه : « لعل كلا منهما أحب الآخر حباً عذرياً » ! .. ثم أن «شارل» لم يكن ممن يتعمقون وراء الأشياء ، بل إنه أجفل من أن يعتز على أدلة ، وتبددت غيرة المبهمة في حزنه الهائل .. وراح يعالج نفسه بأن كل امرئ لا بد كان يعيدها ! .. بل من المؤكد أن كل الرجال كانوا يشتهونها !! وزادها هذا جمالاً لديه !!! واستولت عليه شهوة باقية هوجاء نحوها ، أذكت من قنوطه الذي لم يكن له حد ، إذ لم يعد من سبيل إليها ..

ولكى يرضيها — وكأنها كانت لا تزال على قيد الحياة — اعتنق ميولها ، وآراءها .. وابتاع أحدى من الجلد الطرى .. وأغرم بارتداء ربطات العنق البيضاء ، واستعمل الدهون في تنسيق شاربيه ، وأصبح يوقع — مثلها — سندات تحت الطلب .. كانت «ايما» تقوده إلى الخراب ، من أعماق قبرها !

واضطر إلى أن يبيع التحف الفضية قطعة بعد أخرى .. ثم باع اثاث حجرة الجلوس .. وتعتز كل الغرف ، عدا غرفة النوم .. غرقتها ، فقد بقيت كما كانت من قبل .. وكان «شارل» يصعد إليها بعد عشائه ، فيدفع المنضدة المستديرة أمام

المدفأة ، ويجذب مقعدها — ذا المسنين — ثم يجلس امامه ،
وفى أحد الشبهذات المذهبة شمعة تحترق .. و «بيرت» إلى
جواره ، تطبع بعض الصور باستخدام اختام محفورة .. وكان
الرجل البائس يتعذب إذ يراها سيئة الملبس ، فحذاءها بغير
رباطين ، والثقوب التى تخلفت ذراع قميصها امتدت فى تمزق
وصل إلى ردفها ، فان المرأة التى كانت تقد للمناية بالبيت ، لم
تشغل نفسها بها .. على أن الصغيرة كانت لطيفة جدا ،
رقيقة للغاية ، وكان رأسها الصغير ينحن إلى الامام فى
رهافة ، تاركا شعرها الأشقر الغزير ينسدل على خديها ،
فيحس «شارل» بقبطة لا نهاية لها تفره ، وسعادة ممزوجة
بمرارة ، كتلك الخمر الرديئة الصنع التى يكون لها طعم زيت
الخروع .. وكان يصلح لها لعبها ، أو يصنع لها اشكالا من
الورق المقوى ، أو يخطط لها الدمى الممزقة .. وكان إذا وقعت
عيناه — إذ ذاك — على صندوق الحياكة ، أو على شريط
ملقى ، أو حتى ابرة مستترة فى أحد شقوق المنضدة ، يستغرق
فى الأحلام ، ويتجلى عليه الحزن ، حتى تبدو الصغيرة بدورها
حزينة مثله .

ولم يعد يفد لزيارتها أحد .. فقد هرب «جوستان»
إلى (روان) حيث أصبح صبيا لدى بقال ، واخذت زيارات
أطفال الصيدلى للصغيرة تقل شيئا فشيئا ، إذ لم يعد السيد
«هوميه» يعنى باستمرار الود ، وهو يرى الفارق فى المكانة
الاجتماعية بينهم وبينها ..

وكان الأعمى — الذى أخفق علاجه بذلك البليسم — قد
عاد إلى تل غابة (جيوم) حيث راح يخبر المسافرين بمحاولة

الصيدلى الفاشلة .. حتى أصبح «هوميه» — إذا ذهب إلى
المدينة — يتوارى خلف ستائر «المصفورة» ليتفادى الالتقاء
به .. بل أنه أصبح يكرهه ، ويتنى — من أجل سمعته — أن
يتخلص منه بأى ثمن .. فشن عليه حملة مستترة ، كشفت عن
عمق ذكائه ، وعن خسة غروره .. فكان المرء يقرأ فى «الغانال
دى روان» — طيلة ستة شهور متتالية — نبذا ، راح يردد
فيها :

«كل قاصد إلى سهول بيكاردى الخصيبة ، لاحظ ولا بد
على مقربة من تل غابة (جيوم) متنولا مصابا بجرح فظيع فى
وجهه . وهو يزعجك فى لجاجة ، ويطاردك ، ويفرض على
المسافرين جميعا جزية حقيقية . فهل ما زلنا نعيش فى العصور
الوسطى البشعة ، حين كان يباح للأفاقيين أن يعرضوا فى
الحال العامة ماعادوا به من الحملات الصليبية من جزام وداء
الخنزير ! .. أو «على الرغم من القوانين المكافحة للشرذ ،
فان مشارف مدننا الكبرى لاتزال موبوءة بعصايات من
المتسولين . ويشاهد من هؤلاء من يطوفون غرادى ، ومن
يحتمل أن لا يكونوا أقل خطرا من سواهم . فما رأى أعضاء
مجالسنا البلدية ؟» .

ثم أخذ «هوميه» يبتكر الأقاصيص .. «جمع بالأمس
جواد عند تل غابة (جيوم) .. ثم يردف هذا بقصة حادث
نشأ عن وجود الرجل الأعمى .. وقد أحكم حملته ، حتى حبس
الرجل ، ولكنه ما لبث أن سرح ، وعاد من جديد .. فعساد
«هوميه» إلى حملته ! .. كانت مفرقة ، قسرها لهومييه أن
يكسبها ، إذ قضى على غريمه بالبقاء فى ملجأ طوال عمره .

● وجراه هذا النجاح ! ومنذ ذلك اليوم لم يعد كلب يدهس ، أو مخزن للغلال يحترق ، أو امرأة في الإبرشية تضرب ، إلا وكان يبادر للتو إلى نشر النبال للراي العام ، يحدوه دائما حب الرقي وكراهية القساوسة ! .. وكان لا يفتأ يقارن بين المدارس الأولية والمدارس الكنسية ليقوع الضرر بهذه ، وأعاد إلى الأذهان مذبة « سان بارتلمي » ، من أجل منحة قدرها مائة فرنك قدمت للكنيسة ، وحمل على المساويء ، وكشف عن آراء جديدة ، كما كان يقول ! .. كان « هومييه » يجفر ويهدم .. ومن ثم أصبح خطيرا ! .. على أنه أحس بأنه يفتنق في حدود الصحافة الضيقة ، ولم يلبث أن وجد أن لا بد له من كتاب يؤلفه . وإذ ذاك وضع مؤلفا في « إحصاءات عامة لمنطقة (يونفيل) » ، تتبعها ملاحظات عن المناخ .. ودفعته الإحصاءات إلى الفلسفة ، فشغل بمسائل كبيرة : المشكلة الاجتماعية ، والتهديب الخلق للطبقات الفقيرة ، وتربية الأسماك ، والمطاط ، والسكك الحديدية ، الخ . بل أنه أخذ يخلج من انتماؤه إلى الطبقة المتوسطة ، فاتخذ لنفسه مظهر أهل الفن ، وأقبل على التدخين ! .. وابتاع تمثالين بديعين من طراز « بومبادور » ليزين بهما غرفة جلوسه .. بيد أنه لم يهجر الصيدلية على الإطلاق ، بل أنه - على النقيض - ظل مواظبا على متابعة الاكتشافات ، فقتبع الحركة الكبرى التي أثرت بصدد أنواع « الشيكولاته » .. وكان أول من أدخل « الكاكاو » و « الريفالنسيا » إلى حوض (السين) الأدنى .. وتحس لأطواق « بولفرمائيه » الكهربائية وارتدى بنفسه منها ، فكان إذا خلج قميصه الداخلي (الفانيلا) ، ذهلت زوجته لرؤية

الوهج الذهبي الحلزوني الذي كان يفتنق وراءه .. وشعرت بشوقها يتضاعف لهذا الرجل ، الملتف في الأطواق كأنه ساحر مجوسى ..

وكانت له آراء طريفة بصدد قبر « ايما » .. فاقترح في البداية أن يقام عليه عمود ابتر مكسو بالجوخ .. ثم اقترح هرما ، ثم معبدا ، ثم صرحا ذا قبة ، أو « ركابا من الاطلال » .. وكان « هومييه » في جميع هذه المشروعات ، لا يتحول عن إضافة نبات الصفصاف الباكى ، الذي كان يعتبره رمزا لا بد منه للحزن ..

ورحل « شارل » معه إلى (روان) لمشاهدة بعض القبور . لدى أحد صانعي التوابيت ، وصحبهما فتان يدعى « غونريلار » - من اصدقاء « بريدو » - ظل طيلة الوقت يتكلم بالانغاز . وأخيرا ، وبعد أن فحوصوا حوالى مائة رسم ، طلبوا تعديرا للنفقات . ثم قام الصيدلى مع « شارل » برحلة أخرى إلى (روان) ، قرر فيها الأخير أنه يؤثر الاكتفاء بضريح مزخرف ، يقام على كل من جانبيه الرئيسيين « تمثال اجنى يحمل مشعلا لا يухد » .. أما الكتابة التى تنقش عليه ، فلم ير « هومييه » اجمل من « استريخى ايتها المسافرة » باللاتينية .. ولم يزد . وأخذ يعصر ذهنه ، ويردد باستمرار « استريخى ايتها المسافرة » .. ثم خطرت له عبارة « خفف الوطأ إنها زوجة محبة » باللاتينية .. فاستقر الراى عليها .

وكانت ثمة ظاهرة غريبة .. فبينما كان « بوفاري » يفكر باستمرار في « ايما » ، أخذ ينساها .. واشتد به الاسى إذ شعر أن هذا الطيف يغيب عن ذاكرته رغم كل الجهود التى

كان يبذلها للاحتفاظ به .. ومع ذلك فإنه كان يحلم بها في كل ليلة .. نفس الحلم .. كان يقترب منها . حتى إذا هم باحتضانها ، هوت متعنتة بين ذراعيه ! .. وشوهد يتردد على الكنيسة كل مساء ، لمدة أسبوع .. كما أن الأب « بورنيسيان » زاره مرتين أو ثلاثا ثم أهله ، لا سيما وأن القس المسكين أصبح لا يطاق ، وازداد تهوسا ، كما قال « هوميه » . كان يرغب ويضد روح العصر ، ولم يكف عن أن يذكر في مواظبه — مرة كل أسبوعين — الآلام التي عاناها « غولتر » عند احتضاره ، ثم موته بعد عذاب مرير — نتيجة لإلحاده — كما يعرف كل امرئ !

● وعلى الرغم من الاقتصاد الذي انتهجه « بوفاري » فإنه كان أعجز من أن يسد ديونه القديية .. ورفض « لوريه » أن يجدد السندات بعد ذلك ، وأصبح الحجز على داره متوقفا .. فتوسل إلى أمه ، التي وافقت على أن ترهن عقارها من أجله ، ولكن .. بعد أن أبدت كثيرا من اللوم البالغ لما فعلته « أينا » .. وسالته في مقابل هذه التضحية ، شيالا كان لايبا وأملت من عدوان خادمتها ، فأباه عليها « شارل » .. ومن ثم تخاصبا .. على أنها كانت البائدة بالسعى إلى الصلح ، فعرضت أن تكفل البنت الصغيرة ، لتساعدوا في البيت وتعيش معها . ووافق « شارل » على هذا ، ولكن شجاعته خائفته عندما حان الفراق .. وإذ ذاك حدثت قطيعة نهائية ، كاملة . وكان كلما تبدد وجده لايبا ، ازداد تعلقا بحب ابنته .. على أنها كانت تسبب له قلقا ، إذ كانت تسعل في بعض

الاحيان ، وظهرت بقعتان حمراوان على خديها .. وفي البيت المقابل ، كانت أسرة الصيدلي مزدهرة ، مرحلة .. كل شيء لديها في نماء .. فأصبح « نابليون » يساعد أباه في العمل ، ونسجت له « آتالي » قلنسوة ، وكانت « إيرما » تقص له اقراصا من الورق لتغطية المواد التي يخزنونها ، وأصبح « فرانكلين » يقرأ جدول « فيثا غورس » عن ظهر قلب ، في نفس واحد . كان « هوميه » أسعد الآباء وأكثر الرجال حظا ! ولكن ، لا ! .. كان يقض مضجعه مطمع تكتحه ! ..

كان يتوق إلى وسام صليب الشرف (اللجيون دونير) . ولم تكن البررات تعوزه ، فأولا : برز في أيام الكوليرا بها كان يديه من تفران لا حد له .. وثانيا : نشر — على حسابه الخاص — عدة مؤلفات ذات نفع عام (وكان يذكر كأمثلة عليها : كتيبا أصدره بعنوان « شراب التفاح : صناعته ومفعوله » ، وكذلك ملاحظات عن الحشرة الوبرية أرسلها إلى « الأكاديمية » ، ومؤلفه الاحصائي ، ويضئ في سرد مؤلفاته حتى يذكر الرسالة التي قدمها للحصول على شهادته في الصيدلة !) ، ثم يضيف : « هذا عدا أنني عضو في جمعيات عديدة للعلماء » — وما كان عضوا الا في واحدة ! .. وكان يصيح وهو يدور على رجل واحدة : « بالايجاز .. أنني أهل للوسام ، ولو لبلائي في الحرائق فحسب ! » .

وما لبث « هوميه » أن مال إلى صف الحكومة ، فأسدى لدير الأقاليم — في السر — خدمات كبيرة في الانتخابات .. باع نفسه في النهاية .. بغى وفجر ! .. بل أنه رغب ملتصبا إلى العاهل يناشده فيه أن « ينصفه » ، وخاطبه فيه بـ « مليكسا

الصالح « ، وقارن بينه وبين هنري الرابع .. واخذ الصيدلي ينقض على الصحيفة في كل صباح ، ليرى نبأ الانعام .. ولكنه لم ينشر قط ! واخيرا ، عجز عن المضي في الاحتمال .. وكانت في حديقته بقعة معشوشبة صميت على شكل نجمة الوسام ويتصل باعلاها شريطان من الحشائش يمثلان شريط الوسام ، فآخذ يسير حولها عاقدا ذراعيه ، مفكرا في غباء الحكومة ، وعدم اعتراف البشر بالفضل لاهله .

ولم يكن « شارل » قد فتح بعد الدرج السري في المكتب المصنوع من خشب الورد — الذي كانت « ايسا » تستخدمه عادة — بوازع من الاحترام لذكراها ، او بدافع من لسون من اللذة كان يحمله على ان يبطئ في ابحاثه .. على انه جلس ذات يوم امام المكتب ، فآدار المفتاح ، وضغط الزر .. وكانت كل رسائل « ليون » هناك .. ولم يعد ثمة مجال للشك في هذه المرة .. واخذ يلتهم الرسائل حتى آخرها ، ثم مضى ينقب في كل ركن .. بل في قطع الاثاث جميعا ، وفي كل الادراج ، وخلف الجدران وهو منههر الدمع ، يجيش بالبكاء .. مختبلا ، مجنونا .. وعثر على صندوق ، ففتحه بركة من قدمه ، وإذا بصورة « رودولف » تقفز في وجهه ، وسط خطابات عاطفية مكثسة .

وعجب الناس لانطوائه .. فلم يعد يخرج ، ولم يعد يقابل احدا ، بل إنه أصبح يرفض ان يعود مرضاه .. وما لبث ان تردد زعم بانته « يحبس نفسه ليعكف على الشراب » ! .. على ان بعض الفضوليين كانوا — احيانا — يتسلقون سياج الحديقة ، فكانوا يرون — مذهولين — ذلك الرجل الشارد

الفكر ، الطويل اللحية ، الزرى اللبس ، الذي كان يجيش بالبكاء بصوت عال وهو يمشي .

وكان في المساء المبكر — في الصيف — يصطحب ابنته ويقودها إلى المقبرة ، ثم يعودان حين يرخى الليل سدوله ، ولا يبقى في الميدان من ضوء مسوى الضوء المنبعث من كوة « بينيه » .. غير ان لذة حزنه لم تكن كاملة ، إذ لم يكن بجواره من يشاطره اياها ، فآخذ يزور الأم « لوفرانسوا » راجيا ان يتحدث إليها ، ولكن ربة الفندق لم تكن تصنى إليه الا بنصف آذن ، إذ كانت لديها متاعبها الخاصة ، فغد أنثسا « لوريه » اخيرا عربات لنقل الركاب — تنافس عربتها « العصفورة » — باسم « المفضلة للتجارة » ، واصر سائق « العصفورة » المدعو « هيفير » — الذي اكتسب شهرة كبيرة في اداء عمله — على ان يرفع أجره ، واخذ يهدد بان يذهب إلى « المنافس » !

● وفي ذات يوم ذهب « شارل » إلى سوق (أرجوى) لبيع حصانه — آخر مورد لديه — فالتقى برودولف .. وشحب كل منهما إذ لمح الآخر .. وتمتم رودولف — الذي كان قد اكتفى بان يرسل إليه بطاقة للاعزية — ببضعة اعدار ، وهو متلعثم .. ثم وأتته الجراة ، حتى انه مضى في طمانينته إلى حد دعوته إلى تناول زجاجة من الجعة في الحانة .. وكان الجو قائظا ، إذ كان الشهر أغسطس .

ومال على المنضدة امامه ، واخذ يمسح سيجاره وهو يتكلم ، بينما كان « شارل » غارقا في تأمل ذاك الوجه الذي احبته .. هي ! .. وخيل إليه انه يرى في هذا الوجه شيئا منها .. كان يثير عجبه .. حتى لقد ود لو كان هو هذا الرجل !

ومضى «رودولف» يتحدث عن الزراعة ، والمناخية ، والمرعى ، وهو يملأ - ببهارات مبتذلة - الثغرات التي كان يعوزها فيها الإيضاح .. ولم يكن «شارل» مصغيا إليه .. ولاحظ «رودولف» ذلك ، فتنبت مجرى الذكريات التي كانت تنعكس على وجهه .. إذ أخذ هذا الوجه يزداد احتقاناً ، وراحت طاقنا أنه تخطجان بسرعة ، وشفتاه ترتجفان .. وحانت لحظة أنعم فيها «شارل» بفصص قائم ، نبتت عينيه على «رودولف» ، الذي كف عن الحديث في شيء من الخوف .. ولكن ، سرعان ما عاد إلى وجه «شارل» ذلك الطابع المضنى الحزين ، وقال : «لست أحتد عليك !» .. وبهت «رودولف» ، ومضى «شارل» يقول - ورأسه بين راحتيه - في صوت متهدج ، وفي لحظة مثقلة بحزن لا حد له : «لا .. لست أحتد عليك !» .. بل إنه أضاف عبارة رقيقة .. العبارة الوحيدة من نوعها .. «أنها غلطة القدر !» .. وراى «رودولف» - وهو الذي وجه هذا القدر - أن العبارة دمثة ، لا سيما من رجل في مثل مركز «شارل» .. بل ومضحكة .. وخسيسة إلى حد ما !

● في اليوم التالي ، ذهب «شارل» فجلس على المقعد الطويل الذي كان في الخيمة .. وكانت أشعة الشمس تنساب خلال الأمان .. وأوراق الكرمة تطبع ظلالها على الرمل ، والياسمين يضوع الهواء بعيرة ، والسماء زرقاء ، والذباب الهندي يطن محموماً حول الزنيق المزدهر .. وأحس «شارل» بأنه يخنق ، كما يفعل الشاب المراهق حين تفيض به تيارات الحب المبهمة التي ينعم بها قلبه ..

وفي الساعة السابعة ، أقبلت «بيرت» الصغيرة - التي لم تكن قد راته قط طيلة ما بعد الظهر - تبحث عنه للعشاء .. فاذا رأسه مسند إلى الحائط خلفه ، والعينان مقمضتان ، والفم مفتوح ، وفي يده خصلة طويلة من شعر أسود .. وهتفت : «هيا يا أبت .. تعال !» .. وإذ ظنته راغبا في مداعبتها ، دفعته في رفق ، فهوى إلى الأرض .. كان قد مات ! وبعد ست وثلاثين ساعة ، أقبل السيد «كانيفيه» - برجاء من الصيدلى - فقام بتشريح الجثة ، ولم يجد شيئا .. وعندما بيع كل شيء ، تبقى اثنا عشر فرنكا وخمسة وسبعون سنتيما ، استخدمت في دفع نفقات سفر الأنسة «بوفاري» إلى جدتها ..

ثم ماتت الجدة المعجوز في نفس السنة .. وكان الأب «روو» - والد أيا - قد أصيب بالشلل ، فكفلت الفتاة عمه لأمها ، كانت امرأة فقيرة ، فارسلتها لتكسب عيشها في مصنع لنسيج القطن ..

ومنذ وفاة «بوفاري» تتابع على (أيونفيل) ثلاثة أطباء ، واحداً بعد واحد ، دون أن يوفقوا ، فقد كان «هوميه» يحمل عليهم في عنف .. كان عدد عملائه قد تضخم ، وأغضت السلطات أعينها عنه ، وتكفل الراى العام بحمايته .. وقد حصل لتوه على صليب الشرف .. «اللجيون دوتير» !

((تمت))

محاكمة المؤلف

امام محكمة جنح باريس

(الدائرة السادسة)

في الجلسات من ٢١ يناير إلى ٧ فبراير سنة ١٨٥٧

تلخيص : انطون العبيدي

« مدام بوفاري » .. في ميزان العدالة !

● اثار قصة « مدام بوفاري » — عندما نشرت لأول مرة سلسلة على صفحات مجلة «ريفو دي باري» — ضجة انتهت بها وبمؤلفها إلى ساحة القضاء .. ولطرافه القضية واهميتها ، رايت ان اخلصها لك في الصفحات التالية .. نغهي لم تكن قضية « جوستاف فلوبير » و « مدام بوفاري » وحدهما ، وإنما هي قضية الكتاب ، والأدباء ، ورسالة الادب في كل عصر ، وكل بلد ! .. ولقد اعيد طبع الرواية بعد ذلك مرات في حياة « فلوبير » ، فكان في كل مرة يدخل عليها تعديلات وتنقيحات ، هي السر في وجود بعض الفوارق بين الطبعة النهائية المعتمدة التي ترجمناها ، وبين الفقرات التي اقتبسنا النياية وأشار إليها الدفاع ، إذ أخذ هذان عن الاصل الاول الذي نشر في المجلة ..

مرافعة النيابة العامة

● يا حضرات القضاة : تود النيابة العامة قبل الخوض في موضوع هذه الدعوة ان تشير إلى صعوبة مهمتها . هذه الصعوبة التي لا تتصل بطبيعة الاتهام ، وهو « خدش الآداب العامة والمساس بالدين » ، وإنما تتصل بهدى الاتهام ونطاقه . ذلك ان هذه العبارة مرنة واسعة الحدود بحيث يتعين تحديد مرماها . فعندما يعرض على حضراتكم مقال أو صفحة من كتاب يتضمن مساسا بالأخلاق العامة أو العقيدة ، يكون الأمر محدود النطاق . أما إذا تعلق الاتهام بقصة كاملة ، فإن الأمر يختلف كثيرا ، إذ من المستحيل — بطبيعة الحال — قراءة القصة برمتها . ولو أننا اقتصرنا على بعض الصفحات التي تتضمن فقرات معيبة ، فقد يقال بحق أننا لم نعرض القضية في كافة اجزائها . وإذ ان ما يسبق هذه الفقرات وما يتلوها ذو صلة وثيقة بموضوع الاتهام . من أجل هذا لا ترى النيابة امامها سوى طريق واحد ، هو ان تقص عليكم القصة قصا دون ان تقرا او تخص بالاتهام فقرة واحدة من فقراتها . ثم تتلو العبارات موضوع الاتهام وتبين ما فيها من خروج على القانون . عنوان القصة : « مدام بوفاري » ، ويليهِ عنوان آخر بين قوسين هو : « اخلاق الريف » ، وكلا العنوانين لا يدل على شيء . لم يشأ الكاتب ان يتبع في مؤلفه فلسفة معينة وإنما أراد ان يرسم بعض اللوحات ، وبإلهام من لوحات .. الزوج يبدأ القصة وينهيها ، ولكن الدور الاول الذي يطنى على جميع الانوار هو في الواقع دور « مدام بوفاري » .

جاء بالطفل «شارل» إلى المدرسة ، وكان بليدا خجولا ،

تتم طفولته عما ستكون عليه رجولته .. فهو يواصل دراسته
ثون ما تقدم، وهو اضحوكة فصله .. وحين اتم المرحلة الاولى
من الدراسة، جاء إلى (روان) حيث اخذ يدرس الطب ..
ولم يكن يعنى بالدراسة كثيرا وإنما كان يفتش «الكباريات»
ويكلف بلعبة «الدومينو» .. ذلكم هو السيد «شارل بوفارى» .
واراد ان يتزوج . فعمرت له أمه على زوجة هي أرملة
أحد المحضرين . وكانت تنافس الخامسة والأربعين ولها دخل
قدره ١٢٠٠ فرنك .. امرأة دميصة على جانب من الورع
والتقوى .. ولكن الموثق الذي وكلت إليه مالها فر إلى أمريكا ،
فماتت متأثرة بالصدمة .. ذلكم هو الزواج الأول وذلكم هو
الجزء الأول من الرواية .

* * *

● اراد السيد «بوفارى» بعد ذلك ان يتزوج ثانية ..
فاتجه نظره إلى ابنة مزارع في منطقة مجاورة ، هي : «إيما
روو» .. وصار السيد «بوفارى» كلما يزوجه .. وكان
أسعد الرجال ، وأكثرهم عى .. وكان جل همه ان يحقق
رغباتها .. وهنا يتصاعل دور السيد «بوفارى» وبرز دور
مدام «بوفارى» كبطله للقصة .

حضرات القضاة : ترى هل احببت مدام «بوفارى» زوجها
او حاولت ان تحبه ؟ لا .. كان هناك منذ البداية ما يسمى
بالانسحاق للأحلام .. ومنذ ذلك الحين تمثل لها افق آخر ..
حياة جديدة . إذ أوجت إليها حفلة في قصر (مويسسار)
— حضرتها في صحبة زوجها وجمع من عليا القوم — بالنزوات
المستهرة .. منذ ذلك الحين تبدلت حالتها واصبح كل ما يحيط

بها ثقيل لا يطاق .. واراد السيد «بوفارى» ان ينقذها مما
تولاها من الملل والضيق ، فاصطحبها إلى (ايونفيل) للاقامة
فيها ، مضحيا بمملائه . وفي هذه البلدة تحدث الزلة الاولى ،
إذ عرفت مدام «بوفارى» شابا صغير السن يعمل كاتباً عند
موتق البلدة هو «ليون ديويو» ، الذي كان يدرس الحقوق ،
ويزمع السفر إلى العاصمة .. ولم يجد السيد «بوفارى»
حرجا في زيارة هذا الشاب لمنزله ، إيمانا منه بعفة زوجته .
كذلك كان الشاب سليم النية . وما لبث ان سافر ، فافلتت
الفرصة ، ولكن فرصا أخرى سنحت بسهولة .. إذ كان يقيم
على مقربة من (ايونفيل) شاب يدعى «رودولف بولانجيه» ،
كان له ماض مع بعض النساء . وما إن وقع نظره على مدام
«بوفارى» ، حتى عقد العزم على أن يتخذها خلية ! ولم يجد
كبير غناء في بلوغ غايته بعد ثلاث مقابلات .. وتعاقبت
المقابلات في قصر «رودولف» ، وبلغ العاشقان أقصى حدود
الفسق .. ثم رغب مدام «بوفارى» إلى «رودولف» في ان
يختطنها ، ولكنه لم يجزؤ . وكتب إليها رسالة أوضح لها عذره
.. وكانت هذه الرسالة صدمة قاسية لها ، فأصيبت بحس
مخية ، قتلت الحب ، ولكن داء الفسق بقى .. ذلكم هو الجزء
الثاني .

* * *

● وفي الجزء الثالث يحدث في نفس مدام بوفارى رد فعل
لسقطتها مع «رودولف» فيستيقظ الشعور الدينى في قلبها ،
ولكن إلى حين . إذ وجد السيد «بوفارى» أن يرفه عنها في
نقاها ، فصحبها ذات ليلة إلى (روان) .. وفي المسرح

صادفا « ليون ديوي » ، وكان قد عاد من باريس وقد اكتسب علما، وخبرة بالحياة . . فيتفق مع مدام « بوفارى » على لقاء ، تختار له الكاتدرائية مكانا . . ولكنه يغريها على أن تصحبه في عربة . . وتمتع الزلة الثانية في داخل العربة . وتكرر المقابلات في منزل الزوج ، ثم في غرفة خاصة استأجرها في (روان) . . إلى أن تحس مدام بوفارى بالملل . . وهنا يبدأ فصل الكتابة والأسى . . إذ كانت مدام بوفارى قد بعثرت الأموال في تقديم هدايا إلى « رودولف » وإلى « ليون » ، وعاشت في بذخ وإسراف ، واضطرت إلى التخبط في الديون . . فيقاضيها المرابى ، ويوقع الحجز على مقولات منزل الزوجية ، ويلصق إعلان البيع . . والزوج لا يعلم شيئا . . وتسمى مدام « بوفارى » للحصول على المال من أى شخص ، فلا توفق . . ويأبى « ليون » أن يرتكب جريمة حاولت أن تغريه على ارتكابها . . وتلجأ إلى « رودولف » بعد أن اعيأها المطاف فلا تجد عنده الثلاثة آلاف فرنك التى تنشدها . هل تقضى إلى زوجها بما حدث ؟ . . إنه بلا شك كان يغتر لها كل ما فعلته ، ولكن هذا الغفران لا يرضى كبرياءها ، فتؤثر تناول السم ! وهنا تحدث مشاهد مؤلمة ، إذ يرتمى الزوج إلى جانب جسد زوجته ، يبكى وينتحب ، ويطلب أن تدفن في حلة عرسها ، وفي ثلاثة توأبيت . . ويقرر للزوج أن يمثر بعد ذلك على خطابات عاشقيها ، فهل تظنون أن الحب سيفارق قلب هذا الرجل ؟ . . على العكس ، فان هذه الذكريات الغرامية التى خلفتها له هذه المرأة التى عبث بها أشخاص آخرون ، تلهب قلبه وتضاعف حبه . فيهمل شئون عمله ، ويقاطع أمه ، ويبدد

البقية الباقية من ماله . ثم يمثر عليه في أحد الايام جثة هابدة في حديقة منزله ، وقد أمسك بيده خصلة كبيرة من شعر زوجته الأسود !

● هذه هى القصة . . وانتقل بعد ذلك إلى سرد بعض النصوص التى وردت في سياقتها توطئة للحديث عن صلب الاتهام . . على أننى أرى لزما على - قبل ذلك - أن اتحدث عن السيد « فلوبير » ، وعن المدرسة التى ينتمى إليها ، وعن أسلوبه في رسم اللوحات التى يكون منها قصته . كيف صور شخصية مدام « بوفارى » ؟ . . إنها أول الأمر فتاة في حوالى الثانية عشرة من العمر ، تتلقى تعليمها في أحد الأديرة ، ولا تعرف في هذه السن شيئا عن الانفعالات والغرائز . . وهى حين تعترف بخطاياها للكاهن تبتكر هنوات بسيطة ، لتعكث بعض الوقت في كرسى الاعتراف ، تستمع إلى نصائح رجل الدين ، وهى تجسد لذة في تأمل ما يردد في الدير عن الخطية والحبيب السماوى والقران الأبدى . هل هذا طبيعى ؟ اليس في المزج بين ابتكار الخطايا التافهة والإحساس بهزة نفسية تحرك شعور فتاة في هذه السن عند ذكر هذه الأمور ، وبين الإطالة في مقابلة الكاهن والاستماع إلى حديثه ، اليس المزج بين هذه الأمور مقصودا لرسم صورة داعرة من تلك الصور التى زحرت بها القصة ؟ !

● تزوجت مدام « بوفارى » . وكان ينبغي لها أن ترقص . فانظروا حضراتكم كيف يصف الكاتب رقصها مع الفيكونت فيقول :

للغريزة الجنسية ، وإشباع الشهوات ، والجسم الناعم الذى يخرى كل ما فيه بالمعنة الآتية .

• إليكم بعد هذا بعض العبارات عن صلات « رودولف » و « ليون » الغرامية ببطللة القصة ، وعن عودة الوازع الدينى ، وعن الموت :

« ان تفاهة الاثاث المنزل تدفعها إلى نشدان الترف فى مكان آخر . وعطف الزوج يدفعها إلى الخيانة الزوجية » .. ما الذى اغرى بها « رودولف » ؟ .. انه « ثوبها بفرد وينتى وفق تقاسيم جسمها .. وكانت صورة « ايما » دائما فى خياله يراها فى اوضاع شتى ويفزع عنها ملابسها ويأخذها إلى صدره .. ويلتقيان أول لقاء وتلتهب شفاههما ، فيرطبها الانفعال النفسانى .. وتحرك لايدى لينة رخوة ! » .

تلك مقدمات السقطه ، ويجب ان تقرأ السقطه نفسها .. لقد أسلم « شارل » زوجته إلى « رودولف » ليدربها على ركوب الخيل ، فخرجها إلى الغابة ..

« واشتبك قماش ثوبها بمخل سترته ، فمالت إلى الخلف بعنقها الأبيض ، الذى انتفخ بزفرة .. وفى اضطراب ، ودموع ، وعرشة طويلة ، حجب وجهها .. واسلمت نفسها ! » .. وبعد أن اشبع شهوتها ، تعود الزوجة إلى بيت الزوجية حيث الزوج الذى تحتقره .. ترى هل هى نادمة بعد سقطتها الأولى ؟ كلا بل انها تعود عالية الرأس ، فخوره بالفسق الذى ارتكبه ، مرددة : « أصبح لى عشيق ! » .. وبعثت فيها هذه الفكرة نشوة « فكانت تحظى بفترة المراهقة والاحلام مرة أخرى !

« وشرعا يرقصان فى بطء ، ثم ازدادت السرعة ، وأخذا يدوران فيدور معها كل ما حولهما من مصابيح ، واثاث ، وجدران ، وأرض ! .. وعندما مرا على مقربة من الباب ، التق ذيل ثوبها حول بنطلونه ، ففداخلت ارجلها .. وخفض بصره نحوها .. ورمعت هى بصرها نحوه .. وعلى الفور ، أحسست بدبيب مخدر يسرى فى اعصابها ! .. وتوقفت عن الرقص لحظة ، ثم استأنفاه ، وإذا الفيكونت يقود ايما بحركة رشيقة إلى نهاية البهو ، حيث أختفى معها . وكانت قد أوشكت أن تسقط لاهثة الانفاس ، فأسندت رأسها هنيهة إلى صدره » .

انظروا إلى مدام « بوفارى » فى أبسط افعالها . انكم تجدون فيها ريثة المؤلف تصور هذه الأعمال على نفس النحو الذى ترسم به شتى اللوحات المثورة بين دفتى الكتاب ، فهذا « جوستان » خادم الصيدلى المجاور ، كم كان يذهل إذ يلحج أسرار غرفة زينة هذه السيدة . إنه يتأهل فى نهم أشياءها المبعثرة على منضدة الكى ، ومن بينها السراويل الواسعة فى اعلاها ، الضيقة فى اسفلها .. وكما تسأل الزوج عن رائحة العطور التى كان يشمها من هذه المرأة !

« أهى منبعثة من قميصها أو من جسمها ؟ .. » .

اكتفى بهذا القدر من النقل ، فعلام عرفتم الآن اللسون الذى اضفاد المؤلف على لوحاته التى صور بها شخصية مدام « بوفارى » فى صلاتها بعشيقها ، بل وبزوجها .. كل ما عني به الكاتب هو الصورة البدنية ، الجمال الفاتن ، الاستسلام

.. إذن فقد قدر لها أخيرا أن تعرف مباهج الحب هذه ، وحيى الهناءة تلك التى كانت فى قنوط منها ! .. لقد ارتادت شيئا من تلك المجهال الحافلة بالشهوة ، والنشوة ، والالام .

● وإذن فهى تمجد الخيانة وتتغنى بسقطتها الأولى ! وهذا — يا حضرات القضاة — أشد فى رأى خطرا من السقطه نفسها . كل شيء نافه إلى جانب هذا التمجيد لتلك الزيارات الليلية التى تتوالى بعد هذا الذى حدث بأيام قلائل .. كان « رودولف » يوافيها فى حديقة دارها ، فتتحايل حتى ينساق الزوج ، ثم تتسلل إلى العشيق وقد تجردت من ملابسها ، فيلقها فى معطفه :

« كان برد الليل يضطرها إلى أن يزدادا تلاصقا ، فتبدو التهنيدات المنبثقة من شفاهها أحر من عاداتها ، وتترادى لهما ميونهما أكثر اتساعا .. وفى غمرة الصمت ، كانت تقال كلمات خافتة ، تقع على نفسيهما فى رفين بلورى ، ثم تتذبذب فيهما فى دوائر تطرد اتساعا » .

هل تعرفون حضراتكم لغة أكثر بيانا ووضوحا ؟ هل رايتم صورة أغرق فى الدعارة من هذه اللوحة ؟ استمعوا ايضا إلى هذه العبارات :

« أبدا لم تكن مدام «بوفارى» فى مثل ما بدت فيه من جمال فى تلك الفترة ، إذ أوتيت ذلك البهاء غير المحدد المعالم ، الذى يأتى نتيجة للفرح والتحمس والظفر .. كانت شهواتها ، وأشجانها ، وتذوقها للذة ، وأوهامها الدائمة الصبا ، أشبه بالتربة والطر والريح والشمس إذ تنمى الزهور .. وهكذا أخذت « ايما »

تنمو رويدا ، حتى تفتحت فى النهاية عن كل ما كانت تقمع به طبيعتها .. والفاهة « شارل » شهية ، فثابة ، كما كان العهد بها فى الأيام الأولى لزواجهما » .

إلى هنا — يا حضرات القضاة — بدأ لكم جمال هذه المرأة من خلال قسَمات جسدها وحركاتها وثيابها . لقد بنت لكم سافرة .. لقد عنى المؤلف باظهار بطلته أشد فتنة وأروع جمالا بعد السقطه ، وفى الأيام التى تلتها ، ليبرز شاعريسة الخيانة الزوجية . وإنى اسألكم مرة أخرى : هل سمعتم عن صفحات أكثر خدشا للآداب من هذه الصفحات الداعرة ؟

● إليكم ايضا العبارات المتصلة بعودة الوازع الدينى .. كانت مدام «بوفارى» قد مرضت وأشرفت على الهلاك .. وخيل إليها أنها تحتضر ، فطلبت أن تتناول القربان المقدس . ترى هل تستشعر شيئا مما استشعرته المجذلية النادمة التى يروى الانجيل قصتها ؟ لا ، بل انها ظلت المرأة العابثة التى تنشد العيبث أينما كان حتى فى اسمى الأمور وأقدسها .. فبينما هى فى انتظار القس « أحسنت كان شيئا قويا يمر عليها ، فيستل منها آلامها ، وكل فكر ، وكل حس .. وإذا تخفف جسدها من الفكر ، بدأت حياة أخرى ، فخيّل إليها أن كيائها يرقى صاعدا إلى الله ، حيث يفلأشى فى ذلك الحب ، كالبخور المحترق إذا ما انصهر وصار بخارا » .

بهذه اللغة — يا حضرات القضاة — يعبر الكاتب عن صلاة المرأة المحتضرة . فهل سمعتم قبل الآن عن صلاة يعبر عنها بكلمات الحب والغرام ؟ هل سمعتم عن امرأة فاسقة

يوما ، متدنية يوما آخر ، تنجبه إلى الله بكلمات كالتى ترددها لعشيقتها ؟

وبعد هذه العودة الوجيزة إلى الدين تصبح مدام « بوفارى » مستعدة للسقوط من جديد . انها تذهب إلى المسارح في « روان » . انها الآن تعود إلى ذكرياتها وتفكر : « آه .. لو انها في أوج جمالها قبل ان تعرف لوثات الزواج وصحوات الفسق ، (وهناك من يقولون صحوات الزواج ولوثات الفسق) .. لو انها اعتدت على قلب قوى ، إذن لامتزجت الفضيلة ، والعطف ، والملاذات ، والواجب .. ولما هبطت من سماء سعادة كهذه ! » .

ذلكم هو كلام الكاتب عن « لوثات الزواج » ، وساكشف لكم عن الخيانة الزوجية في أبشع صورها ، فلقد التقى «ليون» و «ايما» عند الكاتدرائية ، وحلبها على ان تنتقل معه عربية . ونحن لا نقرأ الآن وصف وقوع السقطه داخل العربيه المقتله — فقد حذفنا المجلة هذه الواقعة مشكورة — على انها إذا كانت قد اسدلت استار العربيه على ما وقع داخلها فقد فتحت لنا باب الغرفة التى كان يجتمع فيها العاشقان !

« ما كان في الدنيا ما هو أجمل من شعرها البنى وبشرتها البيضاء ، وسط هذا اللون القرمزى — الذى تضفيه الستائر — عندما تنثنى ذراعيها الماريتين في حركة مستحبة ، لتخفى وجهها في راحتيها .. وكأنها خلقت الحجرة الدافئة — يستأجرها السمكة ، وزخرفها البهيج ، وضوءها الهادئ — للخلوات المشبوبة ! » .

• هذا ما كان يحدث في الغرفة . واليكم هذه الفقرة الهامة التى تصور لوحة أخرى من اللوحات الداعرة في القصة :

« ما كان أقوى حبهما لهذه الغرفة الغالية ، المغنية بكل هذه البهجة ، رغم روائها الخايب .. وكان كل منهما ينتشى بقرب الآخر ، حتى ليخالا انها في بيتهما ، وانهما سيعيشان معا حتى الموت كقريين كتب لهما الشباب ابدا .. وكانت إذا ما جلست على ركبتيه ، تتدلى ساقها في الهواء .. » .

إليك أيضا هذه العبارات — وكانت « ايما » قد بلغت حد الاعياء من اللذة : « كانت تنبى نفسها بسعادة بالغة في الرحلة القادمة ، على انها لم تكن تنتظر ان تجد شيئا غير عادى .. ولكن خيبة أملها هذه كانت تتلاشى إذ يشع عليها أمل جديد : فتعود إليه ملتبهة ، ومتعطشة أكثر من ذى قبل ، فتنتزع ملابسها بحركة عصبية ، وتذهب على اطراف قدميها الحافيتين ، لترى مرة أخرى إن كان الباب مغلقا ، ثم تسقط بحركة واحدة كل ملابسها وترتمى على صدره في ارتعاشة طويلة » .

انى اذكر هنا أمرين : فهذه من الناحية الفنية لوحة رائعة ، ولكنها من الناحية الأخلاقية لوحة نابية . أجل أن السيد « فلوير » يعرف كيف يجعل لوحاته بكل ما يتحبه الفن من أدوات التجميل ، ولكن دون أن يتقيد بقيود الفن ! .. ثم اسمعوا هذه الفقرة :

« وأخذت ايما تضيق به ، كما بدا « ليون » يضيق بها ، إذ أخذ يدب في الخيانة الزوجية ما يدب عادة في الزواج كله من فتور » .

فتور الزواج ! وشاعريسة الفسق ! .. أحيانا لوثات الزواج وأخرى فتوره ، ولكن في الحالين : شاعرية الخيانة الزوجية ! تلك هي اللوحات التي يحب السيد « غلوبير » أن يرسمها ، وهو - لسوء الحظ - يرسمها في براعة تامة !

حضرات القضاة .. لقد قصصت على حضراتكم ثلاثة فصول : فصل « رودولف » ، وقد رايتم فيه السقطعة في الغاية وزهو الزوجة العابثة بها ، ورايتم تهجد الفسق وكيف أن الكاتب يصفى على الزوجة الفاسقة مزيدا من الجمال بعد السقطعة . ثم تحدثت عن عودة الوازع الديني وكيف صاغ الكاتب صلاة المحتضرة في كلمات مستعارة من لغة الخيانة الزوجية . وأخيرا تكلمت عن السقطعة الثانية وسردت عليكم ما حدث مع ليون . واطلعتكم على ما وقع في العربة المقتلة ، وقد حذفته المجلة . ورايتم حضراتكم ما جرى داخل الغرفة . والآن ونحن نعتقد أن عقيدتنا قد تكونت ، ننتقل إلى الفصل الأخير ، فصل العذاب .. ويلوح أن المجلة حذفته منه عبارات كثيرة . وإليك العبارات التي يشكو بها السيد « غلوبير » من هذا الحذف :

« رأيت المجلة لأسباب لديها أن تتناول بالحذف بعض العبارات في عدد أول ديسمبر والعدد الحالي . وإنى أبرئ نفسي من هذه التبعة وأرجو من القارئ ألا يعتبر هذه الفصول أكثر من أجزاء متنافرة وأنا ليست بحال كلاما متناسكا » .

● نمر إذن بهذه الأجزاء ونصل إلى الموت .. فان « أيما » تتناول السهم .. لماذا ؟ « الموت .. أنه شيء بسيط .. سأنام

وينتهي كل شيء » ، ثم تطلب أن يصلى عليها صلاة الموتى ، دون أى أسف لما صدر منها أو للانتحار .. ودون اعتراف بأنامها أو دمة ندم تذرفها .. لماذا تطلب الصلاة وهي تعتقد أنها إنما تذهب إلى العدم ؟ .. ثم يأتى مشهد الصلاة ، وما ادراككم ما مشهد الصلاة :

تعرفون حضراتكم أن هذه الصلاة تظلى مصحوبة بهمسح الجبهة ، والأذنين ، والفم ، والقدمين ، بزيت المسحة ، مع تلاوة عبارات معينة تنم عن وجود الخطايا والآثام في ناحية . والرحمة والغفران في الناحية الأخرى .. فإذا لم تمن بايراد الكلمات بحروفها فلزام عليك في القليل ألا تمزجها بكلمات تأخذها من صور اللذائذ والشهوات الجنسية . ومع ذلك ، فقد قال الكاتب بصدها :

« ادارت وجهها في رفق ، وبدا كأن فرحة تغبرها لرؤية الكاهن منجاة بجوارها ، لا شك أنها وجدت في هدوء النفس غير العادى السعادة المضيعة التي استشعرتها في أيام تدينها الأولى . ورؤى السعادة الأبدية التي بدأت تستمتع بها .. وقف الكاهن ليقدم لها الصليب ، فاقتربت منه في تعطش ، وطبعت - بكل قوتها المتداعية - على رمز الإنسان الإله قبله حب لم تعرفها من قبل . وتلا الكاهن الصلاة ثم وضع إيهامه الأيمن في الزيت وأخذ في أداء مراسم المسحة الأخيرة فدهن العينين اللتين طالما استمتعنا بمباهج الحياة الأرضية ، ثم الأنف الذي كثيرا ما طبابت له عطور الحب ، ثم الفم الذي طالما تكلم بالكذب وتأوه صلفا وكبرياء ، ثم اليدين اللتين طالما احسنا بشئى الأحاسيس الأثمة ، والقدمين اللتين كثيرا ما سارعتا

بها إلى حيث تشبع شهواتها ، واللذين لن تتحركا بعد الآن .. » .

وأخذ الكاهن بعد هذه المراسم يتلو صلاة المحتضر ..
« وكلما اشتدت الحشجة أسرع الكاهن في صلاته .. وكان يبدو أحيانا أن كل شيء صامت فيها عدا الكلمات اللاتينية التي كان ينطق بها الكاهن » .

ثم أراد الكاتب أن يخلق ردا على هذه الكلمات ، فاستحدث شخصية رجل ضرير يسير على إفريز البيت مترنما بأغنية كما لو كانت جوابا ل تلك الابتهالات :

« وفجأة سمع وقع أقدام ثقيلة على الإفريز وصوت غليظ ينشد : « حمل دماء النهار الصبية على أجنحة الحب ، واشتدت الريح حتى أطاحت بالثوب » . وفي هذه اللحظة فارقت مدام بوفاري الحياة .. وإذن فالصورة تبدو هكذا : صلاة المسحة الأخيرة تتلى في غرفة المحتضرة ، وفي الناحية المقابلة عازف يثير عند المحتضرة ضحكا قاسيا يائسا إذ تتخيل مرأى الرجل الدميم يبدو في ظلمة الأبدية شبحا مخيفا .. ثم انتفضت وهمدت على فراشها .. وفارقت الحياة .

نحن أمام الجثة الهامدة .. ويحىء الزوج منتحبا ويسدل الغطاء على وجه الراحلة . في هذه اللحظة التي يخضع فيها كل إنسان أمام رهبة الموت يخط السيد فلوير آخر خطوط اللوحة : « يهبط غطاء الفراش من عند ثدييها حتى ركبتيها ثم يرفع عند أخمص قدميها » .

ذلكم هو مشهد الموت ، اختصرته لحضراتكم ، ولكم أن تحكموا فيها إذا كانت هذه الصورة مزجا للأشياء المقدسة

بالأشياء المدنسة ، وللطهر باللذة الآثمة .. أم أن الأمر ليس كذلك ؟ !

● والآن وقد رويت لكم القصة بحذافيرها ، وحللتها تحليلا وافيا ، واتهمتها اتهاماً صريحا ، إليكم القسم الثاني من مرافعتي : في جميع الصور التي عرضتها على حضراتكم ، والتي تصف عبث مدام بوفاري وعلاقتها بأشخاص لم يكن يحل لها الاتصال بهم ، في كل هذه الصور وجدت ولمست خدشا للآداب العامة ومساسا بالدين .. أما عن خدش الآداب العامة : فهلا ترونه يا حضرات القضاة في السقطة مع رودولف ؟ ألا ترونه في تهجيد الخيانة الزوجية ؟ ألا ترونه على الأخص في ما جرى مع ليون ؟ .. أما المساس بالدين فاني أجده في السقطة الأولى ، وفي كلام الكاتب عن عودة الوازع الديني ، وأجده أخيرا في مشهد الموت الذي تختتم به القصة .

أمامكم - يا حضرات القضاة - ثلاثة متهمين هم : السيد « فلوير » - المؤلف - والسيد « بيشا » ، الذي قبل الكتاب .. والسيد « بيليه » - الذي طبعه - وفي هذه القضية تتعذر الجنحة إذا لم يكن هناك نشر . ولهذا فكل من ساهم في النشر يجب أن يلقي عقابه . وأبادر فأقول إن المسئول الأول هو السيد « فلوير » الكاتب الذي تبهوه إلى حذف بعض العبارات من قصته فاحتج على هذا الحذف . ويلي في المسئولية الناشر الذي سوف لا تسألونه عما حذف بل عما كان عليه أن يحذف . ويأتي أخيرا الطابع وهو رجل فاضل ليس لدى ما أقوله في حقه . ولا اطلب منكم سوى أمر واحد وهو تطبيق القانون عليه . أن الطابع يقسم اليمين القانونية ، وعليه أن يقرأ

ما يطبع ، فاذا لم يقرأ فهو مسئول عما يطبع . إنه أشبه شيء بالديديان الأمامي . . إن هو أجاز مرور الجريمة فقد أجاز مرور العدو . خففوا العقاب ما شئتم عن الطابع وخففوه كذلك ما شئتم عن مدير المجلة . أما السيد « فلوير » الذي يقع على كامله أكثر عبء الجريمة فينبغي تشديد العقاب عليه إلى أقصى حد .

● أما وقد فرغت من مهمتي كممثل للاتهام ، فعلى أن أقدر ما ينتظر أن تدفع به التهمة وأرد عليه من الآن . سيقال دون شك إن القصة أخلاقية بدليل أن الخيانة الزوجية قد عوقبت . وأجيب على هذا القول أولا بأنه إذا كانت خاتمة القصة أخلاقية فرضا فإن هذا لا يعفى الكاتب من إثم الصور الداعرة التي حوتها القصة ، وثانيا إن القصة ليست أخلاقية في موضوعها بأي حال . ولا يمكن أن تبرر الخاتمة تفاصيل القصة . ليس الذين يقرعون ما يكتبه السيد « فلوير » هم رجال الاقتصاد السياسي ، وإنما هم فتية سريعو التأثير يقرعون ، وهم أحيانا فتيات أو نساء متزوجات ، وإذا ما تأثر الخيال وتحدث القلب إلى الشعور ، افتظفون حضراتكم أن التفكير العمدى يمكن أن يقاوم هذا الانفعال ؟ . . . وعندى رد ثان : أن قصة « مدام بوفاري » ليست أخلاقية ، إذا نظرنا إليها من الزاوية الفلسفية . . حقيقة إنها تموت بالسم ، وبعد أن تتألم كثيرا ، ولكن لا يفوتنا أنها لم تمت لأنها كانت امرأة غاسقة ، وإنما لأنها أرادت لنفسها أن تموت . وهى تموت في شرح شبابها وأوج جمالها . . تموت بعد أن عبثت بالفضيلة مع

رجلين ، تاركة زوجها يحبها ويعثر بعهد موتها على خطابات عشاقها فيزداد حبا لها وهى في عالم الغيب . . هل توجد في القصة شخصية حكيمه تنهى مدام « بوفاري » عن فحشها وتذود عن حياض الفضيلة ؟ لا توجد مثل هذه الشخصية . والكتاب خلو تماما من كل مبدأ أخلاقى يؤم الخيانة الزوجية .

● هل يدان الكتاب باسم الشرف الزوجى ؟ . . ان الشرف الزوجى يمثل - في الكتاب - زوج ضعيف الشخصية ، مطواع لاهواء زوجته ، لم يثر في أية لحظة على الفحشاء . . زوج يلقي « رودولف » بعد موت زوجته فيبحث في قسماات وجهه عن صورة المرأة التى احبها ! . . أم يدان الكتاب باسم الراى العام ؟ إن الراى العام فى القصة يمثل ذلك الصيدلى وأولئك الأشخاص المضحكون الذين يحيطون به والذين تسيطر عليهم جميعا مدام « بوفاري » . . إذن ، فهل يدان باسم الشعور الدينى ؟ إن الشعور الدينى يمثل فى الكتاب شخصية الكاهن ، وهو شخصية لا تفضل شخصية الصيدلى . . هل تدبونه باسم شعور المؤلف ؟ لست اعرف ما هو شعور المؤلف ، وإنما أقرأ فى القسم الفلسفى الوحيد من الكتاب هذه العبارة : « تعلمونا الدهشة دائما كلما مات أحد الناس ، ذلك لأنه يصعب علينا كثيرا فهم مجئ العدم والاقتناع بحقيقة ذلك » .

إنها ليست صرخة إلحاد وإنما هى صرخة شك . . أم هذه الدهشة التى تبدو عند الموت ؟ . . لأن الموت سر غامض يصعب فهمه والحكم عليه ومع هذا يجب التسليم به . وأتأ

أقول انه إذا كان الموت هو مجيء العدم ، وكان الزوج يزداد حبا لزوجته إذ يعلم بخيانتها ، وكان الراى العام ممثلا بأشخاص مضحكين ، والفكرة الدينية ممثلة بذلك الكاهن المادى ، فان « أيما بومارى » هى الحققة وحدها ، وهى الشخص الوحيد الذى يسود الموقف .

تلك هى النتيجة الفلسفية التى تستخلص من الكتاب . لا كما يستخلصها المؤلف بل كما يستخلصها رجل بحث وتعمق الأمور ..

● لكل شئ تفسير فى الآداب المسيحية التى تسود الحضارة الحديثة . هذه الآداب تؤمن الزنا ، لا لأنه سراب وأوهام يصحو منها الإنسان نادما آسفا . وإنما لأنه جريمة ترتكب ضد الأسرة . . ونحن ننهب الانتحار لا لأنه عمل جنونى ، وإنما ننهبه لما ينطوى عليه من جبن ومن امتهان للواجب ، ومن انكار لحقيقة الحياة بعد الموت .

أن الآداب المسيحية تنبذ المؤلفات الواقعية ، لا لأنها تصف شهو البغض أو الانتقام أو الحب ، فان الحياة تدور حول هذه جبيما ، وينبئى للفن أن يصفها . ولكن عندما يصفها الفن غير ملتزم حدودا أو قاعدة ، لا يكون فنا وإنما يكون أشبه شئ بامراة تتجرد من كل ملابسها !

مرافعة الدفاع

● حضرات القضاة : السيد جوستاف فلوير متهم أمام حضراتكم بأنه ألف كتابا فيه خدش للآداب العامة ، ومساس

بالدين . . انه يقف إلى جوارى مقررا أن الكتاب الذى ألفه ينطوى على فكرة اخلاقية ودينية . لقد سمعتم منذ لحظات تشويها لهذا الكتاب ، ولكنكم — عندما يزال هذا التشويه — ستلمسون الفكرة على حقيقتها كما لمسها الذين قرعوا هذا الكتاب . وهى فكرة تقوم على تقديس الفضيلة عن طريق كشف سوء الرذيلة . . .

لقد تعمق السيد « فلوير » فى دراسته ، فلم يقتصر على دراسة الأدب بل درس الحقوق أيضا . . انه ليس بالرجل الذى يقنع بملاحظة البيئة المحيطة به ، بل الرجل الذى يستجوب بينات أخرى . لقد زار إيطاليا . ومصر ، وفلسطين ، وآسيا الصغرى . واغترف من مناهل هذه البلدان شاعرية كانت له غذاء روحيا ، ومثيلا لا يتضب من المعرفة . والنصور التى تجمعت فى ذهنه من زيارته لتلك الأقطار هى التى صنع منها اللوحات الفنية التى ضمنها مؤلفه . . فقد عاد السيد « جوستاف فلوير » من رحلته فى سنة ١٨٥٢ ، وعكف على تدوين النتائج التى حصل عليها من تلك الرحلة . ترى ما هو الاطار الذى اختاره ، وماذا كان موضوع بحثه ؟ . . أن موكلى لا ينتهى إلى اية مدرسة فلسفية من المدارس التى اثارته إليها النيابة . لا . . . انه ينتهى إلى المدرسة الواقعية ، من حيث انه يتشبث بواقعية الأشياء . وقد يقال أنه ينتهى إلى المدرسة الروجانية ، من حيث إنه قلما يعنى بالجانب المادى وإنما يعنى أكثر ما يعنى بالشعور الإنسانى وارتقاء الانفعالات عند البينات التى مر بها . بل إنه ينتهى على الأصح إلى المدرسة العاطفية . . . والذى قصده فى الواقع من مؤلفه هو

إبراز صور حية يأخذها من البيانات الوسطى . فهو يختار يضع شخصيات يصف بها أشياء من واقع الحياة . قالت النياية عند تلخيصها لموضوع الكتاب أنه يمكن إعطاؤه عنوانا يطابقه هو « قصة خيانات زوجة من الأقاليم » ، وإنى احتج احتجاجا صارخا على هذا العنوان . والصحيح إذا أردنا إيجاد عنوان آخر أن نقول إنه قصة القرية التي كثيرا ما تلقن في الأقاليم . . قصة الأخطاء التي يمكن أن تؤدي إليها هذه القرية . . أو قصة الانتحار كثيرة لزللة أولى . . زلة ترتبت على أخطاء تسبقها ، من تلك الأخطاء التي كثيرا ما تنزلق إليها أية فتاة . . هذا ما أراده السيد « فلوير » ، كما سنرى عندهما قلب معا صفحات الكتاب المطعون فيه .

● انصرف هم ممثل الاتهام إلى إبراز ما اسماه باللوحات الداعرة في القصة . ولو أنى أحصيت العبارات التي اقتطنها من القصة بالقياس إلى السطور التي تركها ، لكانت النسبة واحدا إلى خمسمائة .

والآن ، ما الذي أراد مسيو فلوير أن يصفه ؟ . . لقد أراد أن يتحدث عن امرأة تلقت ثقافة أعلى من مستواها ، فلما جاء الزواج ، لم يراع أن يكون ملائما للثقافة ، وإنما روعيت ملائمة للظروف التي ولدت فيها الفتاة . . وشرح الكاتب كل ما يترتب على هذا الوضع . . وماذا يعرض أيضا ؟ أنه يصور امرأة تنساق — نتيجة عدم التكافؤ في الزواج — إلى الرذيلة . . رذيلة من أخط وأنعس درجة . . ولسوف أسألكم عندهما أفرغ من تعريفكم بالكاتب : هل هذا الكتاب ، إذا

ما قرأته فتاة ، يدفعها إلى الرذيلة أم يحذرهما ويصمهما فلا تقدم على أية خطوة قد تؤدي بها إلى مثل المصير الذي لقيته « مدام بوفاري » ؟ !

أراد المسيو فلوير أن يروي قصة امرأة كان عليها أن توائم بين حالتها وحال زوجها الطبيب الريفى وأن تطرح ظهريا ثقافتها التي تعلم ثقافة زوجها . ولكنها بدلا من هذا أطلقت لخيالها العنان وانساققت وراء الأوهام ، فراحت تنشد حياء أرقى في امكنة أخرى غير بيت الزوجية . . لقيت شابا واتصلت به وكان الاثنان من حداثة السن بحيث لم يتوفر لهما من الخبرة بالحياة ما يقبهما الفتنة . . وهى إذ ترجع إلى تربيتها الدينية في الصغر لا تجد فيها ما يقوى روحها ويرتفع بها عن الدرك الذي هوت إليه . . وتلتقى هذه المرأة بعد سقطة أولى ، برجل آخر من هؤلاء الرجال الذين نصادفهم بكثرة في المجتمع فيعيب بها ويمرسلها على صنوف الرذيلة .

اشتد غضب النياية مما ذكره الكاتب عن انطلاق المرأة من سجنها ، وعن الثغبلة التي استشعرتها عقب السقطة الأولى . والواقع أن هذا احساس طبيعي لم يكن للمؤلف بد من أن يصفه كما هو . وهو بعد هذا الوصف بسطور قلائل ، يصف رد فعل هذا الاحساس فيقول : « انها تبدو في نظرس نفسها مهينة ذليلة » .

أجل انها تستشعر على الفور خيبة الأمل والألم ، ووخر الضمير . ان الرجل الذي استسلمت إليه إنما استحوذ عليها لإشباع شهوة عارضة . . لقد صدمتكم عبارة « الصخرة من الفسق » وأنتم تؤثرون عليها عبارة « لوثة الفسق » ولكن

الكاتب الذى يريد ان يصف امرأة تخون عهد الزواج ، وتتشدد النعيم بعيدا عنه ، يكون محقا إذا عبر عن هذا المعنى بعبارة « لوثة الزواج » .

وهناك ايضا نقطة اود ان اوجه إليها انظاركم بنوع خاص وهى ان السيد « غلوبير » يتبع دائما خطوات الخيانة الزوجية بالآلم وتبكيت الضمير ، وهو يجعل العقاب سريعا لا يطول انتظاره . فليس ثمة اوقات تستمع فيها المرأة طويلا بالمع المحرمة .. وإنما هناك جزاء صارم يتبع السقطعة . وقد قال أحد المعجبين إنه إذا كان هناك ما يلام عليه مسيو غلوبير فهو انه جعل العقاب غاية في الصرامة .. لقد كتب هذا الكتاب بمقدرة فائقة ، مبنية على الملاحظة .. مقدرة شهد بها مثل الاتهام وهى بادية في كل سطر من سطره ... فابرز ما في الكتاب هو الأمانة التى توخاها الكاتب في وصف ما يفتعل في القلب . ولو ان الكاتب لم يتوخ هذه الأمانة لجاز القول بأنه استعجاب وصف مشاهد الانحطاط ببراعته البنية على الملاحظة والوصف .. لكنه عنى بحياة « ايما » في مختلف مراحلها . عنى بطفولتها وتربيتها في الدير ولم يترك شيئا .. إن الذين قرءوا الكتاب من أوله إلى آخره يقولون : إن السيد غلوبير عندما يصل إلى المشاهد الصعبة لا ينحو منحى كتابنا الاعلام الذين يصفون الصلات الجنسية وصفا مفصلا ، بل يكتفى بكلمات عابرة . ولعل هذا جدير بإقصائه تماما عن مواطن الاتهام . هنا تختفى كل براعته في الوصف ويحتجب سحر أسلوبه لأن فكرته بريئة . فهو يتورع عن الإطالة والتبسط .. وعندما أطلعكم على ما كتبه في مثل هذه الموضوعات فلاسفة

عظام نجلهم .. فسوف ترون ان الاتهام لا يقوم على أى أساس . لقد وصف السيد « غلوبير » « ايما » في طفولتها فتحدث عن مرحها ولعبها .. فهل إذا وصف ما جرى لها فيها بعد من تلوث ، يقال له قف ولا تخض في هذا . ان الصورة تفقد كل واقعيته إذا اقتصرنا على وصف الجاني الاخلاقى من القصة .. إذا حذف منها حديث الخطأ والخطر والتردى وما يعقبه من عقاب .

● ومن عبارات التقدير العديدة التى ابدتها بعض كتابنا : تقدير من شخصية عظيمة نجلها لآثارها الادبية الرائعة ولعفة أسلوبها ونقاء مؤلفاتها جميعا . هذه الشخصية هى « لامارتين » . ان « لامارتين » لا يعرف موكل . ولكنه قرأ القصة في أعداد المجلة التى نشرتها .. وقد حضر منذ بضعة ايام إلى باريس قادما من منزله الريفى ، فكان أول ما عمله أن اوفد سكرتيره إلى إدارة المجلة ليحصل على عنوان السيد « غلوبير » ، ثم عهد إليه أن ييلفه صادق تقديره لعمله الرائع واعجابه به كمؤلف ناشئ ، ورغبته في أن يراه . ذهب إليه موكل ، فلم يلق منه الثناء والتشجيع فقط ، بل قال له : « لقد اتحت لى تحفة ادبية لم يقع فى يدي مثيل لها منذ عشرين عاما » . وقال « لامارتين » للسيد غلوبير : « اتنى الويك على الصفحات الأخيرة ، فقد جعلت عقاب الخيانة الزوجية شديدا أكثر مما ينبغى . لا شك ان المرأة التى تفسد نراش الزوجية يجب أن تلقى عقابا صارما ، ولكن العقاب الذى جئت به كما مرعبا حقا . لقد اسأت إلى اعصابى فقد كانت أيام الساعة

الآخيرة فوق ما يطاق سماعه . » وعندما سأله مسيو غلوبير
 عما يرى في أمر تقديمه للمحاكمة بتهمة خدش الآداب العامة
 والمساس بالدين قال : « أظن أنني في كل مؤلفاتي قد أدركت
 ما هي الآداب العامة والدين ، كما لم يدركها رجل آخر . وأنا
 اعتقد يا بني أنه لا توجد في فرنسا محكمة يمكن أن تدينك . »
 هذا ما حدث بالأمس بين « لامارتين » و « فلوبير » ، ومن حقى
 أن أقول لكم إن هذا التقدير يستحق أن تزفوه وأن تكون له
 عندكم قيمته الحق . .

● والآن ، كيف كان هذا الكتاب موضع محاكمة ؟ كانت
 لجنة القراءة في المجلة التي نشرته تباعا ، قد تسلمت نسخة
 مخطوطة من الكتاب قبل نشره بزمن ، فلم تجد فيه مطعنا .
 وعندما وصلت إدارة المجلة إلى القسم الذي كان مقررا نشره
 في عدد أول ديسمبر سنة ١٨٥٦ ، ثار أحد مديريها على مشهد
 اجتماع « ايما » بـ « ليون » في العربية المقفلة ، وقرر حذفه .
 واعتبر « فلوبير » أن في هذا الحذف إساءة له ، واشترط إثبات
 ذلك الحذف في الهامش ، حفظا لكرامته كيؤلف وحرصا منه
 على ألا يشوه كتابه .

كانت الفقرات التي يراد حذفها تحدثت عن ذلك اللغاء
 الذي تم عند الكاتدرائية ، وصعود « ايما » بشبه ضغط من
 « ليون » إلى العربية المقفلة ، وإسدال أستار العربية ،
 والنزهة التي طال أمدها . . وذلك الصوت من داخل العربية
 يأمر السائق — كلما توقف — بأن يواصل السير . وكان
 السائق لا يفهم لماذا يريد الراكبان مواصلة السير . . وإنما

كانت تطرق سماعه بين حين وآخر صيحات غضب . ولكنه لم
 يكن يلتفت إليه لما يحدث ، إذ أعياه التعب والعطش والضيق
 . . وهكذا ، حتى يصل السباق إلى وصف مبارحة « ايما »
 للعربة وقد استنشعرت في نفسها ذلة الخضوع الذي
 تستشعره كثير من النساء كعقاب وثمن في وقت معا للخيانة
 الزوجية . .

ولم تكن إدارة المجلة موفقة أى توفيق في حذف هذه
 العبارات . . فقد كان يجب أن يتناول الحذف كل حديث عن
 العربة والإغواء بغير معنى . . وكل ما نتج عنه هو تنبيه
 المختصين في مكتب مراقبة النشر إلى احتمال وجود أمر محظور .
 ومن هنا كانت القضية . غلست اغالى إذن إذا قلت إن القضية
 إنما نشأت من هذا الحذف غير الموفق .

قالوا في مكتب مراقبة النشر : يجب التحرز مما سينشر
 في الأعداد التالية . إن هؤلاء الموظفين لم يعنوا بقراءة كل
 شيء ، فلما عرفوا أن شيئا كتب عن امرأة تجردت من كل
 ملابسها ، ثاروا دون أن يطلعوا على ما يلي هذه العبارة . .
 لم يقل « فلوبير » شيئا مما يقوله شعراؤنا وكتابنا الآخرون في
 وصف الذراع الرخامى والبشرة الناعمة وفي وصف الخدع وما
 إليها — على أنه قال : « إنها استسلمت . . فسقطت ملابسها » .

هذه العبارة من العبارات التي يستند إليها الاتهام . أفيريد
 الاتهام أن يحظر كل وصف ؟ ثم أن العبارة لا تقف عند النقطة
 التي وقف عندها ، بل هناك بقية تكملها : « على أنه كان فوق
 هذا الجبين المغطى بقطرات باردة ، وعلى هاتين الشفتين
 الملطمتين ، وفي هاتين العينين الغائرتين ، وهاتين الذراعين

المشودتين إحداهما إلى الأخرى ، شيء غامض ، محزن ، خيل لليون أنه ينساب بينهما في رفق ليواعد بينهما » .. هذه العبارات لم تقرا في مكتب مراقبة النشر ، والنيابة في مراقبتها لم تلق إليها بالا ..

● تقول النيابة أننا وصفنا هذه المرأة بالدعارة في مختلف ادوار حياتها ، والواقع أننا قلنا عنها انها ولدت في الريف ونشأت في مزرعة ابوها حيث كانت تعنى بكل شيء . لقد صورناها في المكان الذي شاء ابوها ان يضعها فيه ، وهو الدير الذي تولى تثقيفها كفتاة ريفية .. كان مصيرها ان تظل ريفية وان تتزوج من ريفي . تحدثتم يا سيدي النائب عن هفواتها الصغيرة التي كانت تذكرها للكهنة عندما تذهب لكرسي الاعتراف ، وتسبتم علينا الخطا فيما قلناه بهذا الصدد . والحقيقة ان الخطأ من جانبكم انتم . لقد ادخلت الفتاة الدير .. وهنا نقطة هامة اراد الكاتب ان يبرزها وهي تتصل بالدين . إن للنشر دينا خاصا بهم يلقي لهم وهو في رأي أسوأ الأديان . إني أؤمن بأنه لا شيء يمكن أن يشد من أزر الإنسان في الضائقات والشدائد ويرتفع به في الملمات سوى الدين . واريد ابنائي ان يعرفوا الله .. الله في بساطته ، يتوجهون إليه بالصلاة ويفضون إليه بحاجاتهم ، وهذا ما يفعله الدين المسيحي . وهو أيضا يجعل بين الناس والخالق وسطاء ، تيسرا للتواصل بينهم وبينه ، كالعذراء . وأست أرى في هذا ضميرا على الطهر والقداسة . وإنما الذي اراه ضارا هو تلك الصور وتلك الايقونات والتماثيل الصغيرة التي كثيرا ما تكلف

بها عقول الصبية ، والصبيات على الخصوص ، فتحدد بها فكرة الدين وتنحصر فيها . وبذلك يستحدثون لأنفسهم دينا ضيقا . وبدلا من التوجه إلى الله بالصلاة يألّفون العبادات الصغيرة وتوافه الأفكار الدينية التي تجعلهم يعيشون في عالم من أحلام اليقظة ، ثم تأتي شاعرية الدين فيسمع الأحداث أحاديث عن العطف والحب وتأثر عقليتهم الغضة بمثل هذه المشاعر ويرون الدين وكأنه طائفة من الأحاسيس .

والذي اراد مسيو غلوبير أن ينبه إليه ويحذر منه هو تلك الصفائر التي يألّفها الأحداث من التربية الدينية السائدة :

« كانت الصبيبة قد قرأت بعض الكتب واستهمت إلى سبتي الأحاديث الدينية التي كانت تلقى في الدير على مدى الأسبوع وتأثرت بها . وكانت تريد ان تخلص منها بفوائد شخصية لها » .. ترون الآن كيف احتاط الكاتب في إدخال تلك الفتاة إلى الدير .. « كانت تعرف بعض الأغنيات القديمة وترددها بصوت خافت وهي تغرس إبرتها .. وكانت تحتل دائما بعض الروايات تقرا منها غقرات في أوقات الراحة التي تتخلل عملها » .. والحق ان هذا يدعي من الكاتب الذي يريد ان يكشف عن اخطار مثل هذه التربية .

« ... ولما بلغت الخامسة عشرة كلفت بقراءة عدة مؤلفات في التاريخ .. وعرفت منها الكثير عن سلوك بعض الشخصيات التاريخية وانحرافاتهما .. وفي فصل الموسيقى عرفت الموسيقى الملهبة » .

● كيف لم تذكروا كل هذا عندما تعود هذه الفتاة الريفية

إلى المزرعة ويتفق لها أن تتزوج من طبيب قرية وأن تدعى لحفلة ساهرة قصيرة ؟ ورحتم تقولون أن الرقص الذي رقصته في السهرة هو إحدى الصور الداعرة ! .. ليس اللسوم على الوصف ، وإنما لوموا إذا شئتم رقصه « الفالس » التي يرقصها الناس في مراكض الحديثة .. هذه الرقصة في الواقع ليس بيننا من لا يريد أن يصد زوجته أو بناته عنها ، لما فيها من دواعي القلق على العفة والطهر . فهل تلومون مسيو فلوبير إذا وصفها وصفا صحيحا لتبنيه الإباء والأمهات إلى ما فيها من خطر خلقي ؟

ثم هذه فنانا قد أصبحت زوجة . يقول السيد النائب : ترى هل حاولت أن تحب زوجها ؟ .. انت يا سيدى لم تقرا الكتاب ولو أنك قرأته ما أبدت هذا الاعتراض . ان الكاتب يقول في صفحة ٣٤ ان هذه المرأة كانت أول الأمر حاملة شاردة الفكر . وهناك أيضا ما هو أكثر دلالة على هذا المعنى وإنى أرجوكم هنا أن تتابعوا معى القراءة في صفحة ٣٣

«لقد برح بها الحزن والألم لموت أمها .. وطلبت في رسالة لها إلى (برتو) - مليئة بالانفعالات الحزينة - أن تدفن بعد موتها إلى جوار أمها .. واستشجرت « ايما » الرضى عن نفسها لوصولها بهذه السرعة إلى الشعور بتفاهتها ، واسترسلت في آلامها متألمة في موت الطيور وسقوط أوراق الشجر ، وفي أولئك العذاري الصاعدات إلى السماء .. وأخيرا ادعشها أن تجد نفسها مطمئنة وأن ترى الكآبة تفارقها » .. بهذه العبارات أرد على ما قاله الاتهام من أن بطلة القصة لم تبذل أى جهد لكى تحب زوجها .

النباة : لم أقل هذا وإنما قلت انها لم تغلح في ذلك . الدفاع : إنى آسف يا سيدى .. لقد حسبت أنك قلت هذا ، وإذا لم تكن أدبت هذا النقد فهذا خير جواب يمكن الإجابة به ، وبهما يكن من أمر فهذا ما أقرأ في نهاية صفحة ٢٦ « ومع ذلك فقد ظلت تحاول أن تقنع نفسها بأنها تحبه وفقا للنظريات التي كانت تؤمن بها .. كانت تردد على مسبعه - في الحقيقة ، وفي ضوء القمر - ما كانت تحفظه عن ظهر قلب من الشعر الملتهب وتغنى له - وهى تنتهد - بعض الألحان المشجية .. بيد أنها كانت تجد نفسها بعد ذلك ساكنة العواطف ، كما ان « شارل » لم يكن يبدو أكثر حبا ولا انفعالا مما كان قبل الشعر والغناء .. واقنعت في النهاية بأن عاطفة زوجها لا تتأجج في نفسه ! »

● والآن يبدأ الخطر . تعرفون حضراتكم كيف تربت وكيف تثقت . وإنى أرجوكم بالإحاح أن تذكروا ذلك الآن ولا تغفلوا لحظة عن تذكره .

ما من أحد قرأ الكتاب إلا وقال إن السيد فلوبير فنان بارع ورجل ذو قلب كبير في وقت معا ، إذ أنزل في الصفحات الست الأخيرة كل السخط والاحتقار على المرأة ، ووجه كل الاهتمام إلى الزوج . إنه فنان أيضا لأنه ترك الزوج إلى آخر القصة كما هو : رجل طيب تافه يؤدى واجبات مهنته ويحب زوجته حبا جما ولكنه قليل الثقافة مجرد من كل سمو في التفكير . وهو عند سرير زوجته المحضرة ، الرجل نفسه الذى كانه من قبل . لماذا ؟ لأنه الرجل الذى أدى واجبه بينما

خانت الزوجة العهد وأخلت بالواجب . كان موته جميلا ومؤثرا ، قدر ما كان موت الزوجة كريها وبشعا . لقد عنى المؤلف بأن يترك على جثة الزوجة آثار القىء الذى سببه السم والذى لطح الأكفان البيضاء التى ستلف فيها ، وأراد أن يجعل من هذا المشهد أمرا تقشعر له النفس .

إن السيد « فلوير » يبرز دائما سمو الزوج إلى جانب تردى الزوجة . سمو الرجل الذى يؤدى واجبه كاملا وتردى المرأة التى تخون العهد وتخل بالواجب .

ينعى السيد النائب على المؤلف أن وخز الضمير فى القصة لا يلى السقطة مباشرة . فالبطلة تردد بعد السقطة فى زهو وخيلاء : « إن لى عاشقا .. إن لى عاشقا ! » . والواقع أنه لو سار المؤلف على النهج الذى تريده النيابة لجانب الحقيقة . فالكأس ما تزال على الشفتين ، ولم يبلغ شاربها الثمالة ، فكيف تريدونه أن يستشعر مرارتها ؟ .. قد يكون من الأخلاق أن يتبع الكاتب أسلوب النيابة ، ولكنه فى هذه الحال يجافى طبيعة الأمور .. لأن الشعور لا يتنبه فى أعقاب الزلة الأولى وإلا ما ارتكبت . أجل أنها لحظة النشوة التى تنحدر منها المشاعر الإنسانية . على أن هذه النشوة لا تدوم طويلا . فهل راجعتم الصفحتين ٤٢٤ و ٤٢٥ ؟ أرجو أن تراجعوا أيضا صفحة ٤٢٨ .. « لم يبد بعد على العاشق شعور الضجر ومع هذا غهى منذ الآن تشعر بالخوف والضجر . إنها تفحص وتنتظر ولا تريد بحال ترك « رودولف » .. إن شيئا أقوى منها كان يدفعها نحوه إلى حد أنها حينها ذهبت إليه فجأة فى أحد الأيام

عيس كأنها هو يضيق بها » .. « زادت مخاوفها من ناحية « رودولف » وملكت عليها مشاعرهما .. ولكن رودولف قد أصبح ضرورة من ضرورات حياتها وهى تخشى أن تفقد منه شيئا .. وعندما كانت تعود من عنده كانت تلقى على كل ما حولها نظرات قلقة » .

ترون حضراتكم أنها لم تكن مخدوعة ، وأنها تشعر بأن فى الجو شيئا مما لم تكن تحلم به .. اقرءوا هذه الفقرة :

« وبدا لها كأن حب رودولف يتلاشى كما يتلاشى ماء النهر يمتصه مجراه شيئا فشيئا . إنها الآن ترى الوحل غير أنها لا تصدق عينها .. ضاعفت علائم حبه له ، ولكن كلفه بها كان يقل أكثر فأكثر .. انقلب الشعور بمذلة الضعف شعورا بالضعف نحو رودولف ، ولم يكن يخف من غلواء هذا الشعور سوى ما بقى بينهما من لاذئ الهوى . لم يعد ثمة تعلق يربطها به وإنما غدا الأمر مجرد إغراء وخداع دائم . كان يخضعها لسيطرته وكانت هى فى خوف ووجل من ذلك » . وأنت تخشى يا سيدى النائب أن تقرأ الفتيات هذا .

إما أنا فلا أخشاه . أن الذى يخلص من هذه الفقرات يمكن تلخيصه فى نصيح يسديه أب إلى فتاته فيقول لها : انظرى يا بنيتى . إذا لم يكن لك من تربيتك وخلقك ودينك ما يدرك عنك غائلة الفجوة ، فتبصرى وتأملى ذلك الازدراء والاحتقار ، وتلك الآلام وخيبة الرجاء التى تنتظر المرأة حين تنشد السعادة خارج بيتها . تلك هى الصورة التى افرغ فيها مسيو فلوير نصحه للفتيات . أنفيسركم هذا ؟

● لنواصل السير في طريقنا . ها نحن نبلغ الصحو من الأوهام وما يصحبه من أحداث . انكم تعترضون على صلاتها يليون ، ولكن هذه الصلات ستكلف مدام « بوفاري » عبا قليل ثمنا غاليا . لقد نشدت سعادتها بعيدا عن الواجب الزوجي ، فلم تجد سوى المهانة والذل واليقتلة من الأوهام . ترى هل من مزيد لهذه الإهانة ؟ لا ، بل إنها مهانة تفوق كل وصف !

وتقول لروودولف انها تختنق وإنها لم تعد تطيق البقاء في منزل الزوجية الذي لوثته بعارها وتهيب به أن ينتزعها من زوجها . ولكنه يقيم لها دليلا جديدا على انانيته . فيرفض ما تعرضه عليه . ثم تلحف في الرجاء فيقبل ، ثم يأبى من جديد ويرسل لها في اليوم التالي بخطاب يصدمها بل يصعقها . هل يمكن أن تعيدها هذه الآلام إلى صوابها فتنبيه إلى واجبها ؟ ولكنها في هذه الآونة تلقى الفتى الذي عيشت معه وقت ان كانت تعوزها التجربة والاختيار .

● انتقل الآن إلى الكلام عن تهمة المساس بالدين . المساس بالدين ، في أي شيء ؟ لقد حسب السيد القائب مسبو « فلوبير » من اهل الإلحاد ، ولسنا هنا في مقام التحدث عن العقيدة الدينية ، وإنما امامنا كتاب نتفحصه لنرى هل من طعن يوجه إليه ام هو كتاب اخلاقي مفيد . وإني اتحدى الاتهام أن يدلني على شيء بين دفتيه فيه مساس بالدين . رابتم حضراتكم كيف دخل الدين في تربية « ايمبا » ، وكيف شوهدت الآراء الدينية التي كانت تدرس لها بحيث لم تسعفها ، ولم تسندها ، ولم تمنعها من التردى في الرذيلة . تريدون ان

تعرفوا بآية لغة يتكلم السيد « فلوبير » عن الدين ؟ إليكم هذه السطور القلائل التي سألوها عليكم مأخوذة من الكتاب في الموضوع الذي يتحدث فيه المؤلف عن السقطة الاولى :

« في إحدى الأمسيات ، كانت « ايمبا » جالسة قرب نافذتها تطل منها على المرح المجاور ، حين سمعت فجأة جرس الكنيسة ينبه إلى صلاة المساء . كنا في أوائل شهر أبريل حيث تفتح الأزهار ، وتبدو الحدايق اشبه بالنساء إذ يتزين تأهبا لاستقبال مباحج الصيف . . وحملتها هذه المشاهد على اجنحة الخيال فاستغرقت في لجة من الذكريات . ذكريات الطفولة ، وذكريات إقامتها في الدير . وذكريات الثريات الضخمة في صحن الكنيسة ، وأواني الزهر تنتثر في شتى أرجائها . كانت تود لو ظلت بين رفيقاتها المحجبات بالافتنة البيضاء . . وتذكرت الراهبات جانيات على ركبهن يتعبدن إلى الله . . هذه هي اللغة التي عبر بها عن الشعور الديني . ومع هذا تقول النيابة أن فكرة الإلحاد تسود الكتاب من الفه إلى يائه . أين ؟ . . هذا هو الكتاب بكامله لتقضى فيه المحكة . وستجده من غير شك مطبوعا بالطابع الديني بحيث يبين في وضوح أن إلصاق تهمة الإلحاد بكاتبه غريبة فاضحة . إليكم أيضا هذه العبارات ، عندما خالت « ايمبا » عقب الحمى المخية أنها تحضر ، فطلبت الكاهن لتتناول القربان المقدس : « احسنت كأن شيئا أقوى منها يسيطر عليها ويزيل كل آلامها ويجردها من كل وعى وكل شعور . رقي جسمها ولم يعد له ثقل ودخلت في حياة جديدة وبدا لها كأن كيائها يصعد إلى الله . انها ستقضى في هذا الحب كالبخور المحترق يتبدد في الهواء . . »

● ولعل غيبا قلته ما يدفع تهمة المساس بالدين من أساسها . بيد ان النبأية تقول : « أن الذي مسستموه ليس الدين وإنما هو الأخلاق التي توارثتها الأجيال ، مسستموها إذ مسستم الموت » .. نبأى صورة مسسنا الموت ؟ .. تقول النبأية : مسستموه بشخصية ذلك الضيرير الذي جعلتموه يسير بخطواته الثقالة على الإفريز تحت نافذة المرأة المحتضرة ، وذلك الضيرير المتسول الذي كانت « إيما » تدس في يده بعض النقود وهى عائدة من زيارتها العابثة ، والذي طالما انشدها أغنيته المأجنة ، ينشدها لها في اللحظة التي كانت تستبطر فيها الرحمة من السماء .. انتم ترون في هذا مساسا بالموت . والحال ان السيد «فلوبير» لم يفعل سوى ما فعله «شكسبير» وما فعله «جوته» .. فقد درج هذان الروائيان — في رواياتهما — على ان يقرنا مشهد الاحتضار بأغنية تطرق سمع المحتضر . تذكرنا له وهو على أبواب الأبدية ببعض المباحج الدنيوية التي لن يستمتع بها بعد الآن ، أو ببعض الخطايا التي ينبغي له ان يكفر عنها .. وتمضى قصتنا بعد ذلك تصف مشهد اللحظات الأخيرة من الاحتضار وصفا مؤثرا للغاية ، وصفا قال فيه « لامارتين » إنه لم يقو على المضي في قراءته . وإنى اجتزىء منه هنا بسرد العبارات التي تنعماها النبأية علينا .

« كان شارل في الجانب الآخر من سرير المحتضرة ، وكان الكاهن كلما اشتدت الحشجة ، أسرع في ابتهالاته التي كانت تخطط بأنتاحبات بوفارى .. وكان يبدو أحيانا ان كل شيء يتلاشى في تلاوة العبارات اللاتينية يرددها الكاهن فيسمع لها رنين كرنين الجرس .. وفجأة سمع وقع أقدام في حذاء غليظ

تخطو على الإفريز ، يختلط بقرقعة عصا ، وارتفع صوت خشن ينشد : « كثيرا ما يحمل دفء النهار الصبية على أجنحة الحب » .. ونهضت « إيما » كجثة بين يدي محتظها ، وقد تشعث شعرها وتصلبت عيناها .. وجعلت تضحك في قسوة وبأس ، وقد تخيلت وجه الرجل البائس الدميم ، يقوم في ظلمة الأبد كشبح مخيف .. وشهقت شهقة اردتها على الفراش . واقترب الجميع منها .. لقد فارقت الحياة ! » .

تأملوا ، يا حضرات القضاة ، هذا المشهد الذي اغرغ فيه المؤلف كل فنه ليصور تذكر الأخطاء الماضية ، ووخر الضمير . إنه ليس مقارنة عديمة الجدوى والمغزى الأخلاقى .. ها هو ذا الرجل الضيرير الذي يردد في الطريق تلك الأغنية التي طالما طرقت سمعها وهى عائدة بعد زيارتها الآثمة ، الضيرير الذي يتعقبا حتى اللحظة الأخيرة التي تهبط فيها رحمة السماء . فيتمثل فيه الغضب البشرى يلاحقها في لحظة الموت الرهيبة . والنبأية تسمى هذا خدشا للآداب العامة ! .. ويمكننى القول بأنه تهجيد للآداب العامة !!

إن المؤلف يسألنا في كل صورة من الصور التي رسمها لنا : هل فعلتم في تربية بناتكم ما يجب ان يعمل ؟ هل الدين الذي علمتموه هو الدين الذي يستدھن وبسط عواصف الحياة ، أو هو حشد من الخرافات الحسية يتركهن بلا سند عندها تعصف العاصفة ؟ هل علمتموهن ان الحياة ليست تحقيقا للأوهام والأخيلة وإنما هى وضع واقعى ينبغي لنا ان نوائم بينه وبين ذواتنا ؟ .. هل قلتم لهن . يا بناتنا المسكينات .. لن تجدن في المذلات التي تنشدنها سوى السامة التي

تنتظركن ، وترك البيت ، والتقلقل ، والاضطراب ، والمهانة ،
والذل ، وما إليها ؟

تقول النياية : ولكن هذه المرأة تموت في اليوم والساعة
الذين تحددهما لنفسها ، وهي تموت لأنها تريد أن تموت ،
وتقول : أكان يمكنها أن تبقى على قيد الحياة بعد كل هذا الذي
حل بها من المصائب والويلات ؟ هناك كتاب اعلام ، يا سيدي
النائب ، صوروا نساء عابثات ينعمن في الثراء ويخالطن أرقى
شخصيات المجتمع . اغعدنا تصور امرأة تلقى هذا المصير
المحزن الذي لقيته مدام بوفاري ، يقال اننا خدشنا الآداب
العامة ؟ وقالت النياية أيضا : انكم استحدثتم شخصية كاهن
مادى . وارد على هذا القول باننا اخذنا هذه الشخصية كما
اخذنا شخصية الزوج من واقع الحياة . . ولم ننح منحى كتاب
آخرين صوروا شخصية رجل الدين في مؤلفاتهم تصويرا غير
لائق . . انكم تجدون صورة من هذا النوع في مؤلفات « بلزاك »
و « فيكتور هوجو » . ولم نقل إن الكاهن رجل يباحى أو جشع
وإنما قلنا انه رجل على قدر متواضع من الثقافة يؤدي واجبه
ككاهن في القرية على الوجه العادى المألوف ، وفضلا عن هذا
وضعنا أمام هذه الشخصية شخصية الصيدلى . ذلك الرجل
الملحد الذى كثيرا ما كان يختصم الكاهن ويجادله وينهزم دائما
في هذا الجدل ويهزا منه الحاضرون .

● لستم ، يا حضرات القضاة ، ممن يحكمون على الكتب
استنادا إلى بعض السطور ، وإنما انتم ممن يحكمون أولا وقبل

كل شيء على الفكرة والإخراج ، ويسألون انفسهم هذا
السؤال الذى بدات واختمت به مراغمتى وهو : هل قراءة مثل
هذا الكتاب تدفع القارىء إلى حب الرذيلة أو تحفز به إلى التخوف
من بشاعتها ؟ ألا يدعو هذا العقاب الصارم — الذى جلبه
الاندفاع في طريق الأثم — إلى الاستسماك باهداب الفضيلة ؟
.. ان الأدب الكلاسيكى جميعه كان يسمح لنا برسم صور
ومشاهد غير التى رسمناها تماما . كان في وسعنا ان نتخذ منه
اسوة لنا ، ولكننا لم تفعل وإنما التزمنا قناعة ستحدوها لنا .
إنى لا أذكركم فقط بأن هذا الكتاب هو أول كتاب يضعه
المؤلف ، بل أذكركم بأنه ، حتى إذا كان قد زل فيه زلة ما فهى
زلة لا ضرر منها على الآداب العامة ولا تستوجب أن يقدم إلى
المحاكمة . .

« الحكم »

خصصت المحكمة جانباً من جلسات الأسبوع الماضى
لسماع الدعوى العمومية المقامة ضد كل من السيد « ليسون
لوران بيشا » والسيد « أوجست الكسى بيليه » ، بصفة أن
الأول مدير والثانى طابع مجلة « لاريغو دى بارى » . . والسيد
« جوستاف فلوبر » من رجال الأدب ، وثلاثتهم متهمون :

الأول : بأنه نشر في عددى مجلته الصادرين في يومى
واحد وخمسة عشر ديسمبر عام ١٨٥٦ طلقات من رواية
يعنوان « مدام بوفاري » وعلى الأخص الحلقات التى تضمنتها
الصفحات ٧٣ — ٧٧ — ٧٨ — ٢٧٢ — ٢٧٣ فارتكب بهذا
النشر جنحة خدش الآداب والمعاداة العامة والمساس بالدين .

والثاني : بأنه طبع واعد للنشر الحلقات المشار إليها .

والثالث : بأنه كتب هذه الحلقات وقدمها إلى الأول للنشر وبذلك ساعد الأول وسهل له ارتكاب الجنحة المنصوص عليها في المادتين ١ و ٨ من القانون الصادر في ١٧ مايو عام ١٨١٩ والمادتين ٥٩ و ٦٠ من قانون العقوبات ..

(ثم استعرضت المحكمة الحبيثات التي بنت عليها آراءها ، ونقتطف منها الفقرات التالية) .

« .. وحيث أن فقرات الرواية التي تناولها الاتهام بسوء خاص .. إذا نظر إليها مجردة ومنعزلة ، فإنها تحتوى فعلا على تعبيرات أو صور أو لوحات لا يقرها الذوق السليم ومن شأنها المساس بالأخلاق الفاضلة » .

« وحيث أن الكتاب المحال إلى هذه المحكمة يستحق من هذه النواحي أن يلام لوما شديدا ، إذ أن مهمة الأدب ينبغي أن تتجه إلى تثقيف ورياضة الذهن ، بإتماء العقل وتنقية الأخلاق ، أكثر من اتجاهها إلى إذكاء الشعور بكَراهية الرذيلة عن طريق رسم صور الانحراف التي قد تشاهد في المجتمع .

« وحيث أن المتهمين وبخاصة « جوستاف فلوبير » دفعوا التهمة الموجهة إليهم بقولهم أن الكتاب المعروض على المحكمة ينطوى على غرض أخلاقي سام ، وأن المؤلف إنما قصد به أول ما قصد ، بسط الأخطار التي تنجم عن تثقيف النشء ثقافة لا تلائم البيئة التي يتعين عليهم أن يعيشوا فيها ، وأنه مضى في عرض هذه الفكرة فأظهر المرأة — التي جعل منها

الشخصية الأولى في قصته — في ثوب المرأة التي تصبو نحو عالم ومجتمع لم تخلق لهما ، فتعمل أولا واجباتها كأم ، ثم واجباتها كزوجة ، وتدخل إلى بيتها الفحشاء ثم الخسراب ، ويقتضى بها الأمر أخيرا إلى الانتحار ، بعد اجتيازها كافة مراحل الانهيار الخلقي ، حتى أنها لم تتورع عن السرقة !

« وحيث أنه لا يجوز ، بحجة تصوير الأخلاق والأوضاع ، الإسراف في سرد الأفعال والأحوال والحركات التي تصدر عن الشخصيات التي يلتزم الكاتب تصويرها ، وإنه إذا طبق هذا المبدأ على الآثار العقلية والقطع الفنية ، فإنه يؤدي إلى واقعية تنتفى بها الجمال والجودة ، فتظهر آثار تسيء إلى النظر وإلى العقل في وقت واحد ، وتمس بلا انقطاع الآداب والأخلاق العامة .

« وحيث أن هناك حدودا ينبغي للأدب — حتى ما كان منه رخيصا مبتذلا — ألا يجاوزها . وحيث أن « جوستاف فلوبير » والمتهمين معه لا يبدو أنهم تنبهوا بالقدر الكافي إلى تلك الحدود .. وحيث أن المؤلف الذي وضعه السيد « فلوبير » ينم عن أنه استنفد كثيرا من الوقت والجهد من الناحية الأدبية وناحية الدراسة الأخلاقية ، وحيث أن الفقرات التي أشار إليها قرار الإحالة بالغة ما بلغت من العيب ، قليلة بالمقياس إلى حجم الكتاب ، وأن هذه العبارات سواء بالنسبة للآراء التي تبسطها ، أو بالنسبة للأوضاع التي تصفها ، إنما تدخل في نطاق الأخلاق التي أراد الكاتب أن يحللها .

« وحيث أن السيد « فلوبير » أبدى احترامه للدين والآداب

العامة ، وأن كتابه لم ينح منحى غيره من المؤلفات التى وضعت « بقصد » إثارة الفرائز الحسية فحسب . وأنه اخطأ منقط فى أنه تجاهل أحيانا الحدود التى ينبغى لكل كاتب يحترم نفسه أن يلتزمها ، وأنه نسى أن الأدب كالفن يجب أن يكون عفا التعبير نقى التصوير . . . وحيث أنه لهذه الاعتبارات لم يثبت ثبوتا كافيا أن المتهمين الثلاثة قد ارتكبوا الجنحة المسندة إليهم .

« لهذا ، حكمت المحكمة ببراءتهم من الاتهام الموجه إليهم مع إعفائهم من المصاريف » .

٤٢٧٩

رقم الابداع : ٦ - ٨٠ - ١٦٢ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالمباسة
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة



مطبوعات كتابي إصدار جديد

عزيزى القارئ ..

فى الكتاب السابق قرأت الترجمة الكاملة «الأمينة» للجزء الأول من هذه الرواية الخالدة، التى رفعت مؤلفها الروائى الفرنسى الشهير «جوستاف فلوبير» إلى مصاف كبار أدباء العالم، وإن كان قد أصيب من جراء رومانسية بطله الرواية «أيمافوقارى» بلون من الاكتئاب النفسى دفعه إلى الحضور إلى مصر والتجوال فى أنحائها بصحبة صديقه «ماكسيم دى كامب» لمدة ستة أشهر، تابعت خلالها امبراطورة فرنسا الشهيرة «أوجينى» أنباءهما باهتمام وانبهار، حتى شفى «فلوبير» بتأثير شمع من محسر وسعائها الصافية من اكتنابه، وعاد إلى بلاده ليكمل مسيرته الأدبية ويستمتع بالشهرة التى حظى بها نتيجة لنجاح ورواج هذه الرواية الخالدة!

على أن حساده ومنافسيه لم يكفوا عن مهاجمته بتهمة «الواقعية» الصرفة التى التزمها فى تصوير خلجات بطله القصة وتوازرها، مما اضطر السلطات إلى تقديمه للمحاكمة الجنائية بتهمة انحياز «لمذهب» الفن للفن «ضد مذهب» الفن فى خدمة المجتمع» الذى ينادى به المتمزمتون من أعداء «الواقعية» التى تصور الحياة كما هى فى حقيقتها، لا الحياة كما ينبغي أن تكون.

وقد رأيت أن أنشر لك فى ختام هذا الجزء الثانى والأخير من الرواية تفاصيل تلك المحاكمة الشائقة التى جرت أمام محكمة جنح «باريس» خلال الأيام من ٣١ يناير إلى ٧ فبراير عام ١٨٥٧ والتى انتهت بتبرئة مؤلف الرواية وتسجيل «احترامه للآداب العامة والمقاييس الخلقية والدنية» .. وبذلك اسدل الستار على ذلك الاتهام ورذ اعتبار المؤلف .

حامى مراد

١٥٠ قرشًا

